Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روايات الهلال

الزوج الأبدى



8

دوستويفسكى

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة » دار الهلال

العدد ٣٤٥ — سبتمبر ١٩٧٧ — رمضان ١٣٩٧
No. 345 — September 1977

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

سكرتير التحرير : موسى عبد

المدير الفني : أحمد فاضل

المشرف الفني : جمال قطب

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة — في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، في الاردن ٢٠٠ فلسا ، في العراق ٣٠٠ فلسا — في الكويت ٣٠٠ فلسا — في السعودية ٣٫٥ ريال سعودي

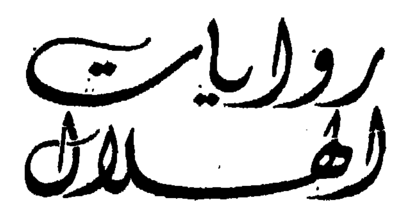
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشا صاغا — في سائر انحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥٠ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفي الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي — وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداءات ٢٠٠١
ا.صلاح راتب
القاهرة



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أغلفة بريشـــــة
الفنـــان جمال قطب

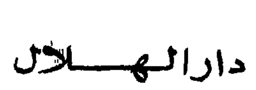
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزوج الأبدي





دكتور سامي الدروبي




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ١ ـ

فلتشانينوف

جاء الصيف ، وبقى فلتشانينوف ببطرسبرج ، على خلاف كل ما كان يتوقع .. فالرحلة التى كان يزمع القيام بها الى جنوب روسيا لم تتحقق ، والدعوى التى يلاحقها لا ترى لها نهاية . ان هذه الدعوى ، وموضوعها خلاف على أرض ، قد تغير مجراها تغيرا سيئا . منذ ثلاثة أشهر كانت تبدو بسيطة ، وكان كسبها أمرا لا يجادل فيه . ولكن كل شىء فسد على حين فجأة . « الامور تسير من سيىء الى اسوأ » . هذه هى العبارة التى اصبح فلتشانينوف يرددها فى كثير من الاحيان . كان له محام بارع ، باهظ الاجر ، ذائع الصيت ، وكان لا يبالى النفقات . الا أن نفاد صبره ، ونوعا من الشك القلق ، كانا يحدوانه الى التدخل فى القضية بنفسه : فكان يحرر مذكرات يلقيها المحامى كلها فى السلة ، وكان يسعى بين الادارات هنا وهناك ، ولا ينفك يستطلع الانباء ، ولعل هذا كله كان لايزيد على أن يعرقل الامور ويؤخرها ، وكان المحامى يتذمر من ذلك ، ويلح عليه أن يسافر الى الريف ، ولكن صاحبنا كان لايستطيع أن يعزم أمره على السفر ، ولو الى ضواحى المدينة . الغبار ، الحر الخانق ، الليالى البيضاء التى تثير الاعصاب ، ذلك ما كان يستمتع به فى بطرسبرج . ولم يكن حظه من مسكنه الذى استأجره منذ قليل قرب « المسرح الكبير » بالحظ الحسن : « ما من شىء يوفق فيه » . فكان مزاجه السوداوى يتفاقم يوما بعد يوم ، والحق انه كان يجنح الى هذا المزاج السوداوى منذ مدة طويلة .

هذا رجل قد عاش حياة مليئة واسعة . وقد تجاوز الآن ريعان الشباب ، فهو فى الثامنة والثلاثين أو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، وقد ظهرت « شيخوخته » هذه « فجأة » على حد تعبيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولـكنه كان يدرك هو نفسه أن هرمه لايرجع الى عدد السنينالتى عاشها ، بل الى نوع هذه السنين ، وان السبب فى جميع ما يعانى انما هو سبب نفسي . كان لايزال يبدو رجلا قوى البنية : فهو فتى فارع القامة ، صلب العود ، ليس فى شعره الـكثيف الاشقر ، ولا فى لحيته الطويلة التى تكاد تتدلى الى نصف صدره ، خيط أبيض واحد ، وكنت اذا نظرت اليه نظرة أولى خيـل اليك انه أخرق ثقيل ، ولـكنك ما أن تنعم النظر حتى ترى فيه السيـد المهـذب الذى يجيد التصرف والذى نشأ فى مجتمع راق . كانت حركات فلتشانينوف سهلة هينة ، رصينة وقور ، بل لقد كانت جميلة رشيقة أيضا ، رغم ما طرأ عليـه من ميـل الى التـذمر والاهمال . وما زال الى الآن يتصف برزانة لا تتزعزع ، وبثقـة ارستوقراطية تبلغ حد الوقاحة ، ولعله كان هو نفسه لا يقـدر مدى هذه الثقة ، رغم انه ليس رجلا ذكيا فحسب ، بل مرهفا فى بعض الاحيان ، وعلى حظ من الثقافة ، وعلى جانب من الموهبة لاشك فيه . وكان وجهه الصريح الزاهي ــ الذى كان يتميز منذ قليل بنعومة ورقة ــ يجذب اليه انتباه النساء ، حتىانك اذا رأيته الى الآن قد تهتف قائلا : «ما أجمل هذا الفتى القوى! » . ومع ذلك فان هذا « الفتى القوى » مصاب بمزاج سوداوى قاس . ولقد كان فى عينيه أيضا ، منذ عشر سنين ، شيء يأسر النفس : عينان زرقاوان واسعتان، صافيتان ، مرحتان ، فيهما ، فوقذلك، من الحركة ما يجذب كل من يقع عليهم بصره ، شاءوا أم أبوا . اما الآن ، وهو يشـارف على الاربعين ، فان الوضوح والطيبة قـد زالتا تماما من هاتين العينين اللتين أصبحت تحف بهما غضـون خفيفة ، حتى لقد أصبحتا تعبران عن استهتار رجل متعب ليس على جانب كبير من الاخلاق ، وعن المكر ، وعن الهزء فى أكثرالاحيان، وعن شيء جديد لم يكن فيهما من قبل ، عن لون خفيف من الحزن والألم ، حزن خفى لا موضوع له ان صح التعبير ، ولكنه حزن عميق . وكان هذا الحزن يظهر خاصة حين يكون صاحبنا وحـده . والغريب ان هذا الرجل الذى كان ، منذ سنتين لا أكثر ، انسانا كثيرالصخب ، شديد المرح، يجيد رواية النكت المضحكة ، أصبح الآن لا يحب شيئا حبه للوحدة التامة . لقد هجر من تلقاء نفسه عدداً من العـلاقات التى كان يمكنه الا يهجرها رغم ما آلت اليه ثروته من حال سيئة . صحيح ان غروره قد ساعد على ذلك أيضا:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن ما يعانيه من حذر قلق ، وما يتصف به من غرور ، قد جعل من المستحيل عليه أن يتردد على أصدقائه القدامى . ولكن الغرور نفسه قد تبدل فى الوحدة شيئا فشيئا . ان هذا الغرور لم يضعف ، ولكنه اتخذ صورة اخرى ، خاصة جدا : ان الامور التى تجرحه الآن تختلف كل الاختلاف عن الامور التى كانت تزعجه فى الماضى : انها الآن بواعث لا يتنبأ بها ، بواعث « أعلى » من تلك التى كان لها عليه سلطان الى الآن ، « اذا صح التعبير ، اذا كان ثمه بواعث عليا وبواعث دنيا حقا » . هذا ما كان يضيفه ...

نعم ، لقد وصل به الأمر الى هنا : انه الآن يصارع أسبابا عليا لايدرى احد ما كنهها ، اسبابا ما كانت لتخطر بباله قبل ذلك . وكان ، فى ذهنه ، فى شعوره ، يسمى باسم « الأسباب العليا » جميع تلك التى كان (على دهشة منه) لايستطيع أن يهزأ بها وأن يضحك منها فى ذات نفسه . أما بين الناس فالأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف . كان يعلم حق العلم انه يستطيع بين الناس ، فى أول مناسبة ، منذ الغد ، أن يعدل كل العدول عن جميع هذه « الأسباب العليا » رغم ما فى ضميره من أمور خفية تقية ، وأن يكون أول الهازئين بها الضاحكين منها ، مع الحرص على عدم الاعتراف بذلك طبعا . وكانت الأمور تجرى على هذا النحو فعلا ، رغم ما ظفر بالوصول اليه اخيرا من استقلال فكرى واضح عن « الأسباب الدنيا » التى كانت تسيطر عليه قبل ذلك . وكم من مرة ، مع هذا ، نهض من فراشه عند الصباح ، وهو يشعر بالخجل من الافكار والعواطف التى ساورته أثناء الأرق (يجب أن نذكر انه يعانى من الأرق دائما فى هده الأوقات الاخيرة) ، حتى لقد لاحظ منذ مدة طويلة انه اصبح يزداد استسلاما للوساوس والشك ، سواء فى الشئون الخطيرة وفى الأمور التافهة ، فقرر الا يصدق نفسه كثيرا . ولكن كانت تقع له أحداث يستحيل حقا أنكار انها واقعة . ان أفكاره واحساساته العادية أصبحت ، فى هذه الاوقات الاخيرة ، تتبدل أثناء الليل تبدلا يشبه أن يكون تاما ، فما تشبه الافكار والاحساسات التى كانت تساوره أول النهار فى شىء . وقد اذهله هذا ، حتى لقد مضى يستشير طبيبا مشهورا كان بينه وبينه معرفة شخصية ، فقص عليه الأمر مازحا بطبيعة الحال ، فعرف أن تبدل الافكار والاحساسات ، بل ازدواجها ، أثناء الأرق ، وخلال الليل بوجه عام ، ظاهرة كثيرة الشيوع بين

أولئك الذين « يفكرون ويحسون بعنف » ، وان الاعتقـادات التى رسخت فى المرء خلال حياته كلها يمكن أن تتبدل فجأة بما يحدثه الليل والأرق فى نفسه من هبوط وخور ، حتى لقد يتخذ الانسان فى مثل هذه الاحوال ، وعلى حين فجأة ، قرارات حاسمة فى حياته، وان لـكل شىء حـدا بطبيعة الحال ، فاذا شـعر المريض بهـذا الازدواج شعورا قويا حتى تألم منه ، كان ذلك دليلا قاطعا على وجود مرض حقيقى ، وفى هذه الحالة ينبغى أن يبادر المريض الى علاج نفسه ، وخير مايعمله ان يغير طراز حياته تغييرا جذريا ، وان يبدل نظام معيشته ، وحتى أن يقوم برحلة . ومن المفيد حتما فى هذه الحالة أن يتناول أيضا « شربة » .

انقطع فلتشانينوف عن سماع مزيد من هذا الـكلام : انه اذن مريض .

« كل هذا اذن مرض ، كل تلك الأسباب « العليا » ليست اذن الا نتيجة المرض ، ليست اذن شيئا آخر ! » بهذا كان يهتف ساخرا . انه لم يذعن حقا للتسليم بذلك .

وماهو الا وقت قصير ، واذا بالأشياء التى كان لايحسها الا نادرا ، فى الليل ، أصبحت تقع له عند الصباح ، وأصبحت أحد حدة وأمر مرارة ، واخذ عذاب الضمير يحل محل الغضب، واخذ التأثر يحل محل السخر . ان حوادث من حيـاته الماضية ، من حياته الماضية البعيدة فى بعض الاحيـــــان ، تنبثق الآن فى ذاكرته انبثاقا عجيبا ، تنبثق « على حين فجأة ، لا يعلم الا الله لماذا » .

وازدادت هذه الظاهرة حدوثا . كان فلتشانينوف ، منذ مدة طويلة، يشكو من أن ذاكرته تضعف : كان ينسى وجوه أشخاص يعرفهم ، فيزعجهم ذلك منه حين يلقاهم . وكان فى بعض الاحيان ينسى كل ذكرى عن كتاب قرأه منذ ستة أشهر مثلا . ومع ذلك ، رغم هذا الضعف الواضح الذى يصيب ذاكرته يوما بعد يوم (وكان من هذا فى حالة هم وخوف) ، فان كل ما يتصل بماضيه البعيد من حوادث نسيها نسيانا تاما منذ عشر سنين أو منذ خمس عشرة سنة ، يستيقظ الآن فى ذاكرته على حين فجأة ، واضح التفاصيل ، قوى التأثير ، كأنه يعيشه مرة أخرى . وبعض هذه الحوادث كان قد بلغ من اغراقه فى غياهب النسيان أن مجـرد القـدرة على تذكره كان يبدو له معجزة من المعجزات . ولـكن هـذا لم يكن كل شىء : ما من أحد عاش حياة مليئة واسعة الا وتبقى له ذكريات من هذا النوع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانما الأمر الهام هو ان ذلك الماضي الذي يستيقظ الآن يظهر له بوجه جديد غير متوقع ، يظهر له بوجه ما كان يمكن أن يخطر له قبل ذلك ببال . لماذا تتخذ بعض ذكرياته في نظره الآن مظهر جرائم حقيقية ؟ ثم ان هذه الذكريات لا تبدو له في هذه الصورة برأى يراه عقله فحسب ، والا لما صدق عقله هذا ، المظلم ، الوحيد ، المريض ، وانما كان يصل من ذلك الى أن يلعن نفسه ، بل كان يوشك أن يبكي ، ان لم يكن بدموع ظاهرة ، فبنشيج داخلي . لو قال له أحد منذ سنتين انه سيبكي ، لما صدقه بحال من الاحوال . ثم ان ذكرياته كانت في أول الأمر ذكريات مرة أكثر مما كانت ذكريات عاطفية . كان يتذكر بعض ما ناله في حياة المجتمع الراقي من اخفاق ، وبعض ما لحق به من مهانة احيانا : تذكر مثلا «الوشايات» التي روجها عنه رجل دساس ، فأصبح أحد البيوت لا يستقبله ، وتذكر كيف أهين قبل ذلك اهانة واضحة على ملأ من الناس فلم يحاول أن يسترد شرفه بطلب النزال بالسلاح . وتذكر كيف وخز مرة بكلمة لاذعة أمام جمع من جميلات النساء ، فلم يعرف كيف يرد الوخز بمثله ، بل لقد تذكر كيف تخلف عن دفع بعض الديون التي كانت تافهة في ذاتها ، ولكن التخلف عن دفعها اخلال بالشرف ، وهي لأناس أصبح الآن لايراهم ، بل يقول فيهم هاجر القول . وكان يتذكر على ألم أيضا (ولكن ذلك في أسوأ حالاته فحسب) الثروتين الضخمتين اللتين بددهما بغباوة . ولكن ذكرياته ما لبثت أن أصبحت تتناول أمورا « أرفع » من ذلك .

من ذلك انه تذكر فجأة ، بلا أي سبب ، بعد نسيان طويل ، انه في ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، أهان على ملأ من الناس ، ظلما وعدوانا ، موظفا صغيرا عجوزا طيبا ، لا لشيء الا ليقول كلمة جميلة جاءت له ببعض الشهرة وصارت مضرب المثل . ان هذه الحادثة كانت قد دفنت في ذاكرته دفنا عميقا ، حتى انه كان لايستطيع أن يتذكر اسم العجوز القصير ، رغم ان جميع ظروف القصة انبجست في ذاكرته الآن ، على حين فجأة ، بوضوح ما بعده وضوح . تذكر أن العجوز أراد أن يدافع عن ابنته التي تقدمت في السن ولم تتزوج بل ظلت تقيم مع أبيها ، فأخذوا يروجون عنها الاشاعات ، فحاول العجوز أن يدافع عنها وأن يغضب ، ثم اذا به ، على حين فجأة ، ينفجر منتحبا أمام جميع الناس ، فترق له قلوبهم قليلا ، ثم يسكرونه بالشمبانيا على سبيل المزاح ، ويضحكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما شاء لهم أن يضحكوا . فلما تذكر فلتشانينوف العجوز الصغير، بلا سبب ، فرآه وهو ينتحب ويخفى رأسه بيديه ، كطفل ، أحس فجأة انه لم ينقطع يوما عن تذكر هذه الحادثة . والغريب ان ذلك كله كان يبدو له مضحكا ، اما الآن فهو لا يبدو له كذلك ، وخاصة بعض التفاصيل ، ودفن الوجه باليدين بالذات .

وتذكر أيضا كيف انه شهر ، لا لشيء غير المزاح ، بتلك المرأة الجميلة ، زوجة معلم المدرسة ، حتى وصلت الاشـــــاعات التى روجها الى الزوج . أن فلتشانينوف ، وقد ترك تلك المدينة الصغيرة بعد ذلك بمدة قصـــيرة ، لم يعرف ابدا العواقب التى نجمت عن عمله . ولـكن هاهوذا الآن ، فجأة ، يأخذ يتصورها ، ولا يعلم الا الله الى أين كان يمكن ان يؤدى به خياله ، لولا أن انبجست فيه ، فجأة ، ذكرى أقرب من تلك ، ذكرى فتاة بسيطة ، لا تغريه ، ولا كانت تعجبه ، حتى لقد كان يحمر خجلا من علاقته بها ، ولكنه مع ذلك انجب منها طفلا ، دون ان يخطر له هذا ببال . فهجر الأم والطفل، حتى انه لم يودعهما ، (والحق ان وقته لم يتسع للوداع) حين سافر من بطرسبرج. وقدحاول بعد ذلك ، خلال سنة بكاملها ، أن يعثر على تلك الفتاة ، فلم يظفر بطائل . على ان ذاكرته كانت تمتلىء بمئات من الذكريات التى من هذا القبيل ، وكان كل واحدة منها كانت تجر وراءها عشرات . وشيئا فشيئا اخذ غروره يصاب أيضا .

سبق أن قلنا ان غروره قد اتخذ شكلا خاصا جدا ، والواقع ان الرجل كانت تمر به لحظـات (وان تكن نادرة) يبلغ فيهـا من عـدم الاكتراث انه لايستحى الا تكون له عربة خاصة به ، وأن يتنقل من ادارة الى اخرى على قدميه ، وان يهمل هندامه . ولو صـادفه أحد منمعارفه القدماء فى الشارع فنظر اليه نظرة ساخرة أوتظاهر بأنه لايعرفه ، لـكان له من كبريائه ما يكفى لأن لايشعر من ذلك بأى حنق ، لا ظاهرا فحسب ، بل فى قرارة نفسه أيضا . بديهى أن هذه الحالة نادرة . وما كانت تدوم الا لحظات قصاراً من نسيان النفس والاهتياج . ولكن غروره قد تحول شيئا فشيئا عن الامور التى كانت قبل ذلك تؤثر فيه ، واصبح منصبا على شيء واحـد يشغل الآن فـكره بغير انقطاع .

كان يقول لنفسه بلهجة ساخرة (يجب أن نذكر انه كان اذا فكر فى نفسه اصطنع لهجة السخر فى جميع الاحيان تقريبا) : اذن هناك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من يهتم بحالتي النفسية فيرسل الى هذه الذكريات المنحوسة ، و « دموع الندامة » ، ولـكن ذلك لن يفيد فى شيء ! انه تسديد الى فراغ ... السست متأكدا من انني، على هذه الندامات الدامعة وعلى قسوتى فى الحكم على نفسي ، لا أملك شيئا من الحرية ، رغم السنين الاربعين الغبية ! انه ليكفي أن يتكرر الاغراء غدا ، وأن تعرض تلك الظروف ذاتها : يكفى مثلا أن أجنى بعض الفائدة من التشهير بزوجة المعلم ومن الافتراء عليها بقولى انها تقبـل هداياى ، حتى اشهر بها من غير تردد ، وسيكون عملى عندئذ شرا مما كان فى المرة الاولى لانه الآن مرة ثانيـة . ويـكفى أن يهينني ذلك الأمير الصغير ، وحيد أمه ، الذى كسرت له ساقه برصاصة مسدس ، منذ أحد عشر عاما ، يكفى أن يهينني مرة أخـرى حتى أهـدى اليه ساقا ثانية من خشب ... فما فائدة هذه الذكريات اذن ؟ أليست تسديدأ الى فراغ ؟ ماجدواها ؟ فيم هـــذه الذكريات ، ما دمت لا أصل الى التحرر من نفسي قليلا او كثيرا ! .

ورغم ان قصة زوجة معلم المدرسة لم تتكرر ، ورغم انه لم يهد الى أحد ساقا من خشب مرة ثانية ، فان مجرد تفكيره فى انه يفعل ذلك حتما اذا واتت الظروف ... كان يقتله تقريبا ... فى بعض الاحيان . الحق ان المرء يستحيل أن يظل فريسة ذكريات مؤلمة ، وانما يحسن به أن يستريح وان يتنزه من حين الى حين .

وذلك ما كان يفعله فلتشانينوف : كان مستعدا لأن يتنزه من حين الى حين ، ولـكن حياته فى بطرسبرج كانت تثقل وطأتها عليه يوما بعد يوم . كان شهر تموز يقترب . وكان فى بعض الاحيـان يقرر فجأة أن يترك كلّ شيء ، حتى الدعوى ، وأن يســافر فــورا الى أى مكان ، الى القرم مثلا ، وأن ينقطع عن التفكير فى أى أمر من الأمور . ولـكنه كان ما يلبث ، بعد ساعة من الزمان ، أن يحتقر هذه الفكرة ، وأن يهزأ بها « ما من رحلة يمكن أن تشفيني من هذه الافكار المؤلمة بعد أن انبجست ، اذا كنت انسانا على شيء من الشرف . يجب الا أهرب من هذه الافكار ... وفيم أهرب منها ؟ » .

« نعم ، فيم أهرب منها ؟ (هكذا كان يواصل تفلسفه بمرارة) أن الجو هنا كثير الغبار خانق ، وان البيت هنا قذر كلّ ما فيه ، وان الادارات التى أضيع فيهــا وقتى بين رجال الاعمال فيهــا كثير من الحركة التى لاطائل تحتها ، وكثير من الاحتمالات السخيفة . وان

الناس الذين بقوا هنا والذين نراهم من الصباح الى المساء هم على قدر عظيم من الانانية الساذجة الصريحة ، والغفلة البسيطة ، يعكسون كل ما فى نفوسهم الصغيرة من نذالة ، وكل ما فى قلوبهم الوضيعة من جبن ... فهاهنا اذن الجنة الحقيقية لمن كان سوداوى المزاج . كل شيء هنا صريح واضح ، لا يفكر أحد فى اخفاء أى أمر من الأمور ، كما تفعل سيداتنا فى المصايف ، وفى مناطق المياه المعدنية ، وفى الخارج . كل شيء هنا أدعى اذن الى التقدير والاحترام ، لا لسبب آخر غير هذه الصراحة وهذه البساطة . لن أسافر ! أموت هنا ، ولكننى لن اذهب الى اى مكان ! » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٢ —

صاحب القبعة ذات الشريط الأسود

كان ذلك في الثالث من شهر تموز .. ان الحر خانق لا يطاق . وقد قاسى فلتشانينوف الوانا من المتاعب في ذلك اليوم . ظل النهار كله ، يسعى من مكان الى مكان ، تارة على قدميه ، وتارة في عربة ، وكان عليه أن يذهب في المساء الى شخص خطير الشأن يستطيع أن يفيده كثيرا : انه رجل من رجال الاعمال ، ومستشار دولة ، كان يريد فلتشانينوف أن يفاجئه في منزله الذي يقع غير بعيد من «النهر الاسود». وفي الساعة السادسة دخل فلتشانينوف أخيرا الى مطعم من المطاعم (سيىء المظهر رغم انه فرنسي) يقع على مقربة من جسر « البوليس » في شارع نفسكي . فجلس في ركن من أركان المطعم ، الى المائدة التي اعتاد الجلوس اليها ، وطلب الغداء الذي كان يكلفه روبلا واحدا ، ولما كان ثمن الخمر لا يحسب في وجبة الطعام ، فان فلتشانينوف كان لايشرب الخمر الا نادرا ، وكان يعد ذلك تضحية توجبها الحكمة لأن أعماله تسير سيرا سيئا . وكان يلتهم الطعام بشراهة حتى الفتات ، كأنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام . وكان هو نفسه يستغرب كيف يمكن أن يأكل طعاما سيئا كهذا الطعام . « هذا من المرض » ذلك ما كان يدمدم به حين يلاحظ شدة رغبته في الأكل . ولكنه في هذه المرة جلس الى مائدته معكر المزاج ، فرمى قبعته على ركن منها حانقا ، وتوكأ على كوعيه ، وراح يفكر . . كان يكفي أن يحدث جاره الجالس الى المائدة القريبة ضجة ما ، أو الا يفهمه الخادم الذي يحمل اليه الطعام ، من أول كلمة ، حتى يحدث عياطا وزياطا ، كضابط صغير ، وحتى يؤدي ذلك الى فضيحة صاخبة ، نعم . . . كان يمكن أن يصدر هذا عنه ، هو الذي كان يعرف كيف يكون لطيفا مهذبا ، هو الذي كان يعرف كيف يحتفظ بهدوئه وتعاليه حين يجب ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقدم اليه الحساء ، فتناول الملعقة ، ولـكنه ما لبث أن رماها على المـائدة ، وكاد يثب عن كرسيه : ان فكرة غير متوقعة قد اشرقت فى ذهنه على حين غرة : لقد أدرك فى هذه اللحظة (لايدرى الا الله كيف !) سبب قلقه هـذا القلق الغريب ، الفريد ، الذى يعذبه منذ بضعة أيام (لايدرى الا الله من أين أتاه !) والذى لم ينفك يخنقه (لايدرى الا الله لماذا!) . الآن ، فى هذه اللحظة ، ينكشف له كل شيء واضحا بسيطا ، كأصابع اليد الخمس .

دمدم يقول كمن أشرقت الحقيقة فى نفسه اشراقا : « انها القبعة. لا شيء الا تلك القبعة اللعينة ذات الشريط الاسود الـكريه . انها سبب كل شيء ! » .

وأخذ يفكر ، فكان كلما أغرق فى التفكير ، ازدادت نفسه حزنا ، وازداد « الحادث » فى نظره غرابة ...

وحاول أن يعترض ، لأنه لايريد أن يصدق نفسه ، فتساءل : « ولكن هل هذا حادث حقا ؟ هل فى هذا مايشبه ان يكون حادثا ؟» .

اليكم ماجرى : منـذ أسبوعين تقريبـا (انه لايتذكر على وجه الدقة ، ولكنه يقدر ان المدة أسبوعان) ، صادف ، أول مرة ، فى الشارع ، عند ملتقى بودياتشسكايا ومستشانسكايا ، رجـلا كان على قبعته شريط أسود . كان هذا الرجل كغيره من الناس ، لايمتاز بأى شيء خاص . مر بسرعة ، ولـكنه ألقى على فلتشانينوف نظرة متفرسة ، فلفت نظر فلتشانينوف فورا . ومهما يكن من أمر ، فقد تراءى لفلتشانينوف انه يعرف هذا الوجه ، فلاشك انه التقى به قبل الآن فى مكان ما . « ولكن الم ألق فى حياتى الوف الوجوه ! ان المرء لايستطيع أن يتذكر جميع الوجوه التى رآها ! » وما أن مشى عشرين خطوة ، حتى كان كمن نسى هذا اللقاء ، رغم حدة الشعور الاول . ولكن هذا الشعور الاول ظل قائما فى نفسه طوال النهار هياجا لا موضوع له ، هياجا من نوع خاص . والآن ، بعـد أسبوعين ، يتذكر فلتشانينوف كل ذلك واضحا جـدا ، ويتذكر أيضا انه لم يفهم يومئذ سبب ذلك الهياج ، حتى انه لم يربط بين انزعاجه خلال تلك السهرة وبين لقائه ذلك الرجل فى الصباح. ولكن الرجل أسرع فذكره بنفسه مرة أخرى ، ذلك ان فلتشانينوف التقى به فى غد عند شارع نيفسكى ، ونظر اليه الرجل نظرة غريبة مرة ثانية. فبصق فلتشانينوف حنقا ، ولكنه لم يلبث أن استغرب هذه الحركة التى بدرت منه . ان ثمة وجوها اذا رآها المرء أثارت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيه اشمئزازا ليس له تعليل ، اشمئزازا ليس له موضوع . وبعد انقضاء نصف ساعة على هذا اللقاء الثاني،كان فلتشانينوف يدمدم مطرقا حالما ، بقوله : « لقد رأيته حقا في مكان ما . » ومرة أخرى وجد فلتشانينوف نفسه معكر المزاج خلال المساء ، حتى لقد رأى في الليل حلما مزعجا ، ولكن لم يدر في خلده ان هذا الكدر الجديد الغريب ليس له من سبب الا هذا الرجل الذي يحيط بقبعته شريط أسود ، علامة الحداد ، رغم انه فكر فيه كثيرا خلال تلك السهرة . حتى لقد أحنقه أن تحتل مثل هذه الأمور التافهة ذاكرته خلال مدة طويلة هذا الطول كله . أما أن يعد ذلك الرجل مسئولا عن كدر مزاجه ، فهذه فكرة لو خطرت بباله لشعر منها بذل كبير . وبعد يومين التقيا مرة ثالثة بين الجمهور الذي كان ينزل من باخرة تطوف في نهر نيفا . وأحس فلتشانينوف في هذه المرة الثالثة ان هذا الرجل الذي يلبس الحداد كأنه يعرفه ، وكأنه اندفع نحوه ، محاولا التملص من الجمهور الذي كان يدفعه . حتى لقد خيل اليه ان الرجل « تجرأ » فمد اليه يده ، ولعله أيضا هتف به ، وناداه باسمه ... ان فلتشانينوف لم يميز هذا كله بوضوح، ولكنه قال لنفسه حانقا ، وهو يركب عربة للذهاب الى دير سمولني : « من عسى يكون هذا الوغد ، ولماذا لايأتي الى اذا كان يعرفني حقا ، وأذا كان يريد أن يقترب مني ؟ » . وبعد نصف ساعة قامت بينه وبين محاميه مناقشة عاصفة . أما في المساء وفي الليل فقد أحس بقلق مر رهيب يخنقه خنقا . فتساءل متحيرا وهو ينظر الى نفسه في المرآة : « أيكون هذا من فرط انصباب الصفراء ؟ » .

كان ذلك هو اللقاء الثالث . وانقضت ايام خمسة لم ير خلالها « أحدا » ، ولا ظهر « للوغد » أثر . ومع ذلك كانت ذكرى صاحب القبعة ذات الشريط الاسود تراوده من حين الى حين ، فكان يستغرب ذلك ويتساءل : « أأكون اذن راغبا في رؤيته ؟ هيه ..! لعل له ، هو أيضا ، أعمالا كثيرة في بطرسبرج ... ترى لمن يلبس السواد ... حزنا على من ؟ واضح انه عرفني ، ولكنني ، أنا ، لم أعرفه ... لماذا يضع هؤلاء الناس شريطا أسود ؟ انه لايناسبهم ... يخيل الى انني اذا رأيته من قرب سأعرفه ...»

وكأن شيئا كان يريد أن يتفتح في ذاكرته ... كما يقع للمرء حين يحاول ان يتذكر اسما يعرفه ، ولكنه نسيه فجأة : ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرء يعرف ألاسم تماما ،ويعرف انه يعرفه ، ويعرف معنـــاه ، ويحوم حوله ، ولـكن الاسم يأبى أن يسلم نفسه له ! ...

« كان ذلك ... منذ مدة طويلة .. فى ... كان هناك ... كان هناك ... أوه ! سحقا لهذا كله ... أيستحق ذلك كله ان اوسخ نفسي على هذا النحو ! أيستحق هذا الوغد ان اذل نفسى هـذا الذل ! »

غضب فلتشانينوف غضبا رهيبا . ولـكنه حين تذكـر فى المساء ، فجأة ، هذا الغضب « الرهيب » كله ، أزعجه ذلك : كان كمن ضبط متلبسا بالجريمة ، وشعر باضطراب وحيرة ، ودهش .

« لابد أن يكون لهذا الغضب الشديد سبب ... لـماذا اثور هذه الثورة كلها ، لمجرد تذكر ... »

ولم يتم فلتشانينوف تفكيره ...

وثار فى صباح الغد ثورة أعنف ، وغضب غضبا أشد ، ولكن بدا له فى هذه المرة أن لحنقه ما يبرره ، وانه على حق تماما . « هذه وقاحة لا مثيل لها . » لقد تم لقاء رابع . ان صاحب القبعة ذات الشريط الاسود قد ظهر له فجأة ، كأنما خرج من تحت الأرض . كان فلتشانينوف قد التقى منذ لحظة ، فى الشارع بمستشار الدولة الذى كان فى أشد الحاجة اليه ، وكان يحاول أن يعثر عليه منذ مدة طويلة ، ويلاحقه حتى فى منزله . وكان هذا الموظف الذى لايعرفه فلتشانينوف الا قليلا ، يتحاشاه بكل الوسائل ، ولا يتيح له أن يفاجئه ، يختبىء منه صراحة . فلما صادفه فلتشانينوف اخيرا فى الشارع ، سعد بذلك كثيرا ، فأخذ يسير الى جنبه . وفيما هو يسرع الخطا معه ، وينظر فىعينيه ، محاولا بكل قواه ان يجره الى الموضوع الذى يعنيه عسى أن يبوح بما بنفسه ، عسىأن تفلت منه بعض الكلمات الهامة التى ينتظرها منذ مدة طويلة (ولـكن العجوز الماكر كانت له فكرته الخاصة ، فكان يبتسم صامتا) ، اذا ببصره ، فى هـذه اللحظة الحرجة ، يقع فجأة على صاحب القبعة ذات الشريط الاسود ، واقفا على الرصيف الآخر يحدق فى الرجلين كليهما . كان واضحا انه يتبعهمـا بل يبدو انه يسخر منهما .

« لعنة الله عليه ... أهو يتجسس على ؟ واضح انه يتبعنى ، فهل استأجره احد لهذا الغرض ؟ و ... و ... وكان يضحك ساخرا ! يمينا لاضربنه ضربا مبرحا... من المؤسف أن ليس معى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصا ! سأشترى عصا ! لن ادع الأمور هكذا . من هو هذا الوغد ؟ أريد أن اعرف حتما من هو ! » .

واخيرا ، بعد انقضاء ثلاثة أيام تماما على هذا اللقاء (الرابع) ، نجد فلتشانينوف فى مطعمه ، على الحالة التى وصفناها ، مضطربا حقا ، طائش العقل بعض الشيء . انه بعد أن درس جميع الظروف ، اضطر أخيرا الى التسليم بأن السبب الوحيد فى كدر مزاجه ، وفى هذا القلق الخاص الذى يعانيه ، وفى جميع هذه الانفعالات التى تضطرم فى نفسه منذ أسبوعين ليس الا ذلك الرجل المحد ، « رغم تفاهته التامة » .

كان فلتشانينوف يفكر قائلا لنفسه : « صحيح اننى امرؤ سوداوى المزاج ، واننى تبعا لذلك اجعل من الذبابة فيلا ، ومن الحبة قبة ، ولكن هل يعزينى أن أعلم أن كل ذلك ربما كان مجرد خيال ؟ اذا كان يجوز لأول وغد عابر أن يشوش انسانا كل هذا التشويش ، ف ... ف ... »

والحق ان الفيل كان يشبه الذبابة فى هذا اليوم كل الشبه (اللقاء الخامس) : لقد مر هذا الرجل بخطا سريعة على عادته ، ولكنه لم ينظر الى فلتشانينوف فى هذه المرة ، بل كان مطرقا الى الأرض ، كأنه يتحاشى أن يعرف. فالتفت اليه فلتشانينوف، وصاح به ملء صوته :

« انت ! هناك ! ياصاحب الشريط الأسود ! لماذا تختبىء ؟ قف من انت ؟ » .

كان كل من السؤال والصراخ سخيفا لايليق. ولكن فلتشانينوف لم يدرك ذلك الا بعد أن صرخ .

التفت الرجل المنادى، ووقف لحظة ، واضطرب وابتسم، وحاول ان يقول شيئا ، حاول أن يقوم بحركة ، وتردد ترددا كبيرا ما فى ذلك شك ، ثم استدار فجأة ، وهرب لا يلوى على شيء ، ولا يلقى نظرة واحدة الى وراء .

دهش فلتشانينوف أشد الدهشة ، وتابعه بنظره . قال فى نفسه : « ربما كنت الاحقه ولا يلاحقنى ... ربما كان هذا كل ما فى الأمر .. »

وبعد أن انتهى من تناول غدائه ، ركب عربة وذهب الى منزل الموظف . ولكنه لم يستطع ان يلقاه . قيل له : « انه لم يعد الى البيت منذ الصباح ، ولا ينتظر ان يعود قبل الساعة الثالثة

أو الرابعة من الصباح ، لأنه سيبقى فى المدينة للاحتفال بعيد ميلاد صديق له » فشعر فلتشانينوف من ذلك « بمهانة » كبيرة ، حتى انه قرر وهو فى ثورة الغضب ، أن يذهب الى صاحب العيد ، وأمر الحوذي بالاتجاه نحو بيته ، ولكنه أدرك فى منتصف الطريق ان فى ذلك شيئا من المبالغة ، فدفع للسائق حسابه ، ثم جر نفسه على قدميه الى بيته عند المسرح الكبير . كان يشعر بالحاجة الى المشي . انه من أجل أن يهدىء أعصابه المهتاجة يجب أن ينام هذه الليلة مهما كلفه الأمر ، ومن أجل أن يحارب الأرق لابد أن يتعب نفسه على الأقل . ووصل الى بيته فى الساعة العاشرة والنصف ، لأن الطريق طويل ، وأخذ منه التعب كل مأخذ .

ان الشقة التي استأجرها فى شهر آذار ، والتي كان ينتقدها ويشكو منها مرالشكوى ، معتذرا عن نفسه مرددا : « انها ليست أكثر من خيمة مؤقتة » وأن الذنب فى ذلك كله هو ذنب هذه الدعوى اللعينة التي تحجزه فى بطرسبرج «الى حين» ، ان هذه الشقة لم تكن مزعجة الى ذلك الحد ، ولا كان مظهرها سيئا الى الدرجة التي يدعيها . صحيح ان مدخل العمارة مظلم « وسخ » بعض الشيء ، ولكن الشقة نفسها ، وهي تقع فى الدور الثاني ، كانت تتألف من غرفتين واسعتين نيرتين عال سقفهما ، تفصل بينهما حجرة مظلمة قليلا . كانت احدى الغرفتين تطل على الشارع ، وكانت الحجرة الأخرى تطل على الفناء ، وتتصل بحجرة هيئت لتكون حجرة نوم ، ولكن فلتشانينوف بعثر فيها كتبه وأوراقه فوضى ، فكان ينام فى الغرفة التي تطل على الشارع من الغرفتين الكبيرتين ، متخذا من أحد « الدواوين » سريرا له . وكان أثاث البيت جميلا ، على انه بلى قليلا . . . وكانت فى البيت أيضا أشياء ثمينة هي بقايا ترف قديم : أوان من الخزف والبرونز ، وسجاد من بخارى ، بل ولوحتان جيدتان . ولكن الغبار كان يغطى كل شيء ، وكانت الفوضى عامة ، فما تجد شيئا فى مكانه ، منذ سافرت بيلاجيا الشابة الى أهلها بنوفجورود وتركته وحده ، بعد أن كانت تتولى خدمة البيت . كان الوضع الغريب ، أعني وجود فتاة فى بيت رجل عازب ، من المجتمع الراقي ، يريد أن يحافظ على قواعد اللياقة ، كان هذا الوضع يثير الخجل فى فلتشانينوف ، رغم انه راض كل الرضا عن بيلاجيا هذه . لقد دخلت فى خدمته حين استأجر هذه الشقة فى الربيع ، لأن الأسرة التي كانت تعمل عندها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سافرت الى الخارج . وما لبثت بيلاجيا أن رتبت البيت بعض الترتيب . حتى اذا سافرت لم يشأ فلتشانينوف أن يكون خادمه امرأة . أما الخدم من الرجال فكان فلتشانينوف لايحبهم . على كل حال ، لا تستحق هذه المدة القصيرة التي سيقضيها هنا أن يستأجر خادما . لذلك كانت مافرا ، أخت البوابة ، هي التي تتولى خدمة البيت في الصباح ، فكان يعطيها مفتاحه حين يخرج ، ولكنها كانت لا تعمل شيئا على الاطلاق ، وكانت تتقاضى أجرها بانتظام ، ولعلها كانت تسرقه أيضا . ولكنه كان لا يحفل بشيء ، وكان يسعده على كل حال أن يجد نفسه وحيدا في البيت . على أن لكل شيء حدودا يقف عندها ، فكانت أعصابه ، حين ازدياد الصفراء ، تأبى في بعض الاحيان أن تحتمل هذه « القذارة » أكثر مما احتملت ، فكان يشعر بنوع من القرف حين يعود الى بيته .

ولكنه ، في هذه المرة ، ما كاد يخلع ثيابه حتى ارتمى على سريره ، مغضبا حانقا ، وحاول الا يفكر في شيء ، وان ينام فورا مهما كلفه الأمر . والغريب انه ما أن لامس رأسه الوسادة حتى نام . وذلك ما لم يقع له مرة منذ شهر .

نام ما يقرب من ثلاث ساعات ، ولكن نومه كان مضطربا . رأى أحلاما غريبة ، كتلك التي يراها النائم المحموم . رأى انه كان قد اقترف جريمة وأخفاها ، فاذا الناس الآن يأتون اليه ويدخلون عليه ، من كل فج عميق ، ويأخذون يتهمونه جميعا بصوت واحد . وكثر عددهم ولكنهم ما زالوا يتوافدون ، والباب مفتوح على مصراعيه . الا أن الاهتمام كله كان ينصب على شخص غريب أمره ، شخص سبق أن عرفه معرفة وثيقة ، وقد مات ، ثم اذا هو يدخل الآن على حين غرة . وقد شق على فلتشانينوف أكثر من أي شيء آخر انه لم يعرف من هو هذا الشخص : لقد نسي اسمه ، وأصبح لايستطيع أن يتذكره . ولكنه يعرف انه قد احبه في الماضي كثيرا . وكان يبدو أن هذا الشخص هو الذي ينتظر منه الجمهور كله القول الفصل الذي يدين فلتشانينوف أو يبرئه . وكان نفاد الصبر عاما شاملا . ولكن هذا الشخص ظل جالسا ساكنا ، يرفض أن يتكلم . وكانت الجلبة لاتنقطع ، وكان الهياج يزداد . وفجأة قام فلتشانينوف ، وقد فار غضبه ، فضرب هذا الرجل لأنه يصر على السكوت ، فلما ضربه شعر بلذة غريبة . ان فظاعة هذا العمل والألم الذي شعر به قد خنقا قلبه خنقا ، ولكن هذا نفسه كان هو قوام تلك اللذة

الغريبة . وثارت ثائرته ، فضربه مرة ثانية ، فثالثة ، وسكر من الحنق والذعر واصابه ما يشبه الجنون الممتلىء هو ايضا بلذة لا نهاية لها ، فأخذ يضرب ويضرب بغير توقف دون ان يعد الضربات. كان يريد أن يحطم هذا ، كان يريد أن يحطم كل هـذا . غير أن شيئا جديدا قد حدث على حين بغتة : اخذ جميع الناس يصرخون، ثم التفتوا نحو الباب كأنهم ينتظرون . وفى تلك اللحظة رن الجرس ثلاث مرات ، ولكن رنينه كان قويا جدا ، حتى لكأن الذى قرعه كان يريد أن يقتلعه اقتلاعا. فاستيقظ فلتشانينوف فجأة .. فاء الى نفسه ، وقفز من سريره واسرع نحو الباب . كان على يقين من أن رنين الجرس لم يكن وهمـا ، وان احدا قـد قرعه فعـلا . « ليس طبيعيا أن يكون صوت واضح هذا الوضوح وهما لاأكثر».

ولـكن وجد ، على دهشة منه ، ان رنين الجرس لم يكن الا استمرارا لحلمه . فقد شق الباب وخرج الى سطح الدرج ، ونظر فى السلم ، فلم ير أحدا . ورأى الجرس يتدلى ساكنا . فعاد الى غرفته دهشا ولكن على رضا . وفيما هو يشعل شمعة ، تذكر انه قد رد الباب ردا ، ولم يقفله بالمفتاح ، ولا شد المغلاق . كان يتفق له فى كثير من الاحيان ، حين يعود الى بيته ، أن ينسى اغلاق قفل الباب بالمفتاح ، وكان لا يولى ذلك كبير اهتمام . وقد لامته بيلاجيا على هذا مرات كثيرة . فعاد الى حجرة المدخل ليقفل الباب، ففتحه مرة اخرى ، ونظر الى الخارج ، ثم دفع المزلاج ، واهمل مع ذلك أن يدير المفتاح . ودقت الساعة الثانية والنصف . لقد نام اذن ثلاث ساعات .

وقد هزه الحلم الذى رآه هزا عنيفا فلم يشأ أن يعود الى النوم فورا ، وقرر أن يتجول فى الغرفة نصف ساعة . « وهو الوقت الذى يستغرقه تدخين سيجار » . واقترب من النـافذة بعد أن ارتدى بعض ملابسه ، فأزاح الستارة ، ثم ازاح الغلالة البيضاء. كان النهار قد طلع .

ان ليالى الصيف المضيئة ببطرسبرج كانت تثير أعصابه دائما ، وكانت أيضا تفاقم ارقه فى هذه الأوقات الأخيرة . لذلك كان قد وضع على نوافذه ستائرثقيلة تمنع تسرب النور حين يحكم اسدالها. فلما ازاح الستائر ، نسى الشمعة التى أشعلها على المائدة ، واخذ يمشى فى الغـرفة ، وقد استبد به أحسـاس ثقيـل مؤلم . ان الشعور الذى أحدثه فيه الحلم لم يتبدد بعد . كان مجرد تفكيره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى انه رفع يده على ذلك الرجل وضربه ، يؤلمه ألما شديدا .
« ولكن ذلك الرجل لا وجـود له ، انه لم يوجد يوما . هـذا حلم لا أكثر ،ففيم الألم والأنين ؟ »
وطاش صوابه ، فقال فى نفسه ، وكأن همومها كلها تلتقى الآن فى هذه النقطة : « اننى مريض ، أننى انسان مريض ! » .
كان يشق عليه دائما أن يعترف لنفسه بأنه يضعف ويشيخ ، ولـكنه كان فى لحظاته السيئة يبالغ فى تصور آلامه ، مكرا ، عن عمد ، لـكى يعذب نفسه .
دمدم يقول وهو يمشي فىغرفته : « انها الشيخوخة . لقد هرمت تماما . أننى افقد ذاكرتى ، وأرى أشباحا ، وأحلم أحلاما ، وترن الأجراس ... تبا للشيطان ... اننى أعرف بالتجربة أن مثل هذه الأحلام هى عندى دائما علامة الحمى ... أنا موقن ان « قصة » الشريط الاسود قد لا تكون كلها الا حلما . الم ار أمس اننى انا الذى الاحقه ، وانه ليس هو الذى يلاحقنى . اننى اتخيل بصدده اسطورة كاملة ، ثم يستبد بى الذعر فأركض أختبىء تحت المائدة .
ولماذا اعده وغدا ؟ قد يكون رجلا طيبا كريما . صحيح أن وجهه منفر جدا ، ولـكن ليس فيه شيء قبيح قبحا خاصا ، وملابسه كملابس سائر الناس .. غير ان فى نظرته شيئا ... هوه ! هأنذا اعود فأفكر فيه . مالى ولنظرته ؟ الا أستطيع أن اعيش دون أن افكر فى « مقصوف الرقبة » هذا ؟
ومن بين الأفكار التى كانت تنبجس فى خياله ، جرحته فـكرة بعينها جرحا مؤلما : لقد بدا له فجأة انه على يقين من ان هذا الرجل ذا الشريط الاسود قد عرفه فى الماضى معرفة وثيقة ، وانه الآن يهزأ به حين يلقاه ، لأنه واقف على سر من أسرار ماضيه الهامة ، ثم هو يراه الآن قد سقط منمنزلته وصار فىالحضيض.
واقترب من النافذة على غير وعى ، ليفتحها ويستنشق هواء الليل و ... و ... فجأة ارتعش : بدا له ان شيئا عجيبا رهيبا يحدث
لم يتسع الوقت لفتح النافذة ، ذلك انه ما أن اقترب منها حتى عاد فاختبأ عند طرفها : لقد لمح فجأة صاحب القبعة ذات الشريط الاسود ، واقفا على الرصيف المقابل امام البيت تماما .كان الرجل يصوب نظره الى نوافذ البيت . لاشك انه لم يره ، كان واضحا أنه يفحص البيت مستطلعا وهو يفكر . وكان يبدو أنه متردد متحير : لقد رفع يده ، ولمس جبينه بأصبعه . وعزم أمره اخيرا ، فالقى

نظرة سريعة على ما حوله ، ثم تقاصر واجتاز الشارع على رءوس أصابعه ... نعم ... انه فى الدهليز ، تحت الباب الصغير (الذى كان يترك مفتوحا حتى الساعة الثالثة من الصباح فى بعض الاحيان). فقال فلتشانينوف لنفسه فورا : « انه آت الى » ، فهرع الىحجرة المدخل على رءوس أصابعه أيضا ، ووقف أمام الباب ينتظر متوترا واضعا يده المرتعشة على المزلاج الذى دفعه قبل ذلك ، مصيخا بسمعه الى خشخشة الخطوات على السلم .

كان قلبه يخفق خفقانا شديدا ، حتى لقد خشى الا يستطيع سماع خطوات الرجل المجهول الذى يسير على رءوس أصابعه. كان لايعرف ما الذى يجرى ، ولـكنه كان يحس كل شىء بقوة مضاعفة. كان فلتشانينوف شجاعا بطبيعته ، حتى لقد كان يمضى فىاحتقار الخطر الى حد التهور فى بعض الاحيان ، حتى حين لايراه احد ، وذلك للذته الخاصة وحدها . الا ان ثمة شيئا آخر الآن : ان الانسان الذى كان منذ لحظة سوداوى المزاج ، قلقا ، شاكيا ، باكيا ، قد تبدل الآن تبدلا تاما . انه غير الانسان الذىكانه منذ لحظة . ان ضحكة عصبية صامتة تجلجل فى صدره . وكان يدرك، من خلال الباب الموصد ، كل حركة من حركات الغريب .

« ها ... ها هو ذا يصعد . انه وصل . انه ينحنى مصيخا بسمعه .. انه لا يكاد يتنفس . هو ذا يتسلل . ها ... لقد أمسك بقبضة الباب . هو ذا يشدها . انه يعالج الباب . كأنه يأمل الا يجده مغلقا . انه يعرف اذن اننى أنسى اغلاق الباب أحيانا . ها هو يشد قبضة الباب مرة أخرى . أيظن ان المزلاج سينكسر ؟ خسارة أن يرجع بخفى حنين ، اليس كذلك ؟ »

نعم ، لاشك ان كل شىء جرى على نحو ما كان يتصور . ان احدا قد وقف وراء الباب ، وعالج القفل ، برفق ، دون ضجة ، وشد القبضة . « بديهى ان له غاية يسعى اليها » . ولـكن فلتشانينوف كان قد هيأ حل المسألة . انه ينتظر اللحظة المناسبة بنوع من الحماسة ، كان يتهيأ ، ويجمع قواه : كانت به رغبة جامحة فى رفع المزلاج فجاة ، وفتح الباب على مصراعيه ، ومواجهة الرجل : « ماذا تعمل هنا أيها السيد العزيز ؟ » .

وذلك ماحدث فعلا: اختار فلتشانينوف اللحظة المناسبة ، فرفع المزلاج فجاة ، ودفع الباب ، فكاد يصدم الرجل صاحب القبعة ذات الشريط الاسود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بافل بافلوفتش تروسوتسكى

جمد الرجلُ . ووقف كل منهما أمام الآخر ينظر فى عينيه . وانقضت على ذلك لحظات ، فاذا فلتشانينوف بعدها يعرف زائره بغتة .

وفى هذه اللحظة نفسها أدرك الزائر أن فلتشانينوف عرفه ، لقد لمع هذا فى عينيه ، ثم اذا بوجهه كله يسترخى فى ابتسامة لطيفة متوددة . وقال بصوت عذب منغم يتنافى تنافيا مضحكا مع ظروف اللحظة :

ـ أظن اننى أتشرف بمخاطبة الكسى ايفانوفتش ، أليس كذلك ؟

فأجابه فلتشانينوف ، مشدوها ، بعد فترة من صمت :

ـ أأنت بافل بافلوفتش تروسوتسكى ؟

ـ لقد تعارفنا منذ تسع سنوات فى ت ... واذا تفضلت فسمحت لى بأن اذكرك ، قلت ان صلاتنا كانت صداقة حميمة .

ـ نعم ... هذا جائز ... ولكن ... الساعة الآن هى الثالثة من الصباح ، وقد ظللت عشر دقائق تحاولُ فتح بابى ...

فصاح الرجل وهو يخرج ساعته من جيبه ، وتلوح عليه علائم دهشة مؤلمة :

ـ الساعة الآن الثالثة ؟ ها... حقا انها الثالثة . عفوكَ ياالكسى ايفانوفتش . كان ينبغى أن أفكر فى هذا قبلَ أن أدخلَ . أنا آسف كل الأسف . سأجىء مرة اخرى لأبسط لك الأمر ، والآن ...

ـ لا ، لا ، اذا كنت تريد ان تبسط امرا ، فأرجوك ان تفعلَ ذلك حالا .

هذا ماقاله له فلتشانينوف ، وقد فاء الى نفسه ثم اضاف :

ـ أدخلْ ، أرجوك . دع العتبة ... هذه هى الغرف . لاشك

انك كنت تريد أن تدخل ، وما اظن انك جئت هنا لتجرب الأقفال فحسب ...

كان مضطربا ، وكان في الوقت نفسه متحيرا بعض التحير . كان يحس انه لايستطيع ان يجمع شتات افكاره ، حتى لقد شعر من ذلك بالعار : ما من سر ، ولا من خطر ، ولم يبق من جميع تلك التهاويل الا هذا الوجه الغبى ، وجه رجل اسمه بافل بافلوفتش. ومع ذلك لم يكن واثقا كل الوثوق ان الأمر بسيط هذه البساطة: كان يحس احساسا غامضا قلقا بشيء غريب .

وبعد أن اجلس ضيفه على احد المقاعد ، جلس هو فوق سريره ، على مسافة متر من المقعد ، وانحنى الى الأمام ، ووضع راحتي يديه على ركبتيه ، وانتظر على مثل حر الجمر ان يتحدث الرجل. كان يتفرس فيه ويجمع شتات ذكرياته . ولكن الشيء الغريب ان الرجل كان صامتا كأنه لايدرك أبدا ان عليه أن يتكلم «فورا» . حتى لقد كان ينظر الى صاحب البيت نظرة سائلة كأنه ينتظر شيئا . ربما كان سبب ذلك انه خائف لا أكثر من ذلك ، فما يشعر بشيء من الارتياح في أول لحظة ، مثله مثل فارة وقعت في مصيدة . ولكن فلتشانينوف ثارت ثائرته ، فصاح قائلا :

ـ هيه ... اظن انك لست حلما ولا شبحا . هل جئت تلعب هنا لعبة الموتى ؟ هيا ابسط امرك ياعم !

فاضطرب الزائر ، وابتسم ، وابتدأ يقول في كثير من الحكمة والحذر :

ـ ان الأمر الذي يدهشك خاصة هو انني جئت في مثل هذه الساعة ، و ... في ظروف كهذه الظروف ... انني اذ اتذكر ما قد جرى بيننا وكيف افترقنا ، أستغرب أن ... على انني لم اكن أفكر في الدخول ، واذ جرت الأمور هذا المجرى ، فقد حدث ذلك مصادفة ...

ـ مصادفة ؟ ولكنني رأيتك من النافذة تجتاز الشارع على رءوس الأصابع !

ـ ها ... رأيتني ! اذن في هذه الحالة ، قد تعرف من هذه الأمور اكثر مما أعرف ... ولكنني الاحظ انني اثير حنقك ... اليك الموضوع : انني هنا منذ ثلاثة أسابيع لأمر يهمني .. انا بافل بافلوفتش تروسوتسكي . لقد عرفتني . انني أقوم بمسعى لتغيير خدمتي ، والانتقال الى ادارة اخرى ، الى وظيفة أعلى . على ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا ليس هو ما أريد أن أقوله ... المهم ، اذا شئت ، انني اضيع وقتي هنا منذ ثلاثة اسابيع ، وانني أؤخر بنفسي قضية تعييني ، فيما يتراءى لي ... والحق انني ، حتى ولو تم الامر، سأنسى ، فيما أظن ، ان الأمر تم ، ولن استطيع ان اترك بطرسبرج وانا فيما انا فيه من حالة نفسية . انني أذهب واجيء هنا وهناك ، كأنني ضللت هدفي، ويكاد يسعدني انني ضللت هدفي. ففي الحالة النفسية التي أنا فيها ...

فقاطعه فلتشانينوف يسأله وقد نفد صبره :

ـ أي حالة نفسية ؟

فرفع الرجل عينيه اليه ، وتناول قبعته ، واشار الى الشريط الاسود ، بحركة وقور هذه المرة :

ـ نعم هذه هي حالتي النفسية !

كان فلتشانينوف ينقل نظرته البلهـاء بين الشريط الاسود ووجه ضيفه. ثم اصطبغ وجهه فجأة بحمرة شديدة ، واضطرب ، وقال :

ـ من ؟ ناتاليا فاسيليفنا ؟

ـ نعم . ناتاليا فاسيليفنا . في شهر آذار الماضي .. بالسل ... وبسرعة ... شهرين ... ثلاثة اشهر . وهأنذا كما تراني !

قال الضيف ذلك مضطربا أشد الاضطراب ، وباعد ما بين ذراعيه اللتين تحمل يسراهما قبعته ذات الشريط الاسود ، وخفض رأسه الأصلع ، وظل على هذه الحال عشر ثوان في أقل تقدير .

وكأن هـذا المنظر وهـذه الحركة انعشتا فلتشانينوف فجأة ، فتسللت الى شفتيه ابتسامة ساخرة ، وربما متحدية ، ولـكن ذلك لم يدم الا لحظة : ان نبأ موت تلك المرأة (التي عرفها منذ مدة طويلة جدا ونسيها نسيانا تاما) قد هز نفسه الآن هزا مباغتا . ودمدم ينطق بأول كلام خطر بباله :

ـ هل هذا ممكن ؟ ولـكن لماذا لا تجيء الى ببساطة ، لتقص على النبأ ؟

ـ اشكر لك عاطفتك التي اراها واحسها ، فرغم ...

ـ رغم ماذا ؟

ـ رغم اننا لم نلتق منذ عدد من السنين، اظهرت لي من العاطفة الطيبة في مشاركتي مصابي ما اعجز عن شكره ... هـذا كل ما كنت أريد ان اقوله . وليس معنى ذلك انني اشك في أصدقائي الآخرين ، انني استطيع ان اجد هنا أصدقاء مخلصين جدا (ستيفان

ميخائيلوفتش باجاوتوف مثـلا) ، غير أن علاقاتنـا ، يا الـكسى ايفانوفتش (وأستطيع أن أقول صداقتنا ، لأننى ما زلت أذكرهذه الصداقة شاكرا) قد انقطعت منذ تسع سنين . انك لم تعد الينا منذ ذلك الحين ، ولا تبادلنا الرسائل ..

كان الزائر يتكلم كمن يلقى درسا حفظه ، ولـكن بينما كانت كلماته تتدفق ، كان نظره مثبتا على الارض ، رغم انه يرى كل ما يجرى ، ما في ذلك شك . وأثناء ذلك كان فلتشانينوف يتنبه الى نفسه .

كان يصغى الى بافل بافلوفتش ويتفرس فيه ، وفى نفسه عاطفة غريبة ما تنفك تشتد ، حتى اذا توقف صاحبه عن الكلام اجتاحت ذهنه ، فجأة أفكار مشتتة غير متوقعة .

وصاح يقول منتعشا :

ــ ولـكن لماذا لم أعرف حتى الآن انك أنت ؟ لقد التقينا خمس مرات وجها لوجه ، أنفا لأنف ...

ــ أتذكر ذلك . كنت توجد دائما فى طريقى ، مرتين ، وربما ثلاث مرات ...

ــ بل كنت انت توجد دائما فى طريقى !!

ونهض فلتشانينوف ، وانفجر فجأة يضحك ضحكة غير منتظرة . وظل بافل بافلوفتش متحيرا مشوشا خلال لحظة ، ونظر الى صاحبه نظرة منتبهة ، ثم ما لبث أن استأنف يقول :

اما انك لم تعرفنى فذلك امرطبيعى . انك قد نسيتنى . زد على ذلك هذا الجدر الخفيف الذى قرصنى بعد فراقنا ، وخلف فى وجهى بعض الآثار .

ــ جدر ؟ حقا ان فى وجهك آثار جدر ! ولـكن كيف ؟

ــ كيف قرصنى؟ ان هذا يحدث يا الـكسى ايفانوفتش ! لايتوقعه المرء ، ثم يقرصه فجأة ...

ــ عجيب مع ذلك ... طيب ، اكمل كلامك ، اكمل كلامك ايها الصديق العزيز !

ــ رغم اننى صادفتك ...

ــ قف ! لماذا قلت « قرصنى ؟ » ... طيب ، أكمل ، اكمل ؟

وأخـذ المرح يتسرب الى الزائر شيئا فشيئا ، لايدرى الا الله لماذا ! ان الهياج الذى هز نفسه منذ لحظة قد حلت محله الآن عاطفة أخرى مختلفة عنه كل الاختلاف .

كان يقطع الغرفة طولا وعرضا بخطا سريعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ رغم انني صادفتك ، ورغم انني كنت اعتقد انني سألقاك حين أجيء الى بطرسبرج ، فانني ، أعود فأقول لك ذلك ، اعاني حالة نفسية بلغت من... نعم انني بلغت من فرط التحطم النفسي، منذ شهر آذار أن ...

ــ ها ... نعم . أنت محطم النفس منذ شهر آذار . انتظر . الا تدخن ؟

ــ أثناء حياة ناتاليا فاسيليفنا ، انت تعلم ...

ــ نعم نعم ، أعلم ، ولكنك منذ شهر آذار ...

ــ ربما أدخن سيجارة صغيرة .

ــ هذه سيجارة . أشعلها ، واكمل كلامك . اكمل كلامك ، لقد احدثت في نفسي من ...

واشعل فلتشانينوف سيجارا كبيرا ، ثم جلس فجأة على سريره . وتوقف بافل بافلوفتش .

ــ ما أشد اضطرابك ؟ هل تشكو من شيء في صحتك ؟

ــ دع صحتي للشيطان ... اكمل كلامك .

ولكن الضيف ، رغم اضطراب رب البيت ، كانت تزداد في وجهه علائم الرضا وامارات الثقة بالنفس . قال :

ــ وماذا اقول؟ تخيل اولا يا الكسي ايفانوفتش ، رجلا مقتولا، مقتولا تماما ان صح التعبير ، رجلا عاش مع زوجته عشرين عاما ، ثم تغيرت حياته تغيرا تاما ، فأصبح يتسكع في الشوارع الغبراء ، كأنه يسير في الصحراء ، ليس له من هدف واضح ، ولا يكاد يعي نفسه ... ثم يستمد من غياب الوعي هذا لذة ... من الطبيعي في مثل هذه اللحظات ، اذا انا التقيت مصادفة بشخص اعرفه أو بصديق ، أن اتحاشاه عامدا ، احتى لا أقترب منه . ولكن ، في لحظات أخرى ، تبلغ قوة الذكريات ، ويبلغ الظمأ الى رؤية شاهد من شهود هذا الماضي القريب الذي ذهب ولن يعود ، وتبلغ شدة خفقان القلب لهذه الذكرى ، ان المرء يركض فيرتمي على عنق صديقه ، سواء اكان ذلك في الليل أم في النهار، ولو تعرض لايقاظه في الساعة الثالثة من الصباح . لقد اخطأت في تقدير الساعة فحسب ، ولكنني لم اخطيء في تقدير الصديق ، لأنني كوفئت في هذه اللحظة احسن مكافأة . اما عن الساعة ، فقد كنت أظن حقا انها منتصف الليل ، لأنني لم أشعر بحاجة الى النوم . ان المرء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشرب حزنه ، ويسكر به . وليس الحزن هو الذى يقضمنى الآن، بل شيء آخر .

فقال له فلتشانينوف ، وقد اربد وجهه ، وظهرت عليه أقصى علائم الجد فجاة :

ــ انك تعبر عن نفسك تعبيرا غريبا .

ــ نعم ، اعبر عن نفسى تعبيرا غريبا .

ــ ألست تمزح ؟

فصاح بافل بافلوفتش ، وقد استبدت به دهشة مؤلمة :

ــ امزح ؟ وفى اللحظة التى اخبر فيها ...

ــ اسكت عن هذا ، ارجوك .

قال فلتشانينوف ذلك ، ونهض ، ثم أخذ يسير فى الغرفة .

وانقضت على هذا ثلاث دقائق . وقام الضيف بحركة لينهض ايضا ، ولـكن فلتشانينوف صرخ يقول له : « لا تقم ، لا تقم » .

ــ ولكن ما أكثر ما تغيرت ! لقد تغيرت تغيرا رهيبا ! لـكأنك انسان آخر .

هذا ما اضافه فلتشانينوف وهو يقف امامه فجاة ، كأن هذه الفكرة قد شدهته على حين غرة .

ــ لا غرابة فى هذا ... انقضت تسع سنين !

ــ لا لا لا . لا شأن للسن بهـذا . ليس مظهرك هو الذى تغير ، بل شيء آخر .

ــ نعم ، هذا ممكن : تسع سنين !

ــ أم منذ شهر آذار ؟

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة ماكرة ، وقال :

ــ ها ها ... فكرة لطيفة . ولكن هل أجرؤ أن اسألك ما هو ذلك التغير ؟

ــ بصراحة ... كان بافل بافلوفتش قبل ذلك رجلا محترما ، لائقا ، بسيطا ... أما الآن فهو رجل تافه (1) ...

لقـد بلغ به الغضب والحنق تلك الدرجة التى تنـد فيها عن أحسن الناس كلمات زائدة .

ــ تافه ؟ هذا رأيك ؟ ولم اعد « بسيطا » ؟ لم أعد «بسيطا» البتة ؟

---

(1) بالفرنسية فى الاصل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يطلق ضحكة رضا صغيرة .

ـ لم تعد « عاقلا » البتة ! وربما كنت الآن مسرفا في الذكاء .

وقال فلتشانينوف بينه وبين نفسه : « انني وقح ، وهذا الوغد أوقح مني . ولكن ... ما هي غايته ؟ » .

صاح الضيف وقد ثارت نفسه فجاة واضطرب في مقعده :

ـ أوه ... ياصديقي العزيز ، ياصديقي الحبيب الكسي ايفانوفتش . مالنا ولهذا ؟ لسنا الآن في المجتمع الراقي ، لسنا في المجتمع الراقي الأنيق ! انما نحن الآن صديقان قديمان ، اجتمعا على صدق واخلاص ، وتذكرا تلك الرابطة الغالية جدا التي كانت المرحومة اجمل حلقة فيها .

وبلغت عواطفه من الغليان ، فيما بدا ، انه خفض راسه مرة اخرى كما فعل منذ قليل ، واخفى وجهه في قبعته . فكان فلتشانينوف يفحصه مشمئزا قلقا .

وقال لنفسه فجاة : « من يدرى ؟ قد لا يكون الا مهرجا ... ولكن لا لا ! لا أظن انه سكران.. قد يكون سكرانا مع ذلك : ان وجهه أحمر، وهبه سكرانا ... لا فرق ... ماذا يدبر ؟ ماذا يبيث ؟ ماذا يريد هذا الوغد ؟ » .

صاح بافل بافلوفتش وهو يزيح قبعته شيئا فشيئا ، ويبدو مسترسلا في ذكرياته :

ـ هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر جولاتنا في الحقول ، وسهراتنا ، واجتماعاتنا الراقصة ، والعابنا الصغيرة في منزل صاحب المعالي سيميون سيميونوفتش الجواد الكريم ؟ وهل تتذكر قراءاتنا نحن الثلاثة في المساء ؟ ولقاءنا الاول حين جئتني ذات صباح تسألني معلومات تتصل بعمل من الاعمال ؟ لقد غضبت يومئذ في أول الأمر، ولكن ظهرت فجاة ناتاليا فاسيليفنا ، فما هي الا عشر دقائق حتى اصبحت الصديق الحميم للأسرة . ودام ذلك سنة بكاملها ، كما في مسرحية تورجينيف « الريفية » ؟

كان فلتشانينوف يتجول في الغرفة ببطء مطرقا الى الارض. كان يصغي الى ضيفه نافد الصبر ، مشمئزا ، ولكنه كان يصغي اليه بانتباه . فقاطعه يقول مرتبكا بعض الارتباك :

ـ لم تخطر « الريفية » ببالي يوما ... ولم تتحدث انت يوما بصوت حاد كهذا ، وبهذه اللهجة ... التي ليست لهجتك . لماذا ذلك ؟

فاستأنف بافل بافلوفتش يقول بحرارة :

ـ حقا ... كنت قبل الآن أصمت في أكثر الاحيان ... أعني أنني كنت اكثر صمتا . ذلك انني كنت أفضل الاستماع حين كانت المرحومة تتكلم . الا تتــذكر كيف كانت تتكلم ؟ بذكاء ؟ أما عن « الريفية » وعن ستوبنديف خاصة ، فأنت على حق أيضــا ... اننا لم نقارن ، أنا والمرحومة الغالية ، بين لقائنا الاول وبين مسرحية تورجينيف ، الا فيما بعد ، أعني بعد سفرك ، حين كنا نتذكرك ... وكانت المقارنة تتناول ستوبنديف ...

ـ أي ستوبنديف ، سحقا لك !

هكذا صاح فلتشانينوف وهو يضرب الارض برجله ، ويضطرب اضطرابا شديدا من هذا الاسم الذي كان يوقظ فيه ذكرى بعيدة .

فأجابه بافل بافلوفتش ، بصوت عذب منغم :

ـ ستوبنديف ؟ انه احدى شخصيات الملهاة . هو « الزوج » في مسرحية « الريفية » . الا أن هذا يتصل بسلسلة اخرى من ذكرياتنا الجميلة الغالية ، تمت بعد سفرك ، حين شرفنا ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف بصداقته ، مثلك تماما ، ولكن خلال خمس سنوات بكاملها .

فتسمر فلتشانينوف في مكانه ، سائلا :

ـ ماذا ؟ باجاوتوف ؟ أي باجاوتوف ؟

ـ باجاوتوف ، ستيفان ميخائيلوفتش ، الذي شرفنا بصداقته ، بعد سفرك بسنة تماما ، ومثلك تماما ...

فهتف فلتشانينوف يقول وقد فهم الأمر :

ـ ها ... نعم . باجاوتوف ... لقد كان موظفا في مدينتنا ...

فصاح بافل بافلوفتش بحماسة شديدة يقول :

ـ نعم نعم ، كان ملحقــا بالحــاكم .. شــــاب من المجتمع الراقي ببطرسبرج ، لم أر لأناقته مثيلا .

ـ نعم ، نعم . فيم كنت أفكر ؟ نعم ... هو أيضا اذن ؟...

فأجاب بافل بافلوفتش بتلك الحماسة نفسها ، ملتقطا تلك الكلمة الطائشة التي ندت عن محدثه :

ـ هو أيضا ، هو أيضا . وعندئذ انما مثلنا « الريفية » على مسرح هواة ، في منزل صــاحب المعالي سيميون سيميونوفتش ، الجواد الــكريم . لقد مثل ستيفان ميخائيلوفتش دور الــكونت ، ومثلت أنا دور الزوج ، ومثلت المرحومة دور « الريفية » ، ولكنهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سحبوا مني دور الزوج ، بالحاح من المرحومة . فلم امثل اذن دور « الزوج » ، كانوا يقولون انني لا أحسن تمثيل هذا الدور ...

ـ ولكن اي شيطان يدعى انك ستوبنديف ؟ انك بافل بافلوفتش تروسوتسكي ، ولست أبدا ستوبنديف ...

هكذا صرخ فلتشانينوف بفظاظة دون تحرج . كان يكاد يرتعش حنقا وغيظا . ثم اضاف يقول :

ـ ثم اسمح لي... ان باجاوتوف هذا هوالآن هنا ، ببطرسبرج ، رأيته بنفسي في الربيع . فلماذا لا تذهب اليه أيضا ؟

ـ أنني اذهب اليه كل يوم ، منذ ثلاثة اسابيع . ولكنهم يرفضون أن ادخل عليه . انه مريض ، ولا يستطيع أن يستقبلني. وتصور انني علمت من مصدر موثوق أنه كان حقا مريضا مرضا خطيرا . صديق قديم . آه يا الكسي ايفانوفتش ، لقد قلت لك واكرر قولي انني ، في الحالة التي أنا فيها ، أشتهي أحيانا أن اغيب حقا تحت الارض. وفي لحظات أخرى أحس انني مستعد لأن ارتمي بين ذراعي واحد من اولئك الذين شهدوا حياتي الماضية ، واحد من أولئك الذين شاركوا في حياتي الذاهبة ، لا لشيء الا لنبكي معا ... نعم لا لشيء الا لأبكي ... أقول ذلك صادقا ...

قال فلتشانينوف بخشونة :

ـ هيا ... يكفيك اليوم هذا ...

ـ يكفي ويزيد ، يكفي ويزيد . ان الساعة الآن هي الرابعة ، وقد ازعجتك ازعاجا فيه كثير من الانانية ...

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ونهض فجأة .

ـ اسمع . سأجيء اليك حتما [illegible] عندئذ ... قل لي بصراحة : ألست ال[illegible] سكرانا ؟

ـ سكران ؟ ابدا .

ـ الم تشرب قبل أن تجيء الى هنا ، او قبل ذلك ايضا ؟

ـ ان حرارتك مرتفعة حقا يا الكسي ايفانوفتش .

ـ سأجيء اليك غدا قبل الساعة الواحدة .

ـ انني الاحظ منذ برهة انك تبدو في حالة هذيان تقريبا .

قال بافل بافلوفتش ذلك ملحا على هذا الموضوع ، وهو يشعر بنوع من الرضا . ثم أردف :

ـ يؤسفني حقا أن خراقتي... انا ذاهب ، انا ذاهب . أما أنت فاستلق على فراشك وحاول أن تنام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاح به فلتشانينوف يقول وقد فاء الى نفسه :
ــ ولكنك لم تقل لى أين تسكن .
ــ الم اقل لك ذلك ؟ اننى أسكن فى فندق بوكروفسكى ؟
ــ ما هذا الفندق أيضا ؟
ــ قريب جدا من كنيسة بوكروف . فى شارع صغير ، نسيت اسم الشارع ، ونسيت الرقم . ولكن الفندق الى جانب الكنيسة
ــ سأجده
ــ أهلا وسهلا بالضيف العزيز .
قال بافل بافلوفتش ذلك ، وكان قد أصبح على السلم . فصاح به فلتشانينوف مرة أخرى قائلا :
ــ قف . الن ترحل عن هذا الفندق ؟
كان بافل بافلوفتش قد هبط ثلاث درجات على السلم ، فالتفت محملقا ، على ابتسامة فى شفتيه ، وقال :
ــ كيف « ارحل » ؟
فكان كل جواب فلتشانينوف على ذلك أن صفق الباب بقوة ، ثم أدار المفتاح برفق ، ودفع المزلاج . فلما عاد الى غرفته بصق مشمئزا كأنه اتسخ .
وظل واقفا ، ساكنا ، فى وسط الغرفة ، خلال خمس دقائق ، ثم ارتمى على سريره دون أن يخلع ملابسه ، فما لبث أن نام . والشمعة التى نسى أن يطفئها ذابت على المنضدة حتى آخرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٤ —

الزوجة والزوج والعشيق

نام نوما عميقا ، واستيقظ في الساعة التاسعة والنصف تماما ، فنهض فورا ، وجلس على سريره ، وأخذ يفكر في موت « تلك المراة».

ان « الهزة » التي شعر بها أمس حين علم بموت تلك المراة قد تركت فيه نوعا من الاضطراب وشيئا من الألم ، خنقتهما ، الى حين ، فكرة خاصة نشأت عن رؤية بافل بافلوفتش . أما اليوم ، حين استيقظ ، فان كل ما حدث قبل تسع سنين يطوف الآن في ذهنه واضحا الى أقصى حدود الوضوح .

ان هذه المراة ، المرحومة ناتاليا فاسيليفنا ، زوجة «تروسوتسكي هذا » ، قد أحبها فلتشانينوف ، وكان عشيقها ، أثناء اقامته في ت ... سنة كاملة ، لعمل من الأعمال (كان هذا العمل دعوى خلاف على ارث أيضا) . وكان ذلك العمل لا يقتضي اقامة طويلة كل ذلك الطول ، في واقع الأمر ، وانما كانت تلك العلاقة هي السبب الحقيقي لهذه الاقامة الطويلة . وقد استبدت تلك العلاقة وذلك الحب بنفسه استبدادا قويا ، حتى أصبح عبدا لناتاليا فاسيليفنا ان صح التعبير . كان يمكن الا يتردد لحظة واحدة عن القيام بأشد الاعمال شذوذا وجنونا ، اذا شاءت له ذلك نزوة من نزوات تلك المراة . ولم يقع شيء يشبه هذا ، لا قبل ذلك ولا بعده . وفي نهاية السنة ، حين أصبح الفراق أمرا لابد منه ولا محيص عنه ، بلغ الحزن واليأس بفلتشانينوف انه اقترح على ناتاليا فاسيليفنا ، عند اقتراب الموعد المشئوم ، رغم أن هذا الفراق فراق الى حين لن يطول ، اقترح عليها أن تهرب معه ، أن تترك زوجها ، أن تهجر كل شيء ، وأن تسافر معه الى الخارج الى الأبد . ولم يصده عن هذا المشروع ، ولا أكرهه على السفر وحده الا سخريات هذه السيدة وصلابتها (يجب ان نذكر أنها كانت في أول الأمر تحبذ الفكرة تحبيذا كاملا ، ربما على سبيل المزاح ، أو على سبيل التسلية). ولكن ما أن انقضى على ذلك الفراق شهران ، حتى كان يطرح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على نفسه ببطرسبرج هذا السؤال : أحقا أحب تلك المرأة أم أن ذلك لم يكن الا نوعا من « السحر » ؟ ولم يطرح فلتشانينوف على نفسه ذلك السؤال عن خفة وطيش ، ولا بتأثير هوى جديد اشتعلت ناره في نفسه : لقد كان خلال هذين الشهرين فى بطرسبرج ، خارجا عن طوره حقا ، ولعله كان لايولى النساء أى التفات ، رغم انه جدد علاقاته القديمة فورا وأتيح له أن يرى مئات النساء . ثم انه كان يعلم كل العلم ، رغم جميع الشكوك التى قامت فى نفسه ، انه لو عاد الى ت ... لاستعبدته ، مرة أخرى ، فتنة تلك المرأة التى تستبد بالنفس . حتى لقد ظل مفتتنا بذلك بعد خمس سنين. غير انه كان عندئذ لايعترف لذ. ه بهذا الا ويغضب، وكان لايستطيع أن يتذكر « تلك المرأة » الا ويشعر نحوها بالكره والبغض. كان يخجل من هذه السنة التى قضاها فى ت... ولايستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يستعبد فلتشانينوف هوى « غبى » كهذا الهوى . كان يعد جميع الذكريات التى تتصل بهذا الهوى مخلة بالكرامة موجبة للخجل ، فكان اذا تذكرها يحمر وجهه احمرارا شديدا ، حتى ليكاد يبكى، وكان يغرق نفسه بألوان من اللوم الموجع والتقريع المؤلم . ولكنه شعر بعد بضع سنين بشىء من الهدوء ، فلقد حاول أن ينسى كل شىء ، وظفر بذلك تقريبا . وهاهوذا كل شىء ينبعث الآن فجأة ، بعد تسع سنين ، انبعاثا غريبا ، حين علم بموت ناتاليا فاسيليفنا .

جلس على سريره ، وغزته أفكار مشوشة كانت تتسارع فى ذهنه مزدحمة ، فكان لايحس احساسا واضحا ولا يفهم فهما واضحا الا شيئا واحدا ، هو أن موت هذه المرأة ، رغم ما أحدثه فيه النبأ من «اضطراب» لم يؤثر فيه ، ولا أحزنه . فكان يتساءل : « أأنا لا أشعر أذن حتى بشىء من الأسف لموتها » . الحق انه أصبح يستطيع الآن ، بعد أن مضى كرهه لها وحقده عليها ، أن يقضى فى أمرها برأى أقرب الى الحياد والانصاف . كان رأيه الذى قام فى ذهنه منذ مدة طويلة خلال هذه السنين التسع من الفراق ، هو أن ناتاليا فاسيليفنا واحدة من سيدات الريف العاديات جدا ، واحدة من سيدات المجتمع « الراقى » فى الريف : « من يدرى ، قد تكون كذلك حقا ، وقد أكون أنا الشخص الوحيد الذى صنع لنفسه عنها أفكارا خيالية » . وكان يقدر دائما مع ذلك أن رأيه هذا قد يشتمل على بعض الخطأ . وهو يحس هذا الآن. ثم أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقائع جاءت تكذب ذلك الرأى : لقد قامت بينها وبين باجاوتوف هذا علاقة اخرى دامت بضع سنين . لقد « فتن » باجاوتوف هذا أيضا بها. وباجاوتوف ينتمى فى الواقع الى أعلى طبقة بطرسبرجية. ولما كان « شخصا تافها تماما » (هكذا كان يقول عنه فلتشانينوف) فانه كان لايستطيع أن يعيش حياة ناجحة الا فى بطرسبرج ، ومع ذلك ازدرى بطرسبرج هذه التى تعده بكثير من المزايا والمنافع ، وعاش فى ت ... خمس سنين من حياته ، فى سبيل هذه المراة وحدها ... ولعله لم يعد الى بطرسبرج ، الا بعد أن رمى ، كما « يرمي حذاء أصبح من البلى لا يصلح أن ينتعل » . فلابد اذن أن يكون فى هذه المراة شيء خارق ، هو القدرة على الاجتذاب والاخضاع والسيطرة .

ومع ذلك كان يلوح انها لا تملك ما به تجذب وتستعبد : انها لم تكن على حظ كبير من الجمال ، ولعلها لم تكن على أى حظ من الجمال . كانت فى الثانية والعشرين من عمرها حين رآها فلتشانينوف . كان فى وجهها حين ينتعش ويتحرك نوع من الفتنة. على انه لايمتاز بحسن كثير. الا أن عينيها كانتا منفرتين : كان فى نظرتها قسوة مفرطة . وكانت نحيلة جدا . وكان نموها العقلى ضعيفا . كان لها فكر نافذ ولاشك ، ولكنه فكر متعصب فى اكثر الأحيان . وكان سلوكها سلوك امراة ريفية راقية ، ولكنها كانت تمتاز ، الى ذلك ، بكثير من الرهافة ، واللباقة ، والحق يقال . وكان لها ذوق مرهف . ولكن هذا الذوق المرهف كان لايظهر الا فى ملابسها ، فلقد كانت تعرف كيف تلبس... وكان طبعها يتصف بالحزم والسيطرة : انك لا تستطيع أن تتفاهم معها فى أى أمر من الأمور نصف تفاهم : « اما كل شيء ، واما لا شيء » . وكانت كريمة كرما كبيرا . ولكنها كانت الى ذلك ظالمة ظلما شديدا : يستحيل عليك ان تتناقش مع هذه السيدة : أن ٢ × ٢ لامعنى لها عندها . لم يتفق لها يوما أن عدت نفسها على خطأ ، حتى لكأنها معصومة من الزلل . كانت خياناتها المستمرة الكثيرة لزوجها لا تثقل على ضميرها . كان فلتشانينوف يشبهها هو نفسه بتلك « العذراوات » ، عذراوات الفرق الدينية المنشقة اللواتى يعتقدن مخلصات انهن « أمهات الرب » . كانت وفية لعشاقها ، الى أن تشبع منهم . وكان يلذ لها أن تعذبهم ، ثم سرعان ما تكافئهم . ان طبيعتها جامحة قاسية شهوانية. كانت تكره الفجور، وتستنكره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استنكارا شديدا ، ولـكنها كانت فاجرة . وما من شيء كان يمكن أن يحملها على التسليم بأنها فاجرة . « من المحقق انها تجهل ذلك ، صادقة كل الصدق » . هـذا ما كان يقوله فلتشانينوف لنفسه حين كان لايزال فى ت ... (ويجب أن نذكر ، عابرين ، انه كان يقول ذلك لنفسه حين يشارك فى فجورها) . وكان يقول لنفسه أيضا : « هذه امرأة من أولئك النســاء اللواتى كأنما خلقن ليخن ازواجهن . ان أولئك النساء لا تزل بهن القدم ما دمن بنات لم يتزوجن بعد. ان طبيعتهن تقضى بالايقع لهن هذا الا حين يتزوجن. أن زوج احداهن هو أول من يعاشرها ، ولـكن بعد الزواج ، لا قبله . وما من فتاة تتزوج مثلما يتزوجن ببراعة وسهولة. والزوج هو المسئول عن العشيق الاول . ويجرى كل شيء بصدق واخلاص، فهن لايرين انهن تنكبن طريق الواجب ، وأن ما يعملنه ليس من حقهن... وهن يعددن انفسهن بريئات كل البراءة بطبيعة الحال».

كان فلتشانينوف مقتنعا بوجود هذا النموذج من النســاء حقا ، ولكنه كان موقنا أيضا بوجود نموذج من الأزواج يقابل هذا النوع من النساء ، نموذج من الأزواج ليس لوجوده من مبرر غير الانطباق على هذا النموذج من النساء . وكان فى رأيه أن الصفة الأساسية فى هؤلاء الرجال هى أن أحدهم « زوج ابدى » ان صح التعبير ، أو قل انه ليس فى الحياة الا زوجا . « ان رجلا من هذا النموذج لايولد ولا ينمو الا ليتزوج وليصبح تتمة لزوجته ، ولو كان يملك طبعا خاصا لا مشاحة فيه . ان العلامة التى تميز زوجا مثله هى زينة ما فى رأسه. يستحيل عليه الا يكون له قرنان ، كما يستحيل على الشـــــمس الا تضيء . وهو لا يجهل ذلك دائما فحسب ، بل لابد أن يجهله ، بحكم قوانين طبيعته » كان فلتشانينوف يؤمن ايمانا جازما بوجود هـــــذين النموذجين ، وبأن بافل بافلوفتش تروسوتسكى كان فى ت... يمثل أحدهما . غير أن بافل بافلوفتش الذى جاءه أمس ، يختلف اختلافا واضحا عن بافل الذى عرفه فى ت ... لقد رأى فلتشانينوف أن الرجل تبدل تبدلا هائلا ، ولكنه كان يعرف ان هذا التبدل أمر كان لابد أن يقع ، وانه طبيعى تماما : ان السيد تروسوتسكى لايمكن أن يكون الآن ماكان اثناء حياة زوجته ، انه لايمثل الآن الا جزءاً من كل ، جزءا ترك فى العالم شيئا غريبا لا يشبهه شيء .

اما بافل بافلوفتش الذى كان فى ت ... فاليكم الصورة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

احتفظ بها فلتشانينوف عنه . وأخذ يتذكرها الآن .
في ت ... لم يكن بافل بافلوفتش الا زوجا ، ولاشيء غيرذلك. ولئن كان عدا هذا موظفا ، مثلا ، فما ذلك الا لأن أعماله جزء من واجباته زوجا. لقد دخل الوظيفة لأنه نظر بعين الاعتبار الى مركز زوجته في مجتمع ت ... رغم أنه كان ، بحد ذاته ، موظفا نشيطا شديد الحماسة لعمله . كان عمره حينذاك خمسة وثلاثين عاما ، وكان يملك بعض الثراء ، بل كانت ثروته ضخمة بعض الشيء . لم تكن له كفاءات بارزة ، ولكنه لم يكن عاجزا عجزا بارزاكذلك. وكانت له صلات بالمجتمع الراقي ، وكان يعيش حياة عريضة . وكان الناس في ت ... يقدرون ناتاليا فاسيليفنا كثيرا ، ولكنها كانت لا تحفل بهذا كبير احتفال ، وتعد اعتبار الناس لها حقا من حقوقها. كانت تحسن الاستقبال ، وقد روضت بافل بافلوفتش حتى أكسبته كثيرا من اللباقة ، فصار يجيد استقبال أضخم قبعات ت ... اذا اقتضى الأمر ذلك . ولعله كان ذكيا أيضا (هكذا كان يقول فلتشانينوف لنفسه) ، ولكن ناتاليا فاسيليفنا كانت لا تحرص على أن يتكلم زوجها كثيرا ، فكان الناس لايلاحظون ذكاءه . ولعله كان ينعم بعدد من المزايا الطبيعية ، كما كان يتصف ببعض العيوب، اما المزايا فكانت مغطاة بدثار ان صح التعبير ، واما الغرائز السيئة فقد خنقت خنقا كاملا على وجه التقريب . يتذكر فلتشانينوف ، مثلا ان السيد تروسوتسكي كان يحاول في بعض الأحيان ان يهزأ بجاره ، ولكن ذلك كان محظورا عليه بقسوة . وكان يحب في بعض الأحيان أن يروي قصصا ، ولكن ذلك كان مراقبا أيضا : كان لايسمح له بأن يقص الا حكايات ليس لها دلالة . وكان يحب أن يجتمع ببعض الرفاق خارج البيت ، بل كان يميل الى الشرب مع هؤلاء الرفاق ، ولكن هذه الميول قد اجتثت من جذورها . ومع ذلك ، اذا نظر المرء الى المظاهر وحدها ، لم يدر في خلده أن الرجل تحت حذاء زوجته . كانت ناتاليا فاسيليفنا تبدو زوجة مطيعة ، ولعلها كانت تعتقد هي بذلك اعتقادا صادقا . ولعل بافل بافلوفتش كان يحب زوجته حبا يبلغ حد الجنون ، ولكن لم يكن في وسع أحد أن يلاحظ ذلك : كان يستحيل أن يعرف أحد شيئا عن هذا ، ربما بفضل الاجراءات التي تتخذها ناتاليا فاسيليفنا بهذا الصدد . لقد تساءل فلتشانينوف مرات كثيرة ، أثناء اقامته في ت ... هل يشتبه الزوج بعض الاشتباه في علاقاته بزوجته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى لقد طرح هذا السؤال غير مرة على ناتاليا فاسيليفنا بكثير من الجد ، فكانت تضيق ذرعا بالسؤال وتجيبه بأن زوجها لايعرف شيئا ولايمكن أن يعرف شيئا ، وأن هذا كله « لايعنيه أبدا على أية حال من الأحوال » . وثمة شيء آخر طريف ، هو انها كانت لا تسخر أبدا من بافل بافلوفتش ، ولا تجد فيه أى شيء يثير الضحك أو يبعث على النفور، ولو تجرأ أحد فنال منه أو لم يتأدب معه لدافعت عنه دفاعا حارا . ولم يكن لها أولاد ، لذلك أصبحت سيدة من سيدات « الصالونات » فحسب . ولكنها كانت تحرص على حياتها المنزلية أيضا . ان ملذات الصالونات لم تكن تستغرقها كل الاستغراق ، وكانت تحب أن تعنى بمنزلها وبأعمال السيدات . لقد تذكر بافل بافلوفتش أمس قراءاتهم العائلية عند المساء فى ت ... وهذا صحيح : لقد كان فلتشانينوف هو الذى يتولى القراءة فى بعض الاحيان ، وكان بافل بافلوفتش يتولاها فى أحيان اخرى : كان بافل بافلوفتش يقرأ فيجيد القراءة ، وكان فلتشانينوف يعجب من ذلك أشد العجب . أما ناتاليا فاسيليفنا فكانت تتابع القراءة بهدوء وانتباه مع استمرارها على التطريز بوجه عام . كانوا يقرأون روايات لديكنز ، ومجلات روسية ، وكانوا يقرأون فى بعض الأحيان أشياء « جدية » . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تقدر ثقافة فلتشانينوف كثيرا ، ولكنها لا تتحدث فى ذلك . كان ذلك أمرا مقررا ، مسلما به ، لا داعى الى الكلام فيه . كانت ناتاليا فاسيليفنا قليلة الاحتفال بكل ما هو علم وكتب ، كأن هذه الأمور لا تعنيها ، رغم ما قد يكون لها من فائدة . أما بافل بافلوفتش فقد كان يحبها حب هوى فى بعض الأحيان .

وقد انتهت هذه العلاقة فجأة حين بلغ حب فلتشانينوف أقصى درجاته ، حتى كاد يصير الى جنون ، طرد بغتة ، ببساطة ، رغم أن كل شيء قد رتب ترتيبا من شأنه أن يجعله يسافر دون أن يعرف انه «رمى كما يرمى حذاء أصبح من البلى لايصلح أن يستعمل». لقد ظهر فى ت... قبل سفره بشهر ونصف شهر ضابط من ضباط المدفعية أنهى دراساته فى مدرسة الفتيان منذ برهة وجيزة . وأخذ هذا الضابط يتردد الى بيت تروسوتسكى ، فأصبح العدد الآن أربعة لا ثلاثة . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تستقبل الفتى بترحيب وحفاوة ، ولكنها كانت تعامله كما يعامل الاطفال ، فلم يشك فلتشانينوف فى شيء . ثم ان ثمة شيئا آخر كان يشغل باله ، ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انه ابلغ فجأة ان الفراق أصبح أمرا لابد منه . وقد أوردت ناتاليا فاسيليفنا مئات من الحجج للتدليل على ان سفر فلتشانينوف يجب أن يتم بسرعة ، وكانت احدى تلك الحجج انها حبلى : كانت تعتقد أنها حبلى ، فلابد اذن أن يغيب فورا ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر على الأقل ، وذلك حتى لايراود الزوج بعد تسعة أشهر أى شك اذا حاول احد أن يشى بها . وكانت الحجة ضعيفة . وقد اقترح فلتشانينوف عليها أن تهرب معه الى باريس أو الى أمريكا ، بتأثير ما كان يتأجج فى نفسه من حب عنيف . ولكنه سافر بعد ذلك وحده الى بطرسبرج ، شريطة الا يغيب الا «مدة قصيرة جدا» أى ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر فى أكثر تقدير ، والا لما سافر قط ، رغم جميع الحجج والأدلة التى يمكن ابداؤها . وبعد شهرين تماما تلقى فى بطرسبرج رسالة من ناتاليا فاسيليفنا ترجوه فيها ألا يعود ابدا الى ت ... لأنها تحب الآن شخصا آخر . أما عن حملها ، فقد قالت فى الرسالة انها كانت على خطأ . ولم يكن فلتشانينوف فى حاجة الى هذا الشرح . ان كل شىء غدا واضحا : لقد تذكر الضابط الصغير . انتهى الأمر الى الأبد . وقد علم فلتشانينوف بعد بضع سنين أن باجاوتوف الذى كان فى ت ... قد مكث فيها خمس سنين . وعلل طول مدة هذه العلاقة بأن ناتاليا فاسيليفنا كانت بسبب تقدمها فى السن تزداد تعلقا بعشيقها حتما .

ظل فلتشانينوف جالسا على سريره مدة ساعة تقريبا . فلما ثاب الى نفسه ، قرع الجرس لمافرا ، فجاءته بقهوته ، فاحتساها بسرعة، وارتدى ملابسه وخرج فى الساعة الحادية عشرة تماما ، ليمضى باحثا عن فندق بوكروفسكى . لقد راودته فى هذا الصباح فكرة جديدة حول هذا الموضوع . ثم انه كان خجلا بعض الخجل من طريقته فى استقبال بافل بافلوفتش ، الليلة البارحة . فيجب اخراج هذا كله الى النور .

كان يقول لنفسه الآن ان قصة القفل كلها ، هذه القصة العجيبة ، لم تكن الا بنت الصدفة ، لم تكن الا ثمرة سكر بافل بافلوفتش ، وثمرة شىء آخر أيضا. ولكنه على وجه الاجمال لا يتصور تصورا واضحا الغاية التى يهدف اليها من مضيه الى تجديد علاقاته بالزوج السابق ، رغم أن كل ما بينهما قد انتهى نهاية طبيعية جدا . كان ثمة شىء يجره الى ذلك جرا . لقد شعر شعورا خاصا ، وكان هذا الشعور هو بعينه علة ذلك الاندفاع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٥ —

ليزا

لم يخطر ببال بافل بافلوفتش ان « يرحل » عن الفندق . ولا يعلم الا الله لماذا طرح عليه فلتشانينوف هذا السؤال أمس. حقا لقد كان مضطرب الفكر. فى دكان صغير ، قرب ميدان بوكروف ، دلوه على فندق بوكروفسكى الذى يقع على بعد بضع خطوات ، فى شارع صغير. وقيل له فى الفندق ان السيد تروسوتسكى ينزل فى غرفة مؤثثة عند امرأة يقال لهـا ماريا سيسويفنا ، بملحق يقع فى آخر الفناء . فبينما هو يصعد الى الدور الثـانى الذى فيـه الغرف المؤثثة ، على سلم حجرى ، ضيق ، قذر ، تغطيه الأوساخ ، سمع فجأة صوت بكاء . انه بكاء طفلة فى السابعة أو الثامنة من عمرها. وكان البكاء اليما . كان نشيجا مخنوقا ، ينفجر فجأة ، ويختلط به صراخ حانق ، حاد ، أجش ، ينطلق من رجل ، كما تختلط به دبدبات أقدام على الأرض . يلوح للمرء أن الرجـل يحاول أن يسكت الطفلة ، ولايريد أن يسمع أحد بكاءها ، ولـكنه يحدث من الصـخب اكثر مما تحدث ، مع محاولته ضـبط نفسـه . كانت الصرخات وحشية ، وكان يبدو أن الطفلة تتوسل الى الرجل أن يصفح عنها . فلما دخل فلتشانينوف فى رواق ضيق على جانبيه بابان مفتوحان ، صادف امرأة طويلة بدينـة مكشوفة الصـدر ، فسألها عن بافل بافلوفتش ، فأشارت بأصـبعها الى الباب الذى كان يسمع من ورائه البكاء . ان هذه المرأة تبلغ الأربعين من العمر ، كان وجهها الـكثيف المحمر يعبر عن شىء من الاستياء والاستنكار. قالت بصوت خفيض وهى تهبط السلم :

— انظروا كيف يتسلى

هم فلتشـانينوف أن يطرق البـاب ، ولـكنه عدل عن ذلك ، وفتحه على حين فجأة . فرأى بافل بافلوفتش واقفـا فى وسـط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غرفة صغيرة ، مزدحمة بأثاث ملون بألوان فظة غليظة . لم يكن بافل بافلوفتش مرتديا ملابسه كاملة : كان بلا صدرة وبلا سترة . وكان وجهه احمر يشيع فيه الغضب والحنق. كان يصرخ ويحرك يديه ، حتى لكأنه يشد قبضتيه ليضرب بهما ، (هكذا ما بدا لفلتشانينوف) ، محاولا ان يسكت طفلة صغيرة فى نحو الثامنة من العمر. وكانت الطفلة ترتدى ثوبا فقيرا ، ولكنه ثوب آنسة مع ذلك ، ثوب قصير من الصوف الاسود . كان يبدو انها فى نوبة عصبية ، كانت تمد يديها نحو بافل بافلوفتش ناشجة منتحبة ، كأنها تريد أن تشده اليها ، وأن تعانقه ، وأن تتوسل اليه . وما هى الا طرفة عين حتى تبدل هذا كله ، فما أن رأت البنية شخصا غريبا حتى صرخت ، ومرقت كالسهم الى غرفة مجاورة . أما بافل بافلوفتش فانه ذهل عن نفسه لحظة ، ثم ما لبث أن انبسط وجهه بابتسامة عذبة كأمس تماما ، حين فتح فلتشانينوف باب السلم فجأة عليه .

صاح دهشا :

ـ الكسى ايفانوفتش . حقا لم اكن أتوقع أن تجىء الآن ... اجلس هنا . هنا على هذا «الديوان» أوعلى ذلك المقعد ، وأنا ...

قال ذلك واسرع يرتدى سترته ، ناسيا ان يلبس الصدرة .

ـ لا داعى الى الرسميات ! ابق كما كنت !

قال فلتشانينوف ذلك وجلس على كرسى .

ـ لا ، لا . اسمح لى ببعض الرسميات . هأنذا الآن على ما يقتضى الأدب . ولكن لماذا جلست بعيدا فى ذلك الركن ؟ اجلس على هذا المقعد قرب المائدة ... نعم ... حقا لم اكن انتظر أن تجىء !..

ـ لماذا لم تكن تتوقع ان أجىء ؟ لقد قلت لك امس اننى سأجىء اليوم ، فى هذه الساعة بالذات .

ـ قدرت انك لن تجىء ، وحين ادركت عند يقظتى فى هذا الصباح كل ما جرى أمس ، فقدت كل أمل فى رؤيتك بعد ذلك أبدا .

كان فلتشانينوف يلاحظ الغرفة اثناء ذلك. كانت الغرفة فى فوضى شاملة ، فالسرير لم يرتب ، وفى كل مكان ملابس القيت على غير هدى . والمائدة حافلة بكئوس وبقايا قهوة ، وفتات خبز ، وزجاجة شمبانيا مفتوحة ، فارغ نصفها ، والى جانبها قدح . والقى

فلتشانينوف نظرة على الغرفة المجاورة ، ولكن كل شيء كان فيها ساكنا ، فقد صمتت الطفلة .

ــ هل كنت تشرب ؟

قال فلتشانينوف ذلك وهو يشير الى زجاجة الشمبانيا .

فاضطرب بافل بافلوفتش ، وقال :

ــ هذه بقايا ...

ــ ما أكثر ما تغيرت !

ــ عادات سيئة ... اعتدتها فجاة . منذ ذلك . لا اكذب . يستحيل على أن أمنع نفسى . لا تخف يا الكسى ايفانوفتش . لا ، لست الآن سكرانا ، ولن أقول كلاما سخيفا ، كالذى قلته أمس ، فى بيتك . ولكننى أقول لك الحقيقة يا الكسى ايفانوفتش : لقد بدأت هذه العادة منذ ذلك . ولو قد قال لى أحد ، قبل ستة أشهر فحسب ، اننى سأتزعزع هذا التزعزع كله ، لو أرانى أحد وجهى فى المرآة ، لما صدقته !..

ــ اذن كنت أمس سكرانا .

قال بافل بافلوفتش يعترف بصوت منخفض ، وهو يغض طرفه خجلا :

ــ نعم ، ولكنى لم أكن سكرانا تماما ، لأننى شربت قبل أن أجىء اليك ببضع ساعات . أقول لك ذلك ، لأن الحالة عندى تزداد سوءا بعد السكر : فمتى ذهب السكر أصبحت شريرا قاسيا ، وصرت كالمجنون وعندئذ يتفاقم حزنى . ولعل هذا الحزن هو الذى يحملنى على الشرب . اننى أصبح قادرا على ارتكاب أسوأ الحماقات ، وأسعى الى المشاجرات . ألم أبد لك غريبا أمس ؟

ــ ألا تتذكر ؟

ــ كيف لا ؟ اننى أتذكر كل شيء .

قال فلتشانينوف بلهجة لطيفة مصالحة :

ــ ها ... هذا ما قدرته ، وهذا ما فسرت به الأمور يابافل بافلوفتش . ولقد كنت انا ايضا مهتاجا بعض الاهتياج أمس ، وكنت نافد الصبر ... أسلم لك بذلك . اننى أشعر فى بعض الأحيان بانقباض شديد ، ثم ان زيارتك فى الليل ، على غير توقع..

فهز بافل بافلوفتش رأسه كأنه يدهش من نفسه وكأنه يلوم نفسه :

ــ نعم ، فى الليل ! وما الذى دفعنى الى هذا ؟ على اننى ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يمكن أن ادخل عليك ، بحال من الأحوال ، لولا انك أنت فتحت الباب .. كنت سأمضي ما في ذلك شك . وقد سبق أن جئت قبل ذلك يا الكسي ايفانوفتش، منذ اسبوع تقريبا ، فما وجدتك. ولكن كان يمكن ألا أعود أبدا. ان لي كبريائي يا الكسي ايفانوفتش، رغم انني في الحالة التي أنا فيها . لقد التقينا في الشارع، ولكنني قلت لنفسي : « وإذا لم يعرفني ... اذا أشاح بوجهه عني .. ذلك انها تسع سنين .. مدة ! » فلم أعزم أمري على التعرض لك . أما أمس فقد كنت راجعا من الضاحية ، وكنت قد فقدت احساسي بالزمن تماما . والمسئول عن ذلك هو هذه (أشار الى الزجاجة) وعواطفي . انها لغباوة ! انها لغباوة شديدة ! ولو فعلت ذلك مع غيرك ، لفقدت كل أمل في تجديد التعارف . أما أنت فقد تذكرت الماضي فجئت الي ، رغم كل ما حدث أمس .

كان فلتشانينوف يصغي الى كلامه بانتباه . وكان يبدو أن الرجل يعبر عن شعوره تعبيرا صادقا ، حتى لقد كان في كلامه شيء من الرصانة والوقار . ولكن فلتشانينوف كان لا يصدق حرفا مما يقول ، منذ دخل عليه .

ــ قل لي يا بافل بافلوفتش ، ألست اذن وحدك هنا ؟ لمن هذه البنت التي رأيتها عندك منذ برهة ؟

فدهش بافل بافلوفتش كثيرا ، ورفع حاجبيه ، وألقى على فلتشانينوف نظرة صافية بشوشا :

ــ لمن هذه الطفلة ؟ انها ليزا ... ليزا ...

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة .

فدمدم فلتشانينوف يقول وقد شعر بشيء يهتز في نفسه :

ــ أي ليزا ؟

كان شعورا مباغتا . انه حين دخل منذ لحظة ، فرأى ليزا ، دهش بعض الدهشة ، ولكن لم يساوره أي شعور خاص ، لم تراوده أية فكرة خاصة . فكرر بافل بافلوفتش يقول ، وهو لايزال يبتسم :

ــ ولكنها ليزا ، بنتنا ليزا !

ــ بنتك ؟ ولكن هل... هل انجبت ناتاليا فاسيليفنا أولادا ؟

سأل فلتشانينوف هذا السؤال خجلا مترددا ، بصوت مختنق بعض الاختناق .

ــ كيف؟ ها... نعم . الحق معك . وكيف كان يمكن أن تعرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك ؟ نعم ، بعد سفرك انما من علينا الله بها .

وارتجف بافل بافلوفتش على كرسيه ، كأن انفعالا قويا هز نفسه ، ولكنه انفعال ممتع .

قال فلتشانينوف :

ـ لم أكن أعرف ذلك .

وامتقع وجهه .

قال بافل بافلوفتش بصوت رقيق عذب :

ـ صحيح ، صحيح . ومن ذا الذى كان يمكن أن ينبئك بذلك ! انت تذكر أننا ، انا والمرحومة ، كنا قد فقدنا كل أمل ، ولكن الله انعم علينا . آه ... لايدرك الا الله ما شعرت به عندئذ من عواطف ! كان ذلك بعد سفرك بسنة تماما ، لا بل بعد سفرك باقل من سنة . أظن ، اذا لم تخدعني ذاكرتي ، انك تركتنا فى شهر تشرين الأول (اكتوبر) ... أم فى شهر تشرين الثانى ؟

ـ سـافرت من ت ... فى أوائل ايلول ، فى ١٢ من ايلول (سبتمبر) . اتذكر ذلك جيدا ...

ـ فى ايلول ؟ صحيح ؟ كنت اظن ...

قال ذلك بافل بافلوفتش دهشا كل الدهشة ، وأردف :

ـ اذا صح ذلك ... اذن أنت سافرت فى ١٢ من ايلول ، وليزا ولدت فى ٨ من أيار (مايو) ... معنى ذلك : ايلول ، تشرين الأول ، تشرين الثانى ، شباط ، آذار ، نيسان ... ثمانية أشهر وبضعة أيام . نعم ، هذا هو . ليتك تعلم كم المرحومة ...

ـ ارنيها . ائتنى بها .

قال فلتشانينوف ذلك بصوت متقطع .

فاضطرب بافل بافلوفتش ، وقطع عبارته فجاة ، كأنها لا قيمة لها ، قائلا :

ـ طبعا سآتيك بها حالا ، سأقدمها اليك فورا .

ثم مضى بخفة وحرارة الى غرفة ليزا .

وانقضت ثلاث دقائق او اربع . كان فى الغرفة الصغيرة همس سريع منخفض . وكان صوت ليزا لايكاد يسمع . قال فلتشانينوف لنفسه : « انها تتوسل اليه الا يخرجها » . وظهر اخيرا .

قال بافل بافلوفتش :

ـ هى ذى ! انها لا تزال خجلى . ان بها حيـاء ... وهى صورة المرحومة تماما !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ليزا قد انقطعت عن البكاء . كانت عيناها مطرقتين ، وكان ابوها يجرها من يدها . انها بنية فارعة الطول ، نحيلة القوام ، جميلة جدا . رفعت عينيها الواسعتين الزرقاوين نحو فلتشانينوف بسرعة ، ولكنها ما لبثت أن خفضتهما ، بعد أن نظرت اليه نظرة مستطلعة قاتمة ، كان في نظرتها ما يلاحظ من جد في الأطفال الذين اذا بقوا وحدهم مع غريب لايعرفونه جلسوا في ركن من الأركان ، واخذوا من هنالك يلاحظون ، برصانة وحذر ، الضيف الذي لم يروه من قبل . ولكن لعل نظرتها كانت تشتمل ايضا على شيء آخر ، على فكرة ليست من الطفولة في شيء . فهذا ما بدا لفلتشانينوف الذي جاء بها ابوها اليه .

ــ عمك هذا قد عرف امك من قبل . كان صديقنا . فلا تخافي ، مدي يدك اليه .

فانحنت البنت انحناءة يسيرة ، ومدت يدها خجلى .

ــ لم تشأ ناتاليا فاسيليفنا أن تعلمها كيف تثني ساقها الى الوراء عند التحية احتراما .. علمتها الطريقة الانجليزية ، وهي أن تحني راسها قليلا ! وأن تمد يدها .

ذلك ما قاله بافلوفتش لفلتشانينوف .

كان فلتشانينوف يعرف ان صاحبه يلاحظه ويراقبه ، ولكن لم يخطر له ببال ان يخفي انفعاله . كان جامدا على كرسيه ، ممسكا يد ليزا بيده ، ينظر الى الطفلة بانتباه شديد . ولكن ليزا كانت تبدو مشغولة الفكر . لقد تركت يدها في يد الرجل الغريب ، ولكنها كانت لا ترفع نظرها عن ابيها ، وكانت تصغي الى كلامه خائفة وجلة . تعرف فلتشانينوف على عينيها الواسعتين الزرقاوين على الفور ، ولكن ما لفت نظره اكثر من اى شيء آخر هو البياض العجيب والنعومة في بشرتها ، ولون شعرها . ان هذه الصفات ذات دلالة . أما استدارة وجهها وشكل شفتيها فقد ذكراه بناتاليا فاسيليفنا . كان بافل بافلوفتش لايزال اثناء ذلك يتكلم منذ مدة طويلة ، ويظهر أنه كان يتكلم بحرارة وعاطفة . ولكن فلتشانينوف كان لايسمع شيئا ، ولم يدرك الا العبارة الأخيرة :

ــ ... لاتستطيع أن تتصور يا الكسي ايفانوفتش الفرح العظيم الذي شعرنا به حين انعم علينا بهذه الابنة . لقد اصبحت ، منذ ولادتها ، كل شيء عندي . فكنت اقول لنفسي : اذا شاءت ارادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله أن تذهب عني سعادتي الهادئة ، فسوف تبقى لي ليزا . كنت واثقا من ذلك على الأقل !

فسأله فلتشانينوف بقوله :

ــ وناتاليا فاسيليفنا ؟

فانقبض وجه بافل بافلوفتش قليلا ، ثم أجاب :

ــ ناتاليا فاسيليفنا؟ أنت تعرفها حق المعرفة ، لاشك انك تتذكر انها كانت لا تحب أن تظهر عواطفها كثيرا . ولكن ما كان أروع وداعها لها ، وهي على فراش الموت !.. لقد عبرت عندئذ عن كل شيء ... قلت لك « على فراش الموت » ... ولكنها قبل موتها بيوم واحد ، أخذت تضطرب فجأة وتغضب ... قالت اننا نريد أن نقتلها بهذه الأدوية الكثيرة ، وان كل ما بها حمى بسيطة ، وان طبيبينا لايفقهان شيئا ، وأنها ستنهض من فراشها بعد أسبوعين، متى عاد كوخ (هل تتذكره ؟ طبيبنا العسكري ، العجوزالقصير؟). وأكثر من ذلك أيضا انها قبل أن تحتضر بخمس ساعات تذكرت أن عليها بعد ثلاثة أسابيع أن تزور حتما عمتها ، اشبينة ليزا ، بمناسبة عيد ميلادها .

نهض فلتشانينوف فجأة دون أن يترك يد ليزا . لقد بدا له ان في النظرة المحمومة التي تسددها الى أبيها شيئا من اللوم . قال بصوت موجز غريب :

ــ ليست مريضة ؟

فأجاب بافل بافلوفتش ، وقد بدا في وجهه الحزن والهم :

ــ لا أظن ذلك . ولكن شئوننا تجري مجرى ... انها طفلة غريبة الأطوار ، عصبية منذ الآن . لقد مرضت على أثر موت أمها أسبوعين ... انها ابنة هستيرية. ومنذ لحظة ، حين دخلت علينا، كانت تبكي بكاء عجيبا . هل تسمعين يا ليزا ، هل تسمعين ؟ ولماذا كانت تبكي ؟ لأنني أخرج وأتركها وحدها ، ومعنى هــذا ، فيما تظن ، انني لا أحبها كما كنت أحبها أثناء حياة أمها . هذا ما تتهمني به . انظر الى هذه الأخيلة التي تنبثق في ذهن بنية ينبغي ألا تهتم الا بألعابها وعرائسها . ولكن ليس هنا أحد يمكن أن تلعب معه .

ــ ولكن كيف تعمل أنت ؟.. انتما وحيدان هنا تماما ؟

ــ نعم ، وحيدان . ان الخادمة لا تأتي الا لخدمة البيت ، مرة في اليوم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وحين تخرج أنت ، هل تتركها وحدها ؟

ـ وهل أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ حين خرجت أمس ، أقفلت عليها هذه الغرفة : ولهـذا السبب انما بكينا اليوم . ولـكن ما العمل ؟ أحكم فى الأمر بنفسك . منذ ثلاثة أيام ، نزلت الى الفناء وحدها ، فرماها صبى بحجر على رأسها . وفى مرة أخرى ، أخذت تبكى ، وتتوسل الى جميع الناس أن يقولوا لها أين ذهبت . وهذا غير لائق طبعا . أما أنا فأنعم بى ... أخرج لساعة ، ثم لا أعود الا فى صباح غد ، كما فعلت أمس . ومن حسن الحظ أن صاحبة البيت استطاعت أن تخرجها أثناء غيابى ، استقدمت قفالا فتح الباب . انه لعار ! اننى لأشعر أنا نفسى بأن هـذه الاعمال أعمال شيطان لا انسان . وكل ذلك لأن رأسي مضطرب . نعم ، لأن رأسي مضطرب .

قالت الصغيرة خائفة قلقة :

ـ بابا

ـ عدنا ؟ عدنا ؟ ماذا قلت لك منذ لحظة ؟

قالت ليزا وقد تملـكها الذعر ، ومدت يديها نحوه بسرعة :

ـ لن أفعل ذلك بعد الآن ، لن أفعل ذلك بعد الآن .

عندئذ تدخل فلتشانينوف فى الأمر ، وقد عيل صبره ، فقال بلهجة السيد :

ـ لايمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال . انك رجل غنى ، فكيف تعيش هذه المعيشة ، فى هذا الجناح ، ضمن هذه الظروف؟

ـ فى هـذا الجناح ؟ ولـكننا قد نسافر بعـد أسبوع ، وقد انفقنا الى الآن مالا كثيراً ، وهبنى غنيا ...

ـ كفى كفى .

هكذا قاطعه فلتشانينوف ، وقد ازداد نفاد صبره ، وكأنما أراد أن يفهمه ما يلى « لا حاجة الى هذا الـكلام . اننى أعرف كل ماتريد أن تقوله وأعرف الهدف الذى تقصد اليه من قوله » . وأردف :

ـ اسمع ، سأقترح عليك هذا الاقتراح : لقد قلت الآن انك ستبقى هنا أسبوعا ، وربما أسبوعين . أعرف هنا بيتا هو بيت أسرة كأنها أسرتى ، أعرفها منذ عشرين عاما . رب الأسرة رجل يقال له بوجورلتسيف ، وهو مستشار سرى يمكن أن ينفعك فى قضيتك . والرجل وذووه هم الآن فى الريف ، حيث يملـكون فيللا رائعة . ان كلافديا بتروفنا بوجورلتسيف هى لى بمثابة أم ، بمثابة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخت . وللأسرة ثمانية أطفال . فدعني آخذ ليزا اليهم . ذلك حتى لا نضيع الوقت . سيستقبلونها فرحين ، ويعاملونها كأنها ابنتهم ، خلال هذه المدة كلها ، نعم كأنها ابنتهم .

قال بافل بافلوفتش متكلفا وهو ينظر الى عيني فلتشانينوف نظرة ماكرة ، فيما خيل اليه :

ــ هذا حقا مستحيل .

ــ لماذا ؟ لماذا مستحيل ؟

ــ كيف لماذا ؟ أن اترك الطفلة هكذا ، فجأة ، مع صديق مثلك ، فهذا ... اوافق عليه ... طبعا ... أما ان أدعها الأسرة لا أعرفها ، أسرة من الطبقة الراقية ... فهذا ما اتساءل كيف يمكن أن يقبل؟

صاح فلتشانينوف شبه حانق :

ــ ولكنني ذكرت لك انني قد كنت عند هؤلاء الناس كأنني في أسرتي . سيسعد كلافديا بتروفنا أن تستقبلها في بيتها ، بكلمة مني ، كأنها ابنتها . تبا لك . انك لتعلم حق العلم انك لا تقول هذا الكلام الا على سبيل الثرثرة . هذا واضح ...

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه .

ــ بل قلت ذلك لأنني أخشى أن يبدو الأمر غريبا . سيكون على أن أذهب لرؤيتها مرة أو مرتين . فما عساهم يقولون حين لا يرون الأب ... هاها ... وفي بيت ثري هذا الثراء ...

صرخ فلتشانينوف يقول :

ــ انها أسرة بسيطة ، وليست « ثرية » ... وقد قلت لك أن لهم ثمانية أولاد . ستنتعش البنية ... هـــذا هو السبب ... سأقدمك اليهم منذ غد اذا شئت . وسيكون من واجبك أن تذهب اليهم للشكر . وسنذهب اليهم كل يوم معا اذا أجببت ...

ــ مع ذلك ...

ــ كفى سخافة ! انت تعرف أن هذا سخافة . اسمع : تعال الى هذا المساء ، فنقضي الليلة عندي ، ثم نسافر في ساعة مبكرة من الصباح حتى نصل اليهم ظهرا .

قال بافل بافلوفتش :

ــ يا لك من رجل لطيف ! نقضي الليلة عندك ؟ هذا لطف حقا .

ثم سأل وهو يظهر كثيرا من الرقة والتأثر :

ــ أين تقع الفيللا ؟

ــ في ليسنوي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ وملابسها ؟ عند أسرة غنية ... وفى المصيف أيضا ... انت تعرف ... قلب الأب !

ــ وما حاجتها الى ملابس أخرى ؟ انها تلبس الآن السواد. هل تستطيع أن تلبس غير هذه الملابس ؟ ان ثيابها مناسبة .كل ماهى فى حاجة اليه بعض البياض ومنديل (الحق ان بياضها والمنديل فى غاية الوساخة) .

اسرع بافل بافلوفتش يقول :

ــ حالا . ستغير ملابسها فورا . وساهيىء لها بياضا للتبديل. انه فى الغسيل ، عند ماريا سيسويفنا .

قاطعه فلتشانينوف يقول :

ــ يجب اذن أن نستدعى عربة . باقصى سرعة ان أمكن ذلك .

الا أن عقبة ظهرت . لقد اعترضت ليزا على الفكرة . كانت تتابع الحديث مذعورة . ولو أتيح لفلتشانينوف أن ينظر الى وجهها اثناء محاولته اقناع بافل بافلوفتش ، اذن لرأى الحزن الشديد الذى كان يعبر عنه هذا الوجه الصغير .

قالت بصوت ضعيف ولكنه جازم :

ــ لن أذهب .

ــ هل ترى ؟ هل ترى ؟ انها صورة أمها .

ــ لا ، لست صورة أمى ، لست صورة أمى !

هكذا صرخت ليزا ، وقد بلغت غاية الحزن والغم ، وهى تعض يديها الصغيرتين ، كأنها تحتج أمام أبيها احتجاجا قويا على هذا الاتهام الفظيع بأنها تشبه أمها . ثم أضافت :

ــ اذا تركتني يا أبت ...

وهرعت فجأة نحو فلتشانينوف الذى أصيب بذعر شديد

ــ اذا أخذتنى ، فسوف ...

ولكنها لم تستطع ان تكمل كلامها ، فقد أمسك بافل بافلوفتش يدها ، وجرها الى الغرفة المجاورة دون أن يخفى حنقه وغيظه . وهناك قام مرة أخرى همس وبكاء مخنوق . وهم فلتشانينوف أن يدخل عليهما ، فاذا ببافل بافلوفتش يخرج ، ويقول له بابتسامة مكشرة ان الصغيرة ستأتى حالا . فحاول فلتشانينوف الا ينظر اليه ، وحول بصره عنه .

دخلت ماريا سيسويفنا ، وهى تلك المرأة نفسها ، التى لقيها وهو يدخل الى الرواق . فوضعت فى حقيبة صغيرة جميلة البياض

الذى جاءت به الى ليزا . وسألت فلتشانينوف :
ـ أأنت الذى تأخذ الطفلة ياعم ؟ هل لك أسرة ؟ انك تحسن صنعا أيها العم . انها ابنة دمثة لطيفة . وانك لتنقذها من جحيم .
فتمتم بافل بافلوفتش يقول ملجلجا :
ـ ماذا تقولين يا ماريا سيسويفنا .
ـ نعم ، ماذا ؟ ماريا سيسويفنا ! كل الناس يعلمون ان هـذا اسمى . اليس جحيما بيتك ؟ هل يليق أن تشهد طفلة تفهم كل شيء ، هل يليق أن تشهد مثل هذه الفضائح ؟ لقد استدعينا لك عربة ياعم . هل السفر الى ليسنوى ؟
ـ نعم نعم
ـ أتمنى لك سفرا سعيدا .
وظهرت ليزا شاحبة اللون ، خافضة الطرف . فتناولت حقيبتها الصغيرة ، دون أن تنظر الى فلتشانينوف . وكبحت نفسها ، فلم تسرع الى أبيها لتعانقه ، كما فعلت منذ قليل ، حتى وهى تودعه. كانت لا تريد أن تنظر اليه . فقبلها بافل بافلوفتش على جبينها باحتشام ، ولاعب شعرها . فانمطت شفتا الطفلة لهذه الحركة ، واختلجت ذقنها ، ولـكنها مع ذلك لم ترفع عينيها . كان بافل بافلوفتش شاحبا بعض الشيء ، وكانت يداه ترتعشـان . ولاحظ فلتشانينوف ذلك ، رغم انه بذل كل مايملك من جهد حتى لاينظر اليه . كان لايريد الا شيئا واحدا ، هو أن يسافر بأقصى سرعة . وكان يقول لنفسه : « لست آثما ، لقد وقع ما كان يجب أن يقع ! »
ونزلوا . تعانقت ماريا سيسويفنا وليزا ، ولم ترفع ليزا بصرها الى أبيها بعد أن ركبت العربة . وفجأة ، ضمت يديها ، وانطلقت منها صرخة . ولو لبثت الخيل ثانية واحدة ، لوثبت ليزا من العربة تسرع نحو أبيها ، ولـكن الخيل انطلقت .

- ٦ -

النزوة الجديدة

سألها فلتشانينوف مذعورا :

ـ أأنت مريضة ؟ أتريدين ان أستوقف العربة ، وأن أطلب لك ماء ؟ ..

فرمته بنظرة عنيفة حارة تفيض لوما وتقريعا . ثم سألته بصوت لاذع متقطع :

ـ الى أين تأخذني ؟

ـ انها اسرة لطيفة يا ليزا ، تسكن في فيللا جميلة جدا . وهناك أطفال كثيرون ، سيحبونك أصدق الحب . انهم اناس طيبون جدا. لا تغضبي مني يا ليزا . انني أريد لك الخير ...

ما اشد ما كان يمكن أن يبدو غريبا في هذه اللحظة لأولئك الذين يعرفونه ، لو أتيح لهم أن يروه !..

ـ انت ... انت .. آه كم انت شرير !

هـذا ما قالته ليزا وهي تخنق نشيجها وتحدق اليه بعينيها الجميلتين المتقدتين غضبا .

ـ ليزا ، أنا ...

ـ انت رجلٌ شرير ، شرير ، شرير .

طاش عقلُ فلتشانينوف .

ـ ليزا ، حبيبتي ، لو علمت كيف يحزنني أشد الحزن أ...

ـ هلْ صحيح انه سيأتي غدا ؟ هلْ هذا صحيح ؟

قالت ذلك بلهجة جازمة ، فأجابها :

ـ نعم صحيح ، صحيح . سآتي به انا نفسي . سأذهب اليه لآتي به .

فتمتمت ليزا وهي تخفض بصرها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ سيخدعنا !
ــ اهو لا يحبك يا ليزا ؟
ــ لا يحبني .
ــ هل كان يسيء اليك ؟ هل كان يؤذيك ؟

فنظرت اليه ليزا نظرة قاتمة مظلمة ، وسكتت. واشاحت بوجهها مرة اخرى ، وخفضت راسها باصرار وعناد . وحاول فلتشانينوف أن يقنعها ، فكان يكلمها بحرارة ، وقد استبد به هو نفسه نوع من الحمى . وكانت ليزا تصغي اليه اصغاء شك وحذر وعداوة . ولـكنها كانت تصغي اليه . وقد سره انتباهها كثيرا . حتى لقـد أخذ يشرح لها ما هو الرجل الذى يشرب . وقال لها انه يحبها ، وانه سيسهر على ابيها . رفعت ليزا عينيها أخيرا ، ونظرت اليه بانتباه . قص عليها كيف عرف أمها ، فلاحظ انها تهتم كثيرا بما يقول . وشيئا فشيئا ، اخذت تجيب عن أسئلته ، ولكن اجاباتها كانت حذرة ، بكلمات قليلة ، وبنوع من العناد . اما الأسئلة الهامة فـكانت لا تجيب عنها أبدا : كانت تصر على الصمت فى كل ما يتصل بعلاقتها بأبيها . وقد تناول فلتشانينوف يدها بيـده اثناء الحديث ، ثم لم يتركها ، فلم تسحبها ليزا . ثم ان الطفلة لم تبق صامتة طوال الوقت ، بل اسمعته أخيرا بعبارات غير واضحة انها كانت فى أول الأمر تحب اباها أكثر مما تحب أمها ، لأن اباها كان فى أول الأمر يحبها اكثر مما تحبها امها ، غير ان امها ، اثناء موتها ، قد عانقتها عناقا قويا جدا وهى تبكى ، حين خرج كل من كان فى الغرفة فبقيتا وحدهما ..وانها تحب الآن امها أكثر مما تحب اى شيء فى العالم ، وانها تزداد حبا لها كل ليلة . غير ان الطفلة كانت فى الواقع ذات كبرياء : فلما لاحظت انها تحدثت أكثر مما كان ينبغى أن تتحدث ، اعتصمت بالصمت من جديد . حتى لقد رشقت فلتشانينوف الذى حملها على الـكلام ، رشقته بنظرة حاقدة . فلما أشرف السفر على نهايته ، كانت عصبيتها قد هدأت بعض الهدوء ، ولكنها أصبحت حالمة ذاهلة ، تنظر نظرات وحشية ، ويبدو فى وجهها الحزن والعناء . كان يبدو أن اخذها الى اناس لا تعرفهم ولم تذهب اليهم يوما ، ليس هو الفكرة التى تشغل بالها الآن . وان شيئا آخر كان يؤلمها ويعذبها . وقد فهم فلتشانينوف هذا الشيء . أدرك انها تشعر بالخجل والعار ، كان يخجلها ان اباها تركها بمثل هذه السهولة ، كأنه يريد أن يتخلص منها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال فلتشانينوف لنفسه : « انها مريضة ، وقد تكون مريضة جدا .. ويل لك ايها السكيرالجبان! انني أفهمك الآن». واستحث الحوذي على الاسراع . كان يبني آمالا كبارا على الفائدة التي ستجنيها من الهواء الطلق في الريف ، ومن الحديقة ، والأولاد ، والحياة الجديدة .. ثم ... أما ما سيحدث بعد ذلك فما كان يشك فيه : ان مستقبلا مشرقا حافلا بالآمال يلوح الآن أمامه . وكان على كل حال ، واثقا من انه لم يشعر يوما بما يشعر به في هذه اللحظة ... ومن أن الحياة كلها هي هذا في نظره ! فكان يقول لنفسه بحماسة : « هذا هو الهدف ! هذه هي الحياة ! ».

كانت الأفكار تتراكض مزدحمة في ذهنه ، ولكنه كان لايتوقف عليها ، وكان يتحاشى التفاصيل باصرار. كان كل شيء يبدو واضحا قويا ، بدون هذه التفاصيل . وارتسمت خطته العامة من تلقاء نفسها فكان يقول لنفسه : « يجب أن نؤثر في ذلك الشقي بتوحيد قوانا. سيترك ليزا عند أسرة بوجورلتسيف، لفترة معينة يحددها في أول الأمر ، ثم يسافر وحده ، وتبقى لي ليزا . هذا كل شيء. وماذا يجب أكثر من ذلك ؟ ثم ... انه يرغب هو نفسه في هذا ... والا فلماذا يعذبها ؟.. »

وصلت العربة أخيرا . كانت فيللا أسرة بوجورلتسيف تقع حقا في مكان جميل . ظهر قطيع الأطفال الصاخب على الباب ، وهرع اليهما يستقبلهما احسن استقبال . ان فلتشانينوف لم يأت اليهم منذ مدة طويلة ، ففرح الأطفال بوصوله فرحا شديداً . كان هنا محبوبا. وصرخ كبارهم ، حتى قبل ان ينزل من العربة ، يسألونه :

ـ الدعوى ؟ ماجرى للدعوى ؟

واستولى الصغار منهم على هذه الجملة ، فأخذوا يرددونها ضاحكين صارخين . كانوا يتأكدونه هنا في موضوع دعواه . ولكنهم ما ان رأوا ليزا حتى احاطوا بها ، وأخذوا يتأملونها ، باستطلاع صامت منتبه هو ذلك الاستطلاع الذي يعرف به الأطفال . ثم جاءت كلافديا بتروفنا يتبعها زوجها ، فكانت اول كلمة قالاها هي سؤاله عن الدعوى أيضا .. مع الضحك .

ان كلافديا بتروفنا سيدة في نحو السابعة والثلاثين من العمر ، سمراء ، ممتلئة ، ولا تزال جميلة . وجهها نضر متورد . أما زوجها فهو في الخامسة والخمسين.. وهو رجل ذكي ، واسع الحيلة ، ماكر ، ولكنه طيب قبل كل شيء . كان فلتشانينوف يشعر عندهم انه «في منزله»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقا ، على حد تعبيره. وكان لهذا سبب خاص : ان كلافديا بتروفنا قد أوشكت ، منذ عشرين عاما ، أن تتزوج فلتشانينوف الذى لم يكن يومئذ الا صبيا ، طالبا. كان الحب الذى نشأ بينهما اول حب لهما كليهما . وكان حبا حارا ، مضحكا جميلا . ولكنها فى آخر الأمر تزوجت بوجورلتسيف . وبعد خمس سنين التقيا من جديد ، فقامت بينهما صداقة رائعة هادئة . وقد بقى لهما من ذلك الحب مودة كانت تضىء ما بينهما من صلات الصداقة . كان كل شىء نقيا لا غبار عليه ، فى ذكريات فلتشانينوف عن ذلك الماضى، وكان فلتشانينوف يحرص على هذا أشد الحرص ، خاصة لأنه ربما كان الاستثناء الوحيد فى حياته ... هنا ، فى هذه الأسرة ، كان فلتشانينوف بسيطا ، ساذجا ، طيبا . كان يهتم بالأولاد ، وكان موقفه صادقا وصريحا دائما ، وقد أقسم الأسرة بوجورلتسيف يوما ليجيئن اليهم عاجلا أو آجلا ، فيسكن معهم ، ويقيم عندهم الى آخر الحياة . وكان يفكر فى هذا الأمر تفكيرا جادا .

قص عليهم ، تفصيلا ، كل ما يجب أن يعرفوه عن ليزا . وكان حسبه ، على كل حال ، أن يبدى رغبة من الرغبات ، دون الدخول فى شروح طويلة . فقبلت كلافديا بتروفنا « اليتيمة » ، ووعدت أن تعمل كل ما فى وسعها أن تعمله . واستولى الأطفال على ليزا ، وقادوها الى الحديقة تلعب معهم . وبعد حديث حار ، دام نصف ساعة ، نهض فلتشانينوف واستأذن . كان شديد نفاد الصبر ، فلاحظوا جميعا ذلك. ودهشوا : لقد طال غيابه عنهم ثلاثة أسابيع، وهاهوذا يتركهم بعد نصف ساعة من وصوله اليهم .كان يضحك ، ويحلف ليعودن غدا. فذكروا له أن فى وجهه علائم انفعال شديد . فأمسك يدى كلافديا بتروفنا فجاة ، وادعى ان ثمة أمرا هاما نسى أن يحدثها عنه ، وسار بها الى الغرفة المجاورة .

ـ هل تتذكرين ما افضيت به اليك وحدك ، وما يجهله زوجك نفسه ، عن موضوع السنة التى قضيتها فى ت ... ؟

ـ أتذكره تماما ، فلقد كنت تتحدث عنه أحيانا كثيرة .

ـ لم أكن أتحدث عنه ، وانما كنت أبوح لك باعترافات ، لك وحدك . اننى لم اذكر لك اسم تلك المرأة . فاعلمى الآن انها زوجة هذا الرجل ، تروسوتسكى . هى التى ماتت ، وليزا ابنتها، ابنتى !

ـ أانت واثق من ذلك ؟ ألست مخطئا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا سألته كلافديا بتروفنا ، منفعلة . فأجابها فلتشانينوف وهو يفيض حماسة :

ـ لا ، لا ، لست مخطئا أبدا .

ثم قص عليهـــا كل شيء بالايجاز الذى قدر عليه ، وبسرعة مرتعشة . كانت كلافديا بتروفنا واقفة على كل شيء من قبـل ، ولـكنها كانت لا تعرف اسم السيدة .كان فلتشانينوف يخشى أن يلتقى أحد من معارفه يوما بالسيدة تروسوتسكى ، فيتساءل كيف أمكنه ، هو فلتشانينوف ، أن يحب هذه المرأة ذلك الحب ، فلم يجرؤ أن يكشف عن أسم « هذه المرأة » حتى لصديقته الوحيدة كلافديا بتروفنا .

فلما انتهى من حديثه سألته :

ـ والأب ، الا يعرف شيئا ؟

فأجابها بحرارة :

ـ يعرف ... والشيء الذى يعذبنى هو اننى لم أفهم بعد كل شيء . انه يعرف ، يعرف ، لاحظت ذلك أمس واليوم . ولـكن يجب أن أفهم ما الذى يعرفه على وجه الدقة . ومن اجل هـذا انما اتركم الآن بسرعة. سيجيء فى هذا المساء . على اننى لا افهم كيف أمكنه أن يعرف ، أن يعرف كل شيء . انه على علم بكل ما يتصل بباجاوتوف . لاشك فى هـــذا . أما انا ؟ لا أدرى ! انك تعرفين كيف تستطيع النساء ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يقتعن أزواجهن . لو هبط ملاك من السماء ، فلن يصدقه الزوج ، بل سيصدق زوجته . لا تهزى رأسك ... لا تدينينى ... لقـد حكمت على نفسى بنفسى ، وأدنت نفسى بنفسى ، منذ مدة طويلة ، طويلة جدا !.. اسمعى : لقد بلغت من قوة الاعتقاد بأنه يعرف كل شيء اننى اتهمت نفسى أمامه على وعى وعمد . صدقينى اذا قلت اننى أشعر بكثير من الخجل والعـار ، أشعر بأننى أرتكبت وزرا كبيرا ، حين استقبلته أمس ذلك الاستقبال الفظ الغليظ (سأقص عليك هذا فيما بعد، تفصيلا) ! لقد جاء الى أمس ، تدفعه رغبة شريرة خبيثة ، لا تقـاوم ، فى أن يفهمنى انه يعرف الاهانة التى لحقت به ، ويعرف اسم الشخص الذى الحقهـا به . ذلك هو السبب الوحيد لمجيئه الغبى ليلا ، نصف سكران . ولكن هذا شيء طبيعى منه ! لقد جاء الى ليبكنى ويشوشنى . فأدرت الأمر كله بحماسة مفرطة ، أمس واليوم . لقد كنت غبيا قليل التروى !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفضحت نفسي بنفسي . لماذا ظهر في لحظة كنت فيها شديد العصبية والنزق ؟ هل تعلمين انه كان يسوم ليزا سوء العذاب ؟ كان يريد أن يذلها . كان يريد أن يصب غضبه ولو على طفلة ! نعم ، انه الآن هائج . ومهما يكن تافها ، فانه ممتلىء خبثا وشرا. انه مهرج ، ما في ذلك شك ، مع انه كان يبدو في الماضي ، أقسم لك ، انسانا شريفا شريفا ، على قدر ما كان يستطيع ذلك. ولكن من الطبيعي أن يرتمي الآن في أحضان الرذيلة . يجب ، ياصديقتي العزيزة ، ان ننظر الى هـذه الامور كلها نظرة مسيحية . هل تعلمين ياعزيزتي ؟ انني أريد أن اغير موقفي منه تغييرا تاما : أريد أن أكون معه دمثا لطيفا ، وسيكون هـذا « عملا طيبا » مني ، فيما أعتقد . لانني ، مهما يكن من أمر ، قد أسأت اليه ، قد اجرمت في حقه . اسمعي . سأعترف لك بشيء آخر. ذات مرة ، في ت ... احتجت فجأة الى أربعة آلاف روبل : هل تعلمين انه اقرضني هذا المبلغ فورا ، دون أن أوقع له اية ورقة ، نعم ، ولقد اسعده كثيرا جـدا انه استطاع أن يخدمني ! نعم ، لقد اقترضت منه مالا ، قبلت المال من يديه ، هل تصـدقين ؟ لقد اقترضت منه مالا كما يقترض صديق من صديقه .

قالت كلافديا بتروفنا بشيء من القلق :

ــ ولـكن يجب عليك أن تتروى قليلا . انك الآن شـــديد الحماسة . واني لأخاف عليك حقا. صحيح أن ليزا هي الآن ابنتي. ولـكن لا تزال هناك اموركثيرة تحتاج الى توضيح ! عليك بالتروي خاصة ! يجب أن تتصرف بكثير من الحيطة والحذر ، حين تكون سعيدا أو متحمسا، كما انت الآن. انك مسرف في الـكرم (أضافت ذلك مبتسمة) .

خرج جميع من في البيت يشيع فلتشانينوف . وجاء الأولاد بليزا التي كانت تلعب معهم في الحديقة . كان يبدو انهم أصبحوا ينظرون اليها بمزيد من الحيرة والارتباك . فلما قبلها فلتشانينوف أمامهم جميعا ، وهو يودعها ويردد وعده حارا بان يأتي مع ابيها في الغد ، فقدت سيطرتها على نفسها . كانت حتى هـذه اللحظة تنظر اليه دون أن تنطق بكلمة. ولـكنها امسكت الآن بكمه فجأة ، وشدته بعيدا ، وهي تتوسل اليه بعينيها . كانت تريد ان تقول له شيئا . فسارت به الى الغرفة المجاورة .

سألها بصوت رقيق مقنع :

ـ ماذا هنالك ، يا ليزا ؟
فالقت حولها نظرات قلقة ، وجرت الى ركن بعيد . كان يبدو انها تريد أن تختفي عن جميع الناس .
ـ ماذا يا ليزا ؟ ماذا ؟
وظلت ليزا صامتة ، لم تعزم امرها على الكلام . كانت تحدق اليه بعينيها الزرقاوين ، وكان وجهها الصغير لا يعبر الا عن ذعر مجنون .
ثم تمتمت كأنها تهذي ، قائلة :
ـ سوف ... يشنق نفسه ...
ـ من سوف يشنق نفسه ؟
ـ هو ... هو ... لقد اراد أن يعقد حول عنقه حبلا هذه الليلة (قالت ذلك بصوت متعجل ، لاهث) . رايته بعيني . كان يريد أن يشنق نفسه . قال لي ذلك ! قال لي ذلك ! انه يريد أن يفعل ذلك ، دائما .... رايته في الليل ...
فتمتم فلتشانينوف يقول مضطربا :
ـ هذا لايمكن ...
وفجاة اخذت تقبل يديه . كانت تبكي ، وكان النشيج يخنقها خنقا . وكانت تتوسل اليه ، تتضرع اليه . ولكنه لم يستطع أن يفهم كلماتها المتقطعة . لقد تذكر دائما ، فيما بعد ، النظرة المذعورة في هذه الطفلة المعذبة . وكانت عيناها المجنونتان من الخوف ، المحدقتان فيه على امل عظيم ، تلاحقانه حتى في أحلامه .
كان يتساءل بينه وبين نفسه اثناء عودته الى المدينة ، وقد تملكته الغيرة ، واستبد به الحسد ، ونفد صبره ، وضاق ذرعا :
« هل يمكن ان تحبه كل هذا الحب ؟ لقد قالت هي نفسها منذ قليل انها تحب امها اكثر مما تحبه ... أفيكون هذا اذن بغضا لا حبا .
ثم ما قصة الانتحار هذه ؟ يشنق نفسه ؟ ما هذا الكلام ؟ أهذا الأبله يشنق نفسه ؟.. يجب توضيح كل هذه الأمور ، يجب توضيحها . يجب أن نجد حلا باقصى سرعة ... حلا حاسما » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزوج والعشيق يقبل أحدهما الآخر

كانت تضطرم فى نفسه رغبة عنيفة لا تقاوم ، فى «معرفة» الامر . قال فى نفسه وهو يتذكر لقاءه الأول مع ليزا : «كنت عندئذ قلقا ، لم يتسع وقتى لادراك الامر ، أما الآن فيجب أن أعرف كل شىء» . وأراد أن يستعجل الأمور فقرر ، وقد نفد صبره ، أن يذهب الى تروسوتسكى راسا ، ولكنه لم يلبث حتى عدل عن هذا الرأى ، قائلا فى نفسه : « بل الأفضل أن يجىء هو الى ، وبانتظار ذلك سأنهى تلك القضايا اللعينة الكريهة بأقصى سرعة » .

واندفع يعمل محموما ، ولكنه اضطر أن يعترف بأنه فى هذه المرة ذاهل مسرف فى الذهول ، وان من المستحيل عليه أن يعمل فى هذا اليوم . وفى الساعة الخامسة ، بينما كان ذاهبا الى المطعم ليتناول طعام الغداء ، تراءت له على حين غرة ، لأول مرة ، فكرة بدت له مضحكة : ترى اليس يعرقل مجرى الدعوى حقا [illegible] وكثرة حركته ، وتنقله بين المحاكم [illegible] ومطاردته المحامى الذى كان واضحا انه [illegible] ؟

أضحكته هذه الفكرة اضحاكا مرحا . وقال فى نفسه ، وقد ازداد سرورا : « لو راودتنى هذه الفكرة أمس ، لأحزنتنى حقا » . ولكنه رغم فرحه ومرحه ، كان يزداد ذهولا ونفاد صبر ، حتى لقد صار أخيرا الى حالة من التشتت . كان فكره القلق يحاول أن ينصب على أشياء مختلفة ، دون التركيز على ما كان يهمه .

قال لنفسه أخيرا : « اننى فى حاجة اليه ، اننى فى حاجة الى هذا الرجل . يجب أن أحل الفـازه ، وبعدئذ يكون ما يكون . انها لمبارزة حقيقية » .

فلما عاد الى البيت فى الساعة السابعة لم يجد بافل بافلوفتش ، فأدهشه ذلك فى أول الأمر ثم أغضبه ، ثم ولد فيه شعورا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مزعجا : لقد خاف - « لا يعلم الا الله كيف تنتهي هذه الأمور » .
ذلك ما كان يردده في نفسه ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا تارة ، ويستلقي على اريكته تارة اخرى ، دون أن يغيب بصره عن الساعة في الحالين . وكانت الساعة قد شارفت على التاسعة حين وصل بافل بافلوفتش أخيرا . قال فلتشانينوف لنفسه : « اذا كان هذا الرجل يمكر ، فلن يجد خيرا من هذه الوسيلة لاخراجي عن طوري . انني مشوش تماما » . ولكنه ما ان خطرت بباله هذه الفكرة حتى شعر فجاة براحة ومرح شديد .

فلما سأله بلهجة مرحة : « لماذا تأخرت كل هذا التأخير ؟ » ابتسم ابتسامة متصنعة ، وجلس بشيء من اليسر والسهولة ، على خلاف امس ، ثم رمى على احد الكراسي قبعته ذات الشريط الاسود ، رماها بحركة مهملة . لاحظ فلتشانينوف وضعه هذا فورا ، فاستعد .

تبدد الانفعال الذى كان يضطرم في نفسه منذ قليل ، فأخذ يحدثه بهدوء ، دون زيادة في الكلام ، عن سفرته مع ليزا ، فوصف له استقبالهم لها ، وأوضح له ان اقامتها هناك مفيدة لصحتها . وشيئا فشيئا صار لايتحدث الا عن اسرة بوجورلتسيف ، كأنما هو نسي ليزا : تكلم عن طيبة قلوبهم ، وعن روابط الصداقة القديمة التي كانت تجمعه بهم ، وعن المركز الخطير الذى يحتله بوجورلتسيف ، عن نفوذه ، عن بشاشته ولطفه ، وعن اشياء اخرى من هذا القبيل . كان بافل بافلوفتش يصغي اليه ذاهلا ، وكان يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة ماكرة مستخفة ، ويرميه بين الفنة والفينة بنظرات متخفية .

قال اخيرا وهو يبتسم ابتسامة خبيثة سيئة :

ـ انت رجل متحمس .

فقال فلتشانينوف مداعبا :

ـ وانت اليوم رجل لا يطاق .

فانفجر بافل بافلوفتش فجاة ، كأنما حركه نابض ، فقال :

ـ ولماذا لا أكون سيئا على غرار جميع الناس ؟

لكأنه كان لا ينتظر الا الفرصة ليثب .

فقال فلتشانينوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ لك ما تشاء . انما ظننت ان شيئا وقع لك .

فصاح بافل بافلوفتش كأنه يعتز :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ نعم ، وقع لى شيء .
ـ ما هو ؟
فتأخر بافل بافلوفتش عن الاجابة لحظة ، ثم قال :
ـ أيضا ... صاحبنا ستيفان ميخائيلوفتش ... باجاوتوف، هذا الرجل الأنيق من رجال بطرسبرج . هذا السيد المهذب من سادة المجتمع الراقى .
ـ مرة أخرى ... لم يستقبلوك ؟
ـ بل استقبلونى ... سمحوا لى بالدخول عليه لأول مرة . فاستطعت أن أنظر الى وجهه ، وأن أتأمل قسماته .. ولكن قسماته كانت قسمات ميت !..
ـ كيف ؟ مات باجاوتوف ؟
سأل فلتشانينوف هذا السؤال دهشا ، رغم انه ليس ثمة ما يحمل على الدهشة جملة .
ـ نعم، صديقنا القديم المخلص! لقد مات أمس فى الظهيرة ... لم أكن أعرف عن ذلك شيئا... ولعلنى فى تلك اللحظة انما ذهبت أسأل عنه . الدفن غدا . هو الآن فى التابوت المزدان بالمخمل الأحمر الموشى بضفائر الذهب ... مات بالحمى الحارة . نعم ، لقد سمحوا لى بأن أدخل عليه ، وأن أتأمل ملامحه . قلت لهم انه يعدنى صديقا حميما ، فقبلوا ان أدخل . ولكن قل لى : ما هذا « المقلب » الذى دبره لى هذا الصديق العزيز القديم ؟ لعلنى لم اقم بهذه الرحلة الى بطرسبرج الا لأراه ، فكيف مات قبل أن أراه؟
ـ ليس لك ان تغضب . انه لم يفعل ذلك عمدا .
ـ اقول هذا لأننى آسف حزين على الصديق الممتاز .. هل تعرف ماذا كان بالنسبة الى ؟
سأل بافل بافلوفتش هذا السؤال ، ثم رفع اصبعيه فجأة ، بحركة غير منتظرة ، فنصبهما على جبينه الأصلع ، كأنهما قرنان ، وضحك ضحكة صامتة طويلة . وظل على هذه الحال ، ضاحكا ، بقرنين مدة نصف دقيقة ، وهو يسدد الى فلتشانينوف نظرة صامدة فيها نوع من الوقاحة المظفرة . فتجمد فلتشانينوف ، كأنه أمام شبح . ولكن أساه هذا لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم طافت فى شفتيه ابتسامة ساخرة هادئة تشبه أن تكون وقحة . وسأله دون مبالاة ، وهو يجر الكلام جرا :
ـ ما معنى هذا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاجاب بافل بافلوفتش بخشونة ، وهو ينزل اخيرا اصبعيه :
ـ هذان قرنان ؟
ـ قرناك انت ؟
ـ نعم قرناي انا ، حصلت عليهما عن جدارة !
قال بافل بافلوفتش ذلك ، ثم ابتسم مرة أخرى ابتسامة خبيثة.
وصمت الرجلان .
قال فلتشانينوف :
ـ انك لشجاع .
ـ لماذا ؟ الأنني اظهرتك على هذين القرنين ؟ اسمع يا الكسى ايفانوفتش ، الافضل أن تقدم لي شيئا ما ... لقد استقبلتك واطعمتك في ت ... خلال سنة برمتها ، أطاب لنا زجاجة . لقد جف حلقي .
ـ بسرور ... كان ينبغي لك أن تقول هذا منذ مدة . ماذا تريد أن تشرب ؟
ـ بل قل ماذا نريد أن نشرب . سنشرب معا ، اليس كذلك ؟
قال بافل بافلوفتش هذا وهو ينظر اليه نظرة تحمل معنى التحدي، ولكنها تشتمل ايضا على قلق غريب .
ـ شمبانيا ؟
ـ وهل ثمة غيرها ؟ اننا لم نصل بعد الى الكحول .
فنهض فلتشانينوف بلا اسراع ، وقرع الجرس لمافرا ، والقى اليها ببعض الأوامر .
قال بافل بافلوفتش يحاول أن يمزح دون أن يظفر بذلك :
ـ سنشرب تكريما للقائنا السعيد بعد فراق تسع سنين . انت الآن ، انت وحدك صديقي الحقيقي . لقد مات ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف . وكما يقول الشاعر :

تعم قد مات « باتروكل » العظيم
ولكن عاش « ترسيت » اللئيم

ذكر اسم « ترسيت » وهو يشير باصبعه الى نفسه .
قال فلتشانينوف يخاطبه بينه وبين نفسه : «هيا ، أيها الحيوان، هيا اكشف عما في نفسك . انني لا أحب التاميح » كان الغضب يغلى فيه ، حتى لقد اصبح منذ مدة لايستطيع كظم غيظه . قال :
ـ ولكن قل لي ، اذا كنت تتهم ستيفان ميخائيلوفتش هذا الاتهام (اصبح لا يسميه الآن باجاوتوف ، بلا كلفة) ، فلا بد أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسعدك ان من الحق بك الاهانة قد مات. فما الذى يسوؤك اذن ؟
ـ لماذا لابد ان يسعدنى موته ؟ اى سعادة هذه ؟
ـ اننى أقضى فى الأمر وفقا لعواطفك .
ـ هأ هأ ... انك اذن مخطىء فى معرفة عواطفى . قال احد الحكماء : «موت عدوك نعمة ، وبقاؤه على قيد الحياة نعمة أكبر». هأ هأ هأ ...
ـ ولكنك رايته حيا خلال خمس سنين ، رايته كل يوم ، فيما اظن ، فأتيح لك أن تتأمله مليا .
قال فلتشانينوف ذلك بخبث ووقاحة .
فانفجر بافل بافلوفتش فجأة ، كأنما حركه نابض مرة أخرى ، فقال بشىء من الفرح ، كأن السؤال الذى كان ينتظره مدة طويلة قد طرح عليه أخيرا :
ـ ولكن هل كنت أيامئذ أعرف الأمر ؟ من تظننى اذن يا الكسى ايفانوفتش ؟
والتمع فى نظره تعبير جديد ، غير متوقع ، وتبدل وجهه الذى كانت تعقفه الى ذلك الحين كشرة سيئة خبيثة ، تبدل تبدلا تاما.
فقال فلتشانينوف متحيرا وقد بلغ غاية الانشداه :
ـ كيف ؟ هل يعقل انك كنت لا تعرف شيئا ؟
ـ أعرف شيئا ؟ أعرف هذا الأمر ؟ آه منكم أنتم يا سلالة جوبيتر ! الانسان فى نظركم كلب لا أكثر . انكم تنظرون الى جميع الناس بمنظار طبيعتكم الصغيرة المسكينة ! هذا أنتم ...
قال بافل بافلوفتش ذلك ، وضرب المائدة حانقا . ولكن حركته هذه ما لبثت ان اخافته ، فاذا هو يلقى نظرة وجلة .
وانتصب فلتشانينوف :
ـ اسمع يا بافل بافلوفتش ، سيان عندى أن تكون واقفا على الأمر عندئذ أو غير واقف . وعلى كل حال ، فانه لشرف لك الا تكون عالما بالأمر ، رغم ان ... ولكننى لا أفهم لماذا اخترتنى أنا نجيا تفضى اليه بأسرارك .
تمتم بافل بافلوفتش ، وهو مطرق الى الأرض :
ـ ما قصدتك أنت ... لا تغضب ... ما قصدتك أنت .
ودخلت مافرا تحمل الشمبانيا .
فهتف بافل بافلوفتش يقول وقد أسعده هذا التحول عن الموضوع :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ هذه هي الشمبانيا ! هات كئوسا ، ياعمة ، هات كئوسا . عظيم . لسنا في حاجة الى شيء آخر ، ياعزيزتي . ها ، والزجاجة مفتوحة أيضا ! عظيم ، عظيم ، انت انسانة رائعة . والآن امضى الى سبيلك !..

فلما استرد رباطة جاشه ، عاد فنظر الى فلتشانينوف نظرة وقحة . ثم قال فجاة بلهجة متضاحكة :

ـ ولكن عليك أن تعترف بأن هذا كله يهمك كثيرا ، وبأنك لست تقف منه موقف من لا « يباليه » ولا يحفل به ، كما تفضلت فزعمت . وانا على يقين انك ستستاء اذا انا قمت في هذه اللحظة ومضيت دون أن أشرح لك شيئا .

ـ حقا ، لن استاء ابدا .

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تقول : « انت تكذب ! » .

ـ فلنبدأ .

قال ذلك ، وملأ القدحين خمرا ، ثم رفع كأسه وقال :

ـ فلنشرب ، فلنشرب نخب ذلك الصديق المسكين ستيفان ميخائيلوفتش الذى توفاه الله الى رحمته .

وشرب .

فقال فلتشانينوف وهو يرجع كأسه الى المائدة :

ـ لا اقبل نخبا كهذا . لن أشرب .

ـ لماذا ؟ انه لنخب لطيف .

ـ قل لى ، ألم تكن سكرانا حين دخلت الى هنا ؟

ـ كنت قد شربت قليلا في الواقع . ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

ـ لا لشيء . ولكن خيل الى امس ، وهذا الصباح خاصة ، انك كنت حزينا حزنا صادقا على المرحومة ناتاليا فاسيليفنا .

ـ ومن قال لك اننى لست حزينا عليها الآن ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك فانتصب فلتشانينوف فجاة ، كما في المرة السابقة :

ـ لا أعنى هذا . ولكن يجب أن نسلم بأن من الممكن أن تكون مخطئا في حق ستيفان ميخائيلوفتش ، وهذا أمر خطير كل الخطورة .

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة ماكرة ، وطرفت عينه .

ـ ها ... انك تريد أن تعرف كيف استطعت أن أقف على الحقيقة فيما يتصل بستيفان ميخائيلوفتش !

فاحمر وجه فلتشانينوف ، وقال :

ـ اكرر ان هذا الأمر لا يعنيني .
ثم تســـــاءل بينه وبين نفسه حانقا : « ماذا لو طردته هو وزجاجته ؟» وازداد وجهه احمرارا .
قال بافل بافلوفتش ، كأنه يريد أن يشجعه :
ـ لابأس ، لابأس .
ثم صب قدحا آخر ، واردف يقول :
ـ سأذكر لك كيف علمت بكل شيء ، فأرضي بذلك اعنف ما في نفسك من رغبات حارة ... ذلك انك رجل عنيف حار، يا الكسي ايفانوفتش ، عنيف حار الى أقصى حـدود العنف والحرارة ... ها ها .. ولـكن اعطني سيجاره ، لانني منذ شهر آذار ...
ـ هذه سيجارة .
ـ لقد انحدرت الى الفجور والانحلال منذ شهر آذار يا الكسي ايفانوفتش . واليك كيف حدث ذلك . اصغ الى قليلا. ان السل، كما تعلم ، ايها الصديق العزيز جدا (اخذ بافل بافلوفتش يرفع الكلفة شيئا فشيئا) مرض عجيب . انه ليتفق كثيرا للمسلول أن يموت دون أن يدور في خلده ، دون أن يخطر بباله انه لن يكون غدا على قيد الحياة . قلت لك ان ناتاليا كانت تستعد ، قبـل موتها بخمس ساعات ، لزيارة عمتها بعد اسبوعين ، في بلدة تبعـد عنا اربعين كيلومترا . ولعلك تعرف من جهة أخرى، تلك العادة او ذلك الهوى لدى كثير من السيدات والسادة ، اعنى ذلك الحرص على الاحتفاظ بجميع الأشياء القديمة المتصـلة بالمراسـلات الغرامية . الأسلم من ذلك طبعا أن يرمى المرء هذه الأشياء في النار ، الست على حق ؟ ولـكنهم لايفعلون هذا ، بل يحتفظون بكل خرقة ورق في علبهم ، في صناديقهم ، ويعنون بذلك اشد العناية ، حتى لقد يرقمونها على حسب السنة ، والتاريخ ، ويصنفونها . قد يجدون في ذلك شيئا من العزاء والسلوى ، لا ادرى . ولـكنني اظن انهم يفعلون ذلك لتجديد ذكريات ممتعة سعيدة . على كل حال ، حين كانت ناتاليا فاسيليفنا ، قبل موتها بخمس ساعات، تستعد للسفر قريبا الى عمتها ، لم يكن يخطر لها على بال أن نهايتها قريبة ، وذلك حتى آخر لحظة ، بل كانت لا تزال تنتظر عودة الدكتـور كوخ . حدث اذن أن ماتت ناتاليا فاسيليفنا ، فبقي صنـدوقها الصغير المصنوع من خشب أسود ، والمرصع بالفضة والصدف ، بقى في مكتبها . انه صندوق صغير جميل يقفل بمفتاح ، تملكه اسرتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ مدة طويلة ، وقد انحدر اليها من جدتها . نعم ، الى هـذا الصنـدوق يرجع الفضـل فى اكتشاف كل شىء ، كل شىء ، دون استثناء ، يوما يوما ، سنة سنة ، منذ عشرين عاما ، وبما أن ستيفان ميخائيلوفتش كان يهوى الأدب ، حتى انه أرسل الى احدى المجلات ذات يوم قصة مؤثرة جدا ، فقد كان الصندوق يضم مائة رسالة من انتاجه ، فى أقل تقدير ... انتاج خمس سنين . وكان ثمة رسائل عليها تعليقات ناتاليا فاسيليفنا . هل هذا شىء يسر الزوج ؟ ما رأيك ؟

استجمع فلتشـانينوف ذكرياته بسرعة ، فتذكر انه لم يكتب الى ناتاليا فاسيليفنا فى حياته رسالة ، حتى ولا بطاقة . صحيح انه ارسل رسالتين من بطرسبرج ، ولـكنه أرسلهما الى الزوج ، كما اتفق على ذلك . وهو لم يرد على الرسالة الأخيرة التى بعثت بها اليه تصرفه عنها الى الأبد .

لما ختم بافل بافلوفتش قصته ، سكت خلال دقيقة كاملة ، وهو يبتسم ابتسامة ملحاحة ، وكان كأنه ينتظر جوابا . فلما لم يجب فلتشـانينوف سأله بألم ظاهر :

ــ لماذا لم تجبنى عن سؤالى الصغير ؟

ــ اى سؤال ؟

ــ سؤالى عن المشاعر التى يحسها الزوج حين يكتشف صندوقا من هذا النوع .

ــ هوه ... ما لى ولهذا ؟

قال فلتشـانينوف ذلك ، وهو يحرك يده متبرما ، ثم نهض واخذ يمشى فى الغرفة ذهابا وايابا .

ــ أراهن على انك تقول لنفسك الآن : « ما هذا الخنزير الذى يقص على ما لطخ شرفه من عار ؟ » ها ها ها ... انك تظهـر الاشمئزاز ، انت ...

ــ لا يخطر ببالى شىء من هذا . بالعكس ، لقد احنقـك موت الرجل الذى أساء اليك ، ثم انك قد شربت فاسرفت . لست أرى فى هذا كله شيئا عجبا ، واننى لافهم حق الفهم ما كنت تشعر به من حاجة الى أن يكون باجاوتوف على قيد الحياة . اننى احترم حنقك ، ولـكن ...

ــ ولماذا كنت فى حاجة الى باجاوتوف ، فى رأيك ؟

ــ هذا شأنك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ أراهن انك فكرت في مبارزة ؟

هنا صرخ فلتشانينوف وقد ضاق ذرعا ، واصبح أعجز عن كبح جماح نفسه :

ــ ما هذا السخف ! كنت اظن ان كل انسان شريف ، لايسمح لنفسه ، في مثل هذه الحالات ، بثرثرات مضحكة ، وتكشيرات غبية ، وتلميحات سيئة تزيده اتساخا ، وانما يتصرف تصرفا صريحا ، واضحا ، كما يليق ذلك برجل شريف !

ــ ها ها ها ... ولكن قد لا أكون رجلا شريفا !

ــ اعود فاقول : هذا شأنك . ولكن ما عسى ان تكون اذن حاجتك الى رؤية باجاوتوف ؟

ــ لم أقصد الى رؤية هذا الصديق العزيز ، الا للاعجاب به . كان يمكن أن نفتح زجاجة فنستمتع بشربها معا !

ــ لم يكن ليقبل أن يشرب معك !

ــ لماذا ؟ الا تقضيه النبالة ؟ (١) . الم تشرب معي انت ؟ أهو خير منك ؟

ــ لم اشرب

ــ من أين جاء هذا الصلف المباغت ؟

أخذ فلتشانينوف يضحك ضحكا عصبيا ، ثم قال :

ــ تبا لك . انك حقا « انسان ضار » . كنت أحسب انك لست الا « زوجا أبديا » ، لا أكثر من ذلك .

قال بافل بافلوفتش وهو يصيخ بسمعه :

ــ ماذا تعني بقولك « زوج أبدى » ؟ من هو « الزوج الأبدى » ؟

ــ نموذج من نماذج الأزواج . هذا أمر يطول شرحه . دعنا من هذه الأمور ، فذلك خير . ثم لقد آن الأوان ، انني سئمت منك .

ــ وماذا تعني بقولك « ضار » ؟

ــ قلت انك « انسان ضار » على سبيل المزاح والدعابة .

ــ من هذا « الانسان الضارى » ؟ اشرح لى ذلك يا الكسى ايفانوفتش ، أرجوك ، ناشدتك الله ، بل ناشدتك يسوع المسيح !

ــ يكفى هذا ! آن لك أن تذهب . هيا اذهب .

قال فلتشانينوف ذلك بلهجة جازمة غاضبة .

فصاح بافل بافلوفتش ، وهو يثب :

ــ ... هذا لايكفى . هبنى اضايقك ، فانني لم أكتف بعد .

(١) بالفرنسية في الاصل .

ان علينا أولا أن نشرب معا وأن ندق الأقداح . فلنشرب ، ومن ثم أذهب . اما الآن فهذا لا يكفيني .

ـ بافل بافلوفتش ، ستذهب ، ستذهب الى الشيطان ؟

ـ يمكن أن أذهب الى الشيطان ، ولكن يجب أولا أن نشرب. لقد قلت لي صراحة انك لا تريد أن تشرب معي ، ولكنني أنا أريد أن تشرب معي .

أصبح لا يجعد وجهه ، ولا يسخر . ان شيئا فيه قد تبدل فجأة . تغير وجهه ، وتغيرت لهجته ، تغيرا كبيرا انشده له فلتشانينوف.

ـ نعم ، يا الكسي ايفانوفتش ، يجب أن نشرب .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يمسك بيد صاحبه ، وينظر الى وجهه نظرة غريبة . كان واضحا ان الشيء الذي يهمه ليس هو هذا القدح من الخمر ...

فتمتم فلتشانينوف متلجلجا يقول :

ـ نعم ... ممكن ... طيب ... سأشرب ... ولكن ليس هذا بالخمر ...

ـ لم يبق الا كأسان ، صحيح أنه ليس بالخمر الجيد ... ولكننا سنشرب وسندق الأقداح . خذ ، هذا كأسك !

دقا قدحيهما احدهما بالآخر ، وشربا .

ـ نعم ، هكذا اذن ، هكذا اذن . آه !

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ووضع يده على جبينه ، وظل على هذه الحال بضع لحظات . تراءى لفلتشانينوف أنه يهم أن يقول شيئا حاسما . ولكن بافلوفتش لم يقل شيئا ، بل نظر اليه ، وابتسم ابتسامة عريضة صامتة ، هي الابتسامة الماكرة الفائضة بالكنايات التي طافت في وجهه قبل ذلك. فثارت ثائرة فلتشانينوف ، وضرب الأرض بقدمه ، وصرخ :

ـ ماذا تريد مني أيها السكير اللعين ؟ أتهزأ بي ؟ أتضحك علي؟

فأسرع الآخر يهدئه بحركة من يده قائلا :

ـ لا تصرخ ، لا تصرخ ! فيم الصراخ ؟ انني لا أهزأ بك ، ولا اضحك عليك . لا . هل تعلم ماذا انت الآن بالنسبة الي ؟

قال ذلك ، ثم تناول يده فجأة ، وقبلها . فجمد فلتشانينوف من الدهشة .

ـ هذا انت بالنسبة الي الآن ! والآن اذهب ، لا اذهب الى الشيطان ! بل الى جميع الشياطين !

هتف فلتشانينوف ، وقد فاء الى نفسه :
ـ انتظر ، انتظر . نسيت أن أقول لك ...
فالتفت بافل بافلوفتش ، وكان قد وصل الى الباب .
دمدم فلتشانينوف يقول بسرعة ، وقد احمر وجهه :
ـ يجب أن تذهب في غد حتما الى أسرة بوجورلتسيف ... تتعرف اليهم ، وتشكرهم . يجب أن تذهب اليهم حتما ...
ـ نعم ، حتما . أفهم ذلك حق الفهم .
قال بافل بافلوفتش هذا بسرعة كبيرة ، وهو يحرك يده حركة موجزة معناها ان ذلك أمر مفروغ منه ، ولا داعى الى تذكيره به.
ـ زد على ذلك ان ليزا تنتظرك بصبر فارغ ، لقد وعدت ..
فعاد بافل بافلوفتش أدراجه وقال :
ـ ليزا .
ثم هتف فجاة وكانه خرج عن طوره :
ـ هل تعرف ماذا كانت ليزا بالنسبة الى ؟ وماذا هى الآن بالنسبة الى ؟ نعم ، ماذا كانت وماذا هى الآن ؟ ولكن ... هه هه ... سأحدثك عن هذا فيما بعد . كل هذا سأحدثك عنه فيما بعد . والآن ، يا الكسي ايفانوفتش ، ليس يكفينى اننا شربنا معا ، وانما أريد أيضا لذة أخرى .
ثم صاح بافل بافلوفتش مرة أخرى ، باندفاعة سكرى ، وعينين متقدتين :
ـ نعم، الآن، الآن... اليك ماأريد أنأقوله لك . لقد تساءلت منذ برهة بينى وبين نفسى : « كيف ؟ هو أيضا !.. اذا كان هو أيضا ، فمن يجب اذن أن أصدق ؟.. » .
قال بافل بافلوفتش ذلك ، واخذ يبكى .
ـ هل فهمت الآن أى صديق أنت بالنسبة الى ؟
قال ذلك ثم هرب ، وقبعته بيده .
ظل فلتشانينوف ساكنا بضع لحظات ، فى وسط الغرفة ، كما حدث عند الزيارة الأولى .
« انما هو مهرج سكران ، لا أكثر ! » .
قال فلتشانينوف هذا ، وحرك يده حركة احتقار .
وحين خلع ملابسه واستلقى على سريره ، ردد يقول مرة أخرى :
« نعم ، ليس أكثر من ذلك » .

- ٨ -

ليزا مريضة

فى صباح الغد كان فلتشانينوف يسير فى غرفته جيئة وذهابا ، ويحتسى قهوته جرعات صغيرة ، ويدخن ، بانتظار وصول بافل بافلوفتش الذى وعد أن يأتى فى الموعد المضروب للذهاب الى أسرة بوجورلتسيف . كان فلتشانينوف يحس اثناء ذلك احساسا واضحا بأنه أشبه بانسان يستيقظ فى الصباح فيتذكر انه قد صفع فى الليلة البارحة .

قال لنفسه مذعورا : « انه يفهم الوضع تماما ، وسينتقم منى متوسلا بليزا » .

وانبثقت فى ذهنه الصورة الناعمة الحزينة ، صورة الطفلة البائسة . فلما تصور انه سيرى قريبا ، بعد ساعتين ، عزيزته ليزا اخذ قلبه يخفق خفقانا سريعا . قال فى نفسه متحمسا : « لاجدال فى هذا ... انها حياتى وهدف وجودى . ما قيمة تلك الصفحات ، ما قيمة تلك الذكريات ؟ فيم انفقت حياتى الى الآن ؟ لم تكن حياتى حتى اليوم الا فوضى وحزنا .. أما الآن فستجرى الأمور مجرى آخر ، مجرى مختلفا عن هذا المجرى كل الاختلاف ! » .

ولكنه ، رغم حماسته هذه ، كان يزداد هما .

«سيعذبنى ، متوسلا بليزا . ذلك واضح . وسيعذب ليزا أيضا . بهذا سينتقم لنفسه من كل شىء !.. لا استطيع طبعا أن أسمح له بعد الآن بتكرار ما فعله أمس ... » .

قال فلتشانينوف ذلك لنفسه ، وأحمر وجهه .

« انه ، مع ذلك ، لم يأت حتى الآن ، وقد شارفنا على الظهر» .

انتظر مدة طويلة ، حتى الثانية عشرة والنصف ، وكان قلقه يشتد . ثم راودته مرة اخرى تلك الفكرة التى ساورته منذ برهة ، وهى ان صاحبه سيتعمد الا يجىء ، لايستئناف خطته التى استعملها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امس ، فخرج عن طوره : « انه يعرف اننى رهن به . ما الذى سيحدث الآن لليزا ؟ وكيف اقابلها دون أن يكون معى ؟ » .

واخيرا ، لم يستطع ان يحتمل اكثر مما احتمل ، فاسرع الى بوكروف . فقيل له فى الفندق ان بافل بافلوفتش لم يقض ليلته فى بيته ، وانه لم يرجع الا فى الصباح ، وانه عاد فخرج بعد ربع ساعة . كان فلتشانينوف واقفا قرب الباب يستمع الى شروح الخادمة ، ويدير قبضة الباب آليا يحاول فتحه . فلما ثاب الى نفسه ، ابتعد عن الباب ، وطلب أن يقاد الى ماريا سيسويفنا . ولـكن ماريا سيسويفنا جاءت من تلقاء نفسها حين علمت بوجوده . انها امراة طيبة ممتازة ، ذات « عواطف نبيلة » ، على حد تعبير فلتشانينوف فى وصفها حين نقل حديثها الى كلافديا بتروفنا بعد ذلك .

سالته ماريا سيسويفنا عن اقامة « الصغيرة » أولا ، ثم اخذت تقص عليه ما تعرفه عن بافل بافلوفتش . قالت : « لولا وجود هذه الطفلة لطردته من البيت منذ مدة طويلة . وقد سبق ان طرد من الفندق بسبب فضائحه . أليس عارا أن ياتى ببغايا الى بيته فى الليل ، فى حين أن هناك طفلة تفهم كل شىء ؟ كان يقول لها صارخا : ستكون هذه أمك اذا شئت أنا ذلك . نعم . وصدقنى اذا شئت : انها طفلة ، ولـكنها بصقت فى وجهه . فصرخ : « لست ابنتى ، انت بنت زنا » .

صاح فلتشانينوف مذعورا :

ــ ماذا تقولين ؟

ــ سمعته يقول لها ذلك باذنى . صحيح انه كان ثملا ، خارجا عن طوره ؛ ولكن أمورا كهذه لايمكن أن تقال امام طفلة . انها لا تزال صغيرة ، ولـكن عقلها يعمل ، وهى تفهم . انها تبكى . انها تتالم . ومنذ بضعة ايام وقعت فى فناء البيت مصيبة : كان مفوض فى الشرطة قد استاجر غرفة فى المساء ، فاذا هو يشنق نفسه فى الصباح . يقال أنه كان قد سرق الخزينة . وأسرع جميع الناس ، ولم يكن بافل بافلوفتش فى البيت ، وما كان أحد يراقب الطفلة . فماذا رايت ؟ رايت الطفلة واقفة فى الدهليز مع جمهور الناس ، وهى تنظر الى المشنوق نظرة غريبة . فأمسكت يدها ، وارجعتها . فهل تعرف ما الذى وقع لها ؟ اخذت ترتعش ، واسود وجهها ، فما أن وصلت بها الى غرفتها حتى سقطت على الارض ، واخذت

لتشنج . ولم أستطع أن اعيدها الى وعيها الا بعد عناء كبير . ومنذ ذلك الحين أصبحت مريضة دائما . ولما عاد ، هو ، وعلم بالأمر ، اخذ يقرصها فى كل جزء من اجزاء جسمها ، ذلك انه لايضربها فى العادة ، بل يقرصها قرصا . ثم سكر ، واخذ يخيفها ، قال لها : « ساشنق نفسي أنا أيضا ، بسببك انت ، هذا هو الحبل الذى ساشنق نفسي به ، حبل الستارة » . واخذ يعقد الحبل أمامها . اصبحت الطفـــلة كالمجنونة ، فكانت تصرخ ، وتحيطه بذراعيها الصغيرتين ، قائلة : « لن افعل ذلك بعد الآن ، لن افعل ذلك بعد الآن ! » . كانت رؤيتها تثير الشفقة والرحمة !

كان فلتشانينوف يتوقع كل شيء ، ومع ذلك فقد بلغ من شدة الدهشة عندسماع هذه القصص انه لم يشأ أن يصدقها . واستمرت ماريا سيسويفنا تتحدث . قالت : وفى ذات مرة أوشكت الطفلة أن ترمى بنفسها من النافذة ، لولا اننى كنت هناك .

خرج فلتشـــانينوف من الفندق ، يتمايل كأنه سكران ، ويردد قائلا : « ساقتله كما يقتل كلب ، ساقتله ضربا بالعصا على راسه ».

وركب عربة ، وامر السائق ان يذهب الى أسرة بوجورلتسيف . كانت العربة لاتزال فى المدينة ، حين اضطرت الى الوقوف عند احد المنعطفات ، قرب الجسر ، على القناة ، بسبب جنازة تمر . كان قد توقف الناس وتوقفت العربات ، على جانبى الجسر . انه لمأتم غنى كل الغنى . ان العربات طابور طويل . وفجأة ، لمح فلتشانينوف فى باب احدى العربات ، وجه بافل بافلوفتش . وما كان له أن يصدق عينيه لولا أن بافل بافلوفتش الذى أخرج راسه من باب العربة ، قدحياه مبتسما ، وكأنما أسعده كثيرا أن يلقى فلتشانينوف ، حتى لقد حرك له يده باشارة صداقة ومودة . فقفز فلتشانينوف من عربته ، واستطاع رغم الازدحام ورغم الشرطة ، ورغم ان عربة بافل بافلوفتش كانت قد دخلت الجسر ، استطاع أن يتسلل حتى وصل الى باب العربة . كان بافل بافلوفتش وحده .

هتف يسأله :

ــ ما الذى وقع لك ؟ لماذا لم تجيء ؟ ما وجودك هنا ؟

ــ اقوم بآخر واجباتى ! لا تصرخ ! لا تصرخ ! اننى اقوم بآخر واجباتى ! ارافق صديقى الرائع ستيفان ميخائيلوفتش الى مقره الأخير !

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يضحك ضحكة خبيثة ، ويغمز بعينه .

فصرخ فلتشانينوف بصوت أعلى ، بعد أن بهت لحظة :

ـ هذا مستحيل ... كل هذا ... ايها السكير ، ايها المجنون! انزل حالا ، تعال معى ، حالا .

ـ لا اريد ... ان الواجب ...

فزار فلتشانينوف يقول :

ـ ان لم تنزل ، شددتك بالقوة ...

ـ وأنا سأستدعى ، سأستدعى ...

كان بافل بافلوفتش يقول هذا الكلام ، وهو يزداد اغراقا فى الضحك ، كأن الأمر مزاح ، ولكنه كان مع ذلك يزداد اندساسا فى ركن العربة .

ـ انتبه ! ستدهس ...

بهذا صاح الشرطى .

وفعلا ، مرت فى تلك اللحظة عربة ليست من الموكب ، فاخترقت الموكب ، واحدثت فى الجمهور بعض الفوضى والاضطراب. فاضطر فلتشانينوف أن يتنحى ، فجاءت عربات أخرى فابعدته أكثر من ذلك ، فبصق من شدة الغيظ وعاد الى عربته .

ثم قال لنفسه قلقا مبهوتا : « على كل حال ، ما كان لى ان آخذه معى ، وهو على هذه الحال » .

وحين نقل الى كلافديا بتروفنا ما قصته عليه ماريا سيسويفنا ، وحين أخبرها بلقائه لبافل بافلوفتش ، اطرقت تفكر ، ثم قالت له : « اننى خائفة عليك . يجب أن تقطع كل صلاتك به ، والسرعة فى هذا أولى » .

فهتف فلتشانينوف يقول بحماسة :

ـ ما هو الا مهرج سكير... لا أكثر من ذلك . أأنا أخاف منه؟ وكيف استطيع أن أقطع كل صلة به ، وهناك ليزا ؟ تذكرى ليزا !

كانت ليزا مريضة ، فى سريرها . لقد انتابتها فى مساء أمس حمى ، وهم ينتظرون الآن طبيبا مشهوراً ارسلوا يستدعونه من المدينة فى ساعة مبكرة من الصباح.اضطرب فلتشانينوف اضطرابا كبيرا . وذهبت به كلافديا بتروفنا الى المريضة . قالت وهى تقف أمام غرفة ليزا :

ـ لقد راقبتها أمس باهتمام . انها طفلة مغلقة على نفسها ذات

كبرياء . انها تشعر بالخجل من وجودها عندنا ، ومن هجر أبيها لها . وهذا هو سبب مرضها فيما يخيل الى .
ــ لماذا تظنين ان اباها « هجرها » ؟
ــ يكفى انه تركها تذهب الى أناس لا يعرفهم ، ومع شخص لا يكاد يعرفه أيضا ، أو كانت بينه وبينه صلات ...
ــ ولكننى اتيت بها الى هنا بالقوة ... لست أرى آن ...
ــ هوه ... ان ليزا ، الطفلة ، ترى ذلك . لن يأتى أبدا ... هذا هو الأمر ببساطة .

وحين رات ليزا أن فلتشانينوف جاء وحده ، لم يدهشها ذلك. بل ابتسمت ابتسامة حزينة ، وحولت وجهها المحترق من الحمى الى ناحية الجدار. ولم تجب بشيء على ما اخذ يقوله لها مواسيا ، ولا على الوعود التى راح يبذلها قائلا انه سيأتيها بأبيها فى غد . فلما خرج من الغرفة اخذ يبكى على حين فجاة .

ولم يصل الطبيب الا فى المساء . فلما فحص المريضة ، ارعبهم جميعا بالكلمات الأولى التى نطق بها ، اذ لامهم على انهم لم يستدعوه قبل ذلك . حتى اذا قالوا له ان المرض لم يبدأ الا مساء أمس لم يشأ أن يصدقهم فى اول الأمر ، وقال اخيرا : « كل شيء رهن بهذه الليلة كيف تقضيها » . وبعد أن اصدر اليهم وصاياه ، ذهب واعدا أن يرجع فى غد ابكر ما يمكن . اراد فلتشانينوف أن يقضى هذه الليلة فى منزل بوجورلتسيف ، غير ان كلافديا بتروفنا نفسها اصرت عليه ان يحاول مرة اخرى أن « يجيء بذلك الشيطان » .

قال فلتشانينوف وقد ثارت ثائرته :
ــ مرة اخرى؟ لسوف اربطه بالحبال واجيء به الى هنا رغم انفه!

واستبدت به هذه الفكرة ، ان يوثق بافل بافلوفتش وأن يجره بالقوة ، فاصبح فى شوق شديد الى تنفيذها . قال وهو يودع كلافديا بتروفنا : « اصبحت لا اشعر باننى آثم فى حقه». واضاف يقول حانقا : « اننى اسحب جميع الكلمات العاطفية الخائرة التى قلتها هنا » .

كانت ليزا راقدة مغمضة العينين ، وكان يبدو أنها نائمة ، وان صحتها تحسنت. فلما انحنى عليها فلتشانينوف محاذرا ، كى يقبل طرف ثوبها على الاقل ، فتحت عينيها فجاة ، كانما كانت تنتظره ، وهمست تقول له : « خذنى معك » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت كلمتها هذه رجاء رقيقا حزينا ، ليس فيه شيء من هياج الليلة البارحة . ولكنها كانت تعرف هي نفسها ان رجاءها هذا لن يلبى ، فما ان اخذ فلتشانينوف يقنعها بأن هذا مستحيل (وقد بلغ به الحزن غايته) حتى اغمضت عينيها بصمت ، دون أن تنبس بكلمة ، كأنها اصبحت لا تسمعه ولا تراه .

فلما وصل الى المدينة امر السائق أن يأخذه راسا الى بوكروف . وكانت الساعة التاسعة . فلم يجد بافل بافلوفتش فى بيته ، فانتظره نصف ساعة يذهب ويجيء فى الدهليز نافد الصبر متألما . فأقنعته ماريا سيسويفنا أخيرا بأن بافل بافلوفتش لن يعود حتما الا فى الفجر ، فقال فلتشانينوف لنفسه : « اذن أرجع فى الفجر » . وعاد الى البيت ، خارجا عن طوره .

وماكان اشد أنشداهه حين أخبرته مافرا ، وهو يصعد السلم ، ان الضيف الذى جاءه امس ينتظره منذ الساعة العاشرة . وأضافت مافرا قولها :

ـ قدمت له الشاى ، وارسلنى اشترى خمرا ، كما فعل أمس : أعطانى خمسة روبلات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ٩ ـ

الشبح

كان بافل بافلوفتش جالسا جلسة مريحة على الكرسي نفسه الذي جلس عليه امس ، كان يدخن السجائر ، وقد صب القدح الرابع والاخير من الشمبانيا . وكان الى جانبه على المائدة ابريق الشاى وقدح من الشـاى فرغ نصفه . وكان وجهه المحمر يشع رضا وراحة . حتى لقد خلع سترته وبقى بالصدرة .

فلما راى فلتشانينوف اسرع يلبس سترته ، وهتف يقول :

ـ عفوك ايها الصديق الوفى .

فاقترب فلتشانينوف منه بوجه مخيف وساله :

ـ الم تسكر بعد سكرا تاما ؟ هل يمكن التحدث معك ؟

ففقد بافل بافلوفتش هدوءه قليلا ، وقال :

ـ لا ، لم اسكر سكرا تاما ... لقد شربت احتفالا بذكرى المرحوم ... ولـكننى لم ابلغ من السكر غايته .

ـ هل تفهمنى اذا كلمتك ؟

ـ ما جئت الى هنا الا لهذا ، لافهمك .

فقال فلتشانينوف بصوت يختنق :

ـ اذن ابدأ بأن أقول لك انك انسان شقى .

فقال بافل بافلوفتش محتجا وقد ظهر عليه الرعب :

ـ اذا بدات بهذا ، فبماذا تنتهى ؟

ولـكن فلتشانينوف ظل يصرخ دون أن يصغى اليه :

ـ ابنتك تحتضر . انها مريضة . هل تتركها ؟

ـ هل يمكن ان تكون فى حالة احتضار ؟

ـ انها مريضة ، مريضة جدا ، انها من مرضها فى خطر .

ـ ربما كانت هذه نوبات صغيرة بسيطة ...

ـ دعك من هذه السخافات . انها فى خطر . يجب ان تذهب

اليها ، ولو من اجل أن ....

ــ أن أشكرهم على حسن استقبالهم لها . انني أفهم حق الفهم ، يا الكسي ايفانوفتش ، أيها الصديق ، الكامل .

قال ذلك وامسك فجأة يد فلتشانينوف بيديه ، ثم هتف يقول بلهجة عاطفية ، متباكية ، كأنه يتوسل اليه أن يعفو عنه :

ــ الكسي ايفانوفتش ، لا تصرخ ، لا تصرخ . اذا مت الآن ، اذا غبت فى نهر نيفا ، ثملا ... فما عسى أن يكون لهذا من قيمة فى الظروف الراهنة ؟ أما ذلك السيد بوجورلتسيف ، فسيتسع وقتنا دائما للذهاب اليه ...

ثاب فلتشانينوف الى نفسه ، وكظم غيظه قليلا ، وقال :

ــ انت الآن سكران ، ولست أفهم ماذا تريد أن تقول . انني مستعد للافضاء اليك بما تريد ، بل انني ليسعدني أن أفرغ من هذا الموضوع . حتى لقد ذهبت ... ولكن اعلم قبل كل شيء انني سأنفذ ما أريد : ستنام الليلة عندي ، وغدا آخذك الى هناك. لن أتركك (هكذا زار فلتشانينوف مرة أخرى) سأوثقك بالحبال ، وأحملك الى هناك!.. هل يريحك النوم على هذا « الديوان » ؟ (قال ذلك ، وأشار ، لاهثا ، الى الديوان الواسع المريح الذى يقابل ديوانه الذى ينام هو عليه ، قرب الجدار الآخر) .

ــ ولكن كيف ؟ سأكون فى كل مكان ...

ــ لا ، ليس فى كل مكان ، بل على هذا الديوان . خذ : هذا غطاء ، وهذا لحاف ، وهذه وسادة . (أخرج فلتشانينوف هذه الأشياء من الخزانة ، وقذفها بسرعة الى بافل بافلوفتش الذى كان مادا ذراعيه يتناولها خاضعا مطيعا) افرش سريرك حالا .

ظل بافل بافلوفتش واقفا في وسط الغرفة خلال لحظة ، حاملا هذه الأشياء التى حمله اياها فلتشانينوف . كان يبدو مترددا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سكرى طويلة . ولكن حين كرر فلتشانينوف أمره بصوت هائج ، اسرع ينفذ الأمر ، فدفع المائدة ، وأخذ يمد الغطاء ويشده لاهثا.واقترب منه فلتشانينوف يساعده. لقد شعر فلتشانينوف بشيء من الرضا حين رأى فى صاحبه الخضوع.

قال مرة أخرى بلهجة آمرة ، وهو يحس أن من المستحيل عليه أن يتكلم بلهجة أخرى :

ــ أفرغ كأسك ، وارقد فى فراشك . هل انت أرسلت مافرا لتشترى لك خمرا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ نعم ... انا ... خمرا ... كنت اعلم يا آلكسى ايفانوفتش انك لن ترسل أحدا ليشترى خمرا .

ــ يعجبنى انك عرفت ذلك . ولكن يجب ان تعرف شيئا آخر ايضا أقول لك مرة اخرى اننى قد عزمت أمرى ، وسأنفذ تدابيرى . لن اقبل بعد الآن تهريجاتك .

ــ انا أفهم من تلقاء نفسى ، يا الكسى ايفانوفتش ، ان ذلك لايمكن الا مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر .

قال بافل بافلوفتش ذلك وابتسم ابتسامة ماكرة :

وكان فلتشانينوف فى الغرفة يسير جيئة وذهابا ، فلما سمع هذا الجواب توقف فجاة امام بافل بافلوفتش ، وقال بلهجة فخمة :

ــ بافل بافلوفتش ، تكلم بصراحة . أنت رجل ذكى ، أسلم لك بذلك مرة اخرى . ولكننى اؤكد لك انك تسير فى طريق خطأ...

فابتسم بافل بافلوفتش ، مرة اخرى ، تلك الابتسامة الطويلة الماكرة الخبيثة التى تخرج فلتشانينوف عن طوره . فصاح يقول :

ــ انتظر. اياك والمهزلة. اننى اقرأ فى ضميرك كما اقرأ فى كتاب. اعود فأقول لك : اننى على استعداد للاجابة عن جميع الأسئلة ، اعاهدك على ذلك عهد الشرف ، بل اننى مستعد لأن أقدم لك ما يمكن وما لايمكن ايضا من الوان الارضاء .

فاقترب بافل بافلوفتش من فلتشانينوف محاذرا وقال :

ــ ما دمت طيبا كل هذه الطيبة ، فسأقول لك ان ما ذكرته امس عن « الانسان الضارى » قد شق على كثيرا .

فحرك فلتشانينوف يده حركة تدل على التبرم وضيق الصدر.

ــ لا يا الكسى ايفانوفتش ، لا يجب أن تضيق ذرعا ، لا يجب أن ينفد صبرك ، ان كلامك يهمنى كثيرا ، حتى لقد جئت لأعرف هل ... ان لسانى يتعثر قليلا ، فاعذرنى... لقد قرأت أنا نفسى شيئا ما فى مجلة من المجلات ... مقالا نقديا عن النموذج « الضارى » والنموذج « المسالم » . وتذكرت المقال هذا الصباح ... ولكننى نسيت ما قاله الكاتب ، او قل اننى لم افهمه يومئذ. واريد الآن ان اعرف الى اى نموذج ينتمى المرحوم ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف : هل الى النموذج « الضارى » أم الى النموذج « المسالم » ؟

كان فلتشانينوف لايزال يسير فى الغرفة صامتا ، فتوقف فجاة ، وصرخ فى سورة من الغضب يقول :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ الانسان « الضارى » هو ذلك الذى كان يمكن ان يدس السم فى كأس باجاوتوف وهو يشرب معه الشمبانيا « احتفالا بلقائهما السعيد » كما فعلت ذلك بى أنا أمس . ولكن ذلك الانسان « الضارى » ما كان له ان يشيع تابوت باجاوتوف الى المقبرة ، كما فعلت امس ، مدفوعا بدوافع خفية لا أدرى ما عسى تكون ربما لمجرد التهريج !

ــ اما انه ما كان له أن يشيعه الى المقبرة ، فهذا صحيح ، ولكنك تعاملنى بطريقة ...

لم يصغ فلتشانينوف اليه ، بل ظل يصرخ وقد خرج عن طوره :

ــ الانسان « الضارى » ليس ذلك الذى يلفق قصة خيالية ، وينفق وقته فى حساب ما له من حقوق ، ويجتر اهانته ، ويتباكى ، ويجمد وجهه تصنعا ، ويمثل المهزلة تلو المهزلة ، ويرتمى على أعناق الناس ، فاذا هو يضيع حياته فى سخافات وحماقات ... هل صحيح انك اردت أن تشنق نفسك ؟ هل صحيح هذا ؟

ــ هذا ممكن ، لأننى كنت ثملا . فكرة راودتنى ... لا اتذكرها الآن ... اما قضية صب السم فى القدح ، فهذا ، يا الكسى ايفانوفتش ، أمر لا يليق بنا نحن . انا موظف مرموق ، ثم اننى عدا ذلك املك ثروة طيبة ، وقد اريد أخيرا أن أتزوج مرة ثانية.

ــ ثم هناك الأشغال الشاقة .

ــ طبعا ... قد يحدث هذا ايضا ، رغم ان المحاكم الآن تجد فى أكثر الأحيان أسبابا مخففة . اريد يا الكسى ايفانوفتش أن أروى لك هذه الحكاية الصغيرة المضحكة التى تذكرتها منذ برهة فى العربة. لقد قلت انت الآن : « يرتمى على اعناق الآخرين » ، لعلك تتذكر سيمون بتروفتش ليفتزوف ، الذى جاء الى ت ... اثناء وجودك فيها . ان الأخ الأصغر لهذا الرجل ، وكان يعد شابا انيقا من شباب المجتمع الراقى ببطرسبرج ، كان ملحقا بحاكم مدينة ف ... وكانت له مزايا رائعة . تناقش هذا الشاب ذات مساء مع جولوبنكو ، الكولونيل ، امام عدد من السيدات كانت بينهن السيدة التى يخفق لها قلبه . فرأى أثناء المناقشة انه قد أهين ، ولكنه بلع الاهانة ، وسكت . وبعد فترة من الوقت ، سرق منه جولوبنكو تلك السيدة ، وطلبها زوجة له . فانظر ماحدث : لقد استطاع ليفتزوف هذا أن يصبح الصديق الحميم لجولوبنكو ، لم يصالحه فحسب ، بل أصر أن يكون له فتى الشرف ، فحمل التاج فوق رأسه أثناء

الاحتفال . حتى اذا انتهى كل شيء ، اقترب من جولوبنكو ليهنئه ويقبله ، فاذا به ، وهو في رداء الاحتفال مصفف الشعر معطرا ، أمام الحاكم ، وامام المجتمع الأنيق كله ، يسدد الى بطنه طعنة قوية بالسكين ، فيخر جولوبنكو على الأرض ! على ان هـذا كله ليس شـيئا ! الانكى من ذلك ان ليفتزوف ما ان طعن الـكولونيل تلك الطعنة حتى التفت الى من كانوا حوله يهتف قائلا : «آه... ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟ » وأخذ يبكى ، وينتحب ، ويرتعش ، ويرتمى على أعناق الناس ، حتى السـيدات ... « آه ... ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟ هيء ، هيء ، هيء ... » كان المنظر يفطس من الضحك . ولم يكن ثمة الا جولوبنكو شخصا يثير الشفقة.

قال فلتشانينوف بقسوة وهو يقطب ما بين حاجبيه :

ـ لست أفهم لماذا قصصت على هذا .

فقال بافل بافلوفتش وهو يضحك ضحكا صامتا :

ـ من أجل تلك الطعنة . بديهى ان ذلك الرجل لم يكن ضاريا ... بل كان قاذورة من القاذورات ، لأن ذعره انساه جميع قواعد اللياقة ، فارتمى على أعناق السيدات والحاكم موجود . ومع ذلك فقد حقق هدفه ، اذ طعن صاحبه في بطنه . هذا ما كان في ذهني ، حين قصصت عليك هذه الحكاية .

فزار فلتشانينوف فجأة ، بصوت تبدل كل التبدل ، قائلا :

ـ اذهب الى الشيطان ، اذهب الى جميع الشـياطين ، انت ونفسك المتخفية الدنيئة... انت وافكارك القذرة الملتوية المتعرجة. أتظن انك تخيفنى ؟.. انت لا تقدر الا على تعذيب طفـلة ، أيها الجبان ، أيها الجبان .

هكذا صرخ ، وقدخرج عنطوره تماما ، وأخذ يلهث لهاثا شديدا.

فانتفض بافل بافلوفتش من مكانه ، وتبدد سكره فجأة ، واخذت شفتاه ترتعشان .

ـ أانت تصفنى بأننى « جبان » يا الـكسى ايفانوفتش ! انت تصفنى أنا بأننى جبان ؟

ولـكن فلتشانينوف ثاب الى نفسـه ، فأجابه بعد صمت ، وقد أظلم وجهه وشرد فـكره :

ـ أنا مستعد للاعتذار اليك ، شريطة ان تقبل ان تكون صريحا.

ـ لوكنت مكانك يا الكسى ايفانوفتش لاعتذرت ، بدون أى شرط.

فقال فلتشانينوف بعد صمت آخر :

ـ لك ما تشاء يا بافل بافلوفتش . انني أعتذر اليك . ولكن يجب أن توافق أنت نفسك ، بعد الذى وقع ، على انني لن أعد نفسي مدينا لك ، لا فيما يتصل بما قيل الآن، بل ولا فيما يتصل بكل شيء .

ـ الأمر بسيط . لا داعي الى هذه الحسابات .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يبتسم ، ويطرق الى الأرض .

ـ عظيم ، عظيم . والآن افرغ كأسك ، وارقد فى فراشك ، لأنني لن أتركك ...

ـ نعم ... الخمر ...

كان بافل بافلوفتش يبدو مضطربا حائرا بعض الشيء . واقترب مع ذلك من المائدة ، وفرض على نفسه واجب افراغ كأسه الذى صبه منذ مدة طويلة . لاشك انه كان قد شرب كثيرا ، لأن يده كانت ترتعش فاندلق الخمر ، فلطخ الأرض وقميصه وصدرته . ومع ذلك شرب الكأس حتى آخر قطرة ، كأنه لايستطيع أن يدع فيها شيئا ، ثم أعادها الى المائدة باحترام ، ومضى يخلع ثيابه قرب سريره خاضعا .

وفجأة قال يسأل فلتشانينوف وهو يمسك بيده احدى حذائيه بعد أن خلعه :

ـ أليس الأفضل الا اقضي هذه الليلة عندك ؟

فأجابه فلتشانينوف بلهجة حازمة ، دون أن ينظر اليه ، وهو لايزال يسير فى الغرفة :

ـ بل الأفضل أن تقضي هذه الليلة عندي .

فأتم بافل بافلوفتش خلع ملابسه ، ورقد فى فراشه . وبعد ربع ساعة ، رقد فلتشانينوف هو الآخر ، واطفأ الشمعة .

ولم يستطع أن يغفو . ان شيئا جديدا كان قد ظهر فزاد قضيته تعقيدا ، وكان من ذلك فى قلق ، وفى خجل من هذا القلق . وما ان بدأ يغفو قليلا حتى أيقظته ضجة خفيفة على حين فجأة . فألقى نظرة سريعة على سرير بافل بافلوفتش . كان الظلام شديدا (كانت الستائر مسدلة تماما) ، ولكن خيل اليه أن بافل بافلوفتش لم يكن راقدا ، بل كان جالسا على سريره . فسأله :

ـ ماذا بك ؟

فأجابه بافل بافلوفتش بعد لحظة من انتظار ، بصوت لا يكاد يسمع :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ شبح
ـ ماذا ؟ اى شبح ؟
ـ هناك ، فى هذه الغرفة . رايت ما يشبه الشبح يمر أمامى.
فساله فلتشانينوف بعد بضع لحظات :
ـ شبح من ؟
ـ شبح ناتاليا فاسيليفنا .
فوضع فلتشانينوف قدميه على السجادة ، ونظر الى جهة الغرفة المجاورة التى كان بابها يظل مفتوحا دائما . ولم يكن لتلك الغرفة من ستائر الا غلالة بيضاء ... فكان الظلام فيها اقل .
ـ ليس ثمة شىء ، وانما انت سكران . ارقد .
قال فلتشانينوف ذلك ، وعاد فرقد متلفعا باللحاف . ولم يقل بافل بافلوفتش شيئا ، وتمدد على فراشه هو الآخر .
وبعد عشر دقائق ساله فلتشانينوف :
ـ هل سبق أن رايت هذا الشبح قبل الآن ؟
فأجابه بافل بافلوفتش ، بعد لحظات ، بصوت ضعيف :
ـ يخيل الى انني رايته مرة قبل ذلك .
ثم خيم الصمت من جديد .
لا يعرف فلتشانينوف ، على وجه اليقين ، هل نام أم لا . ولكنه ، بعد ساعة ، التفت مرة أخرى على حين فجأة . هل ايقظته ضجة ما ؟ ليس يدرى . ولكن تراءى له أن شيئا يقترب منه ، شيئا ابيض متميزا عن الظلام ، وصل الى وسط الغرفة . فنهض جالسا ، يحاول أن يشق ببصره الليل الذى يحيط به .
ـ أهذا انت يا بافل بافلوفتش ؟
قال ذلك بعد دقيقة ، بصوت ضعيف. انهذا الصوت الضعيف الذى ترجع صداه فى قلب السكون والليل بدا له هونفسه غريبا. ولم يجبه جواب . ولكنه الآن لايساوره اى شك : ان هناك شخصا يقف فى وسط الغرفة .
ـ اهذا انت يا بافل بافلوفتش ؟
قال ذلك بصوت عال ، بصوت يبلغ من العلو أن بافل باقاوفتش لو كان نائما لاستيقظ واجاب .
ولم يجب أحد. ولكن تراءى له ان الشكل الأبيض الذى لايكاد يرى واضحا فى هذا الظلام الدامس كان يزداد اقترابا . فحدث فى نفسه تغير مفاجىء . أن شيئا فى نفسه ينفجر ، فصرخ اقوى صراخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستطيعه ، بصوت لاهث يخنقه الحنق والغضب ، قائلا :
ـ اذا كنت تظن أيها السكير أنك تستطيع أن تخيفني ، فسألتفت نحو الجدار ، وسأغطي رأسي باللحاف ، وسأظل ساكنا لا اتحرك طوال الليل ، وذلك لأبرهن لك على مدى ما أشعر به نحوك من احتقار ... ولو بقيت على هذه الحال من التهريج حتى الصباح.. وهأنذا أبصق في وجهك !..

قال ذلك وبصق حانقا على ما كان يفترض أنه بافل بافلوفتش ، ثم استدار نحو الحائط ، وشد اللحاف فوق راسه ، وسكن على هذا الوضع سكونا تاما . وساد صمت عميق كأنه سكون الموتى . وانقضت على ذلك خمس دقائق ، فاذا هو يسمع فجأة ، على بعد خطوتين منه ، صوت بافل بافلوفتش يترجع ضعيفا كأنه الأنين :
ـ لقد نهضت يا الكسي ايفانوفتش باحثا عن ... (سمى أداة لايستغنى عنها من أدوات المنزل) فلم أجدها قرب سريرى ، فأردت أن أرى ... قرب سريرك ... دون أن أحدث ضجة .
ـ لماذا لم تجبني ، حين صرخت ؟
سأله فلتشانينوف هذا السؤال بصوت متقطع :
ـ خفت ... كان صراخك قويا جدا ، فخفت ...
ـ هناك ، على الشمال ، عند الركن ، قرب الباب ، في الخزانة الصغيرة . اشعل الشمعة .
قال بصوت ذليل وهو يتجه نحو الخزانة الصغيرة :
ـ أستغني عن الشمعة . عفوك يا الكسي ايفانوفتش ، فانني أزعجتك . لقد شعرت فجأة انني سكران تماما .

ولكن فلتشانينوف لم يجب . كان مستلقيا على فراشه ، ملتفتا الى ناحية الجدار ، وظل على هذه الحال الى آخر الليل دون أن يستدير نحو الجهة الأخرى مرة واحدة . هل كان يريد أن ينفذ ما قطع على نفسه من عهد ، اظهارا لاحتقاره ؟ لقد كان هو نفسه يجهل ما يشعر به . كانت أعصابه ثائرة حتى كاد يهذي ، وظل مدة طويلة لايستطيع أن ينام . وحين استيقظ في الساعة العاشرة من صباح غد وثب عن سريره فجأة كأن أحدا هزه ، فلم يجد بافل بافلوفتش في الغرفة . كان سريره خاليا ، منفوشا ... لقد هرب عند طلوع النهار .. قال فلتشانينوف وهو يضرب جبينه بيده :
ـ « كنت أعرف ذلك »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١٠ -

المقبرة

تحققت مخاوف الطبيب ، فقد ساءت صحة ليزا فجأة ، ساءت اكثر كثيرا مما كان يتوقع فلتشانينوف وتتوقع كلافديا بتروفنا ، امس. وحين وصل فلتشانينوف فى الصباح كانت الحمى قد اضنتها، ولكنها كانت لا تزال فى وعيها . وقد أكد فلتشانينوف ، فيما بعد ، انها ابتسمت له حين راته ، بل ومدت اليه يدها الصغيرة المحترقة . هل وقع هذا حقا ، أم انه تخيله على غير ارادة منه تعزية لنفسه ؟ انه لم يستطع أن يتحقق من ذلك على كل حال . وما ان جاء المساء حتى فقدت المريضة وعيها ، ولم تفق من غيبوبتها بعد ذلك . وماتت فى اليوم العاشر من وصولها الى اسرة بوجورلتسيف. وقد عاش فلتشانينوف فى هذه الفترة حياة اليمة ، حتى ان اسرة بوجورلتسيف التى قضى بينها معظم هذه الايام القاسية كانت تخشى على صحته من فرط ما عانى من عذاب . كان فى الأيام الأخيرة من مرض ليزا يظل جالسا فى ركن من الأركان ساعات برمتها ، كأنه لا يفكر فى شيء . وكانت كلافديا بتروفنا تحاول أن تواسيه ، ولكنه كان لا يكاد يجيبها بشيء ، بل كان يبدو عليه فى بعض الأحيان انه يضيق ذرعا بأحاديثها . كانت كلافديا بتروفنا لا تتوقع « ان يؤثر فيه هذا الأمر تأثيرا يبلغ هذه الدرجة من العنف والقوة » . وكان الأطفال يستطيعون أن يسلوه أكثر منها ، حتى لقد كان يضحك معهم فى بعض اللحظات ، غير انه كان ما ينفك يترك ركنه الذى هو فيه ، ويمضى على رءوس الاصابع يلقى نظرة على المريضة . كان يخيل اليه فى بعض الأحيان انها تعرفه . وكان كسائر من فى البيت ، قد فقد كل أمل فى شفائها ، غير انه كان لا يبتعد عن الغرفة التى تحتضر فيها ليزا .

ومع ذلك فقد اظهر خلال هذه الفترة نشاطا جبارا ، مرة او

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرتين . فكان يسرع الى بطرسبرج ، يبحث عن اشهر الأطبـاء ، ويجيء بهم الى المريضة ليفحصوها . وآخر مرة جاء فيها بالطبيب كانت قبل موتها بيوم واحد . وقد أصرت عليه كلافديا بتروفنا ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، أن يمضي باحثا عن نوسوتسكى ، وأن يجيء به ، وقالت : « اذا وقع للطفلة مكروه قبل أن يأتى ، فلن نتمكن حتى من دفنها » . فقال لها فلتشانينوف بلهجة غامضة ذاهلة ، أنه سيكتب اليه . فقالت بتروفنا عندئذ انها ستبعث اليه بالشرطة لتجيء به . وأخيراً عزم فلتشانينوف أمره على أن يكتب اليه بضع كلمات ، حملها بنفسه الى فندق بوكوروفسكى . لم يكن بافل بافلوفتش هناك ، على عادته ، فترك فلتشانينوف الرسالة عند ماريا سيسويفنا .

ماتت ليزا فى مساء من أمسيات الصيف ، عند غروب الشمس . وفى تلك اللحظة بدأ أن فلتشانينوف يثوب الى نفسه . فلما مددوا جثمانها على المائدة فى الصالون ، وغطوها بثوب أبيض من ثياب احدى بنات كلافديا بتروفنا ، وضعوا أزهارا بين يديها الصغيرتين المضمومتين احداهما الى الأخرى ، اقترب فلتشانينوف من كلافديا بتروفنا متقد العينين ، وقال أنه ذاهب فورا لاقتياد «القاتل» ، ثم خرج .

كان يعرف أين يجد بافل بافلوفتش . انه لم يكن يذهب فى الآونة الأخيرة الى بطرسبرج لاستدعاء الأطبـاء فحسب ، بل كان يخيل اليه فى بعض الأحيان انه لو استطاع أن يقود بافل بافلوفتش الى ليزا ، فقد ترتد اليها الحياة حين تسمع صوت أبيها . فكان يركض باحثا عنه كالمجانين . كان بافل بافلوفتش لايزال يسكن تلك الغرفة نفسها ، ولكن كان من العبث أن يبحث عنه فى غرفته . قالت ماريا سيسويفنا : « انه يتفق له أن يتغيب ثلاثة أيام متتالية ، دون أن يعود الى بيته لحظة واحدة . واذا عاد مصادفة ، فانه لايمكث الا بضع دقائق ثم يخرج . لقد انحدر الى الدرك الأسفل » . وقال خادم الفندق لفلتشانينوف ، فيما قاله له ، ان بافل بافلوفتش يتردد الى البنات الساقطات فى شارع فوزنيسيكى . فلما بحث عنهن فلتشانينوف ، عثر عليهن بلا عناء . ولما دفع لهن بعض المال تذكرن فورا زبونهن صاحب القبعة ذات الشريط الاسود ، وانتهزن هذه المناسبة لسبه وشتمه ، لأنه أصبح لا يجيء اليهن . قالت احداهن ، واسمها كاتيا : انها تستطيع أن تجد بافل بافلوفتش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كل ساعة « لأنه أصبح لا يترك ماشكا بروستاكوفا . ان المرء لايرى لأمواله نهاية ... أما ماشكا تلك فليس اسمها بروستاكوفا بل بروكفوستوفا (١) . لقد كانت مريضة فى المستشفى ، وتكفى وشاية صغيرة عليها ، حتى ترسل الى سيبيريا » .

لم تظفر كاتيا ، ذلك اليوم ، بالعثور على بافل بافلوفتش ، ولكنها وعدت وعدا قاطعا بأن تعثر عليه فى المرة القادمة .

فلما وصل الى المدينة فى الساعة العاشرة ، استدعاها فورا ، وسارمعها بعد أن دفع لصاحب المحل اجرة الوقت الذى سيستغرقه طوافها . كان لايعرف بعد ما الذى سيعمله . هل يقتل بافل بافلوفتش ام يكتفى بابلاغه نبأ موت ابنته قائلا ان دفنها مستحيل ما لم يتدخل هو فى الأمر ؟ ولم توفق مساعيهما الأولى . وعلما ان معركة قامت منذ ثلاثة أيام بين مشكا بروكفوستوفا وبين بافل بافلوفتش ، وان شخصا مهنته «خازن» قد « ضربه بمنضدة فكاد يغطس رأسه فى جسمه». وطال البحث ، وطال ، فلما دقت الساعة الثامنة من الصباح ، كان فلتشانينوف خارجا من مكان دلوه عليه، فاذا هو أمام بافل بافلوفتش وجها لوجه .

كان بافل بافلوفتش فى حالة سكر تام : كانت تجره امرأتان الى ذلك المكان ، وكانت احداهما تسنده من ذراعه . وكان يتبعهم رجل ضخم قوى ، لاشك انه منافس ، يحرك يديه حركات عريضة ، ويوجه الى بافل بافلوفتش افحش أنواع التهديد والوعيد . كان يقول ، فيما يقول صارخا : « ان بافل بافلوفتش يستغله ويسمم حياته » . كان يبدو ان الخلاف على مبلغ من المال . وكانت المرأتان تستحثان خطاهما ، وقد ذعرتا ذعرا شديدا . فلما رأى بافل بافلوفتش صاحبه فلتشانينوف أسرع نحوه ، مادا اليه يديه، وقال:

ــ النجدة أيها الأخ .

فما أن رأى المنافس فلتشانينوف ولاحظ جسمه الرياضى القوى، حتى اختفى فى مثل لمح البصر ، فأحس بافل بافلوفتش بأنه انتصر على خصمه ، فالتفت الى الوراء ، يلوح بيده ، وصرخ صرخة طويلة علامة الظفر . ولكن فلتشانينوف أمسكه من كتفيه (لايدرى على وجه الدقة لماذا) ، وأخذ يهزه هزا عنيفا ، حتى صارت أسنانه تصطك من قوة ذلك الهز العنيف . فانقطع بافل بافلوفتش حالا عن الصراخ ، والتفت الى جلاده ينظر اليه نظرة سكير خائف

(١) ها هنا لعب لفظى : ان كلمة بروكفوست الروسية تعنى « وغد » .

مبهوت . ولعل فلتشانينوف كان لايدرى ما يصنع به ، ولكنه أجلسه بحركة وحشية على حافة الرصيف ، وقال له :

ـ ماتت ليزا .

ظل بافل بافلوفتش جالسا على حافة الرصيف تسنده احدى المراتين ، وهو لايزال معلقا بصره بفلتشانينوف . واخيرا فهم ، فاذا بوجهه يسترخى فجأة .

ـ ماتت ...

لم يعرف فلتشانينوف هل ابتسم صاحبه ابتسامة سكير خبيثة ، أم تشنج وجهه قليلا . ولكن بافل بافلوفتش ما لبث بعد برهة وجيزة أن رفع يده اليمنى التى كانت ترتعش ، محاولا أن يرسم اشارة الصليب . ولكن الحركة لم تتم ، وسقطت يده . وبعد لحظة قصيرة ، نهض متثاقلا ، وامسك بذراع المراة ، واخذ يسير متوكئا عليها ، كأنه لا يعى ما حوله ، وكأنه نسى فلتشانينوف نسيانا تاما . ولكن فلتشانينوف قبض عليه مرة أخرى من كتفه ، وصرخ صراخا لاهثا يقول له :

ـ هل تفهم ، ياسكير ، ياشيطان ، ان من المستحيل أن تدفن بدونك ؟

فتمتم بافل بافلوفتش يقول بصوت متلعثم :

ـ هل تتذكر ... الملازم فى المدفعية ؟

فزأر فلتشانينوف يقول ، وهو يرتعش ارتعاشا مؤلما :

ـ ماذا ؟

ـ عليك بأبيه ، فابحث عنه ، من أجل الدفن ...

فصرخ فلتشانينوف ثائرا :

ـ أنت كاذب ... انك تقول هذا الكلام عن خبث وشر ... كنت اعرف انك ستلفق هذا التلفيق ...

قال ذلك ، وقد استبد به الحنق والغيظ ، ثم رفع قبضته القوية فوق راس بافل بافلوفتش ، وهم أن يضربه ضربة تجهز عليه .

فابتعدت المراتان فجأة وهما تصرخان صرخات حادة ، ولكن بافل بافلوفتش لم يتزحزح ، وعبر وجهه بانقباضه عن كره وحشى .

ثم تملص بعنف من بين يدى فلتشانينوف ، وارتطم ، وكاد يقع . فأمسكته المراتان من ابطه ، وهربتا به ، تجرانه جرا ، وهما تصرخان . فلم يتبعهم فلتشانينوف .

وفى الساعة الواحدة من الغد جاء الى منزل بوجورلتسيف موظف طاعن فى السن قليلا ، مهذب جدا ، يرتدى الزى الموحد ، فتقدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من كلافديا بتروفنا وسلمها مظروفا مختوما بعث به اليها بافل بافلوفتش. كان المظروف يحتوى ، عدا الوثائق اللازمة لدفن ليزا ، على رسالة وثلاثمائة روبل . وكانت الرسالة موجزة تشتمل على كثير من الأدب والاحترام ، يعبر بها بافل بافلوفتش لصاحبة السعادة كلافديا بتروفنا عن عظيم شكره على الرعاية النبيلة التى احاطت بها اليتيمة ، والتى لايستطيع الا الله أن يجزيها عليها ، ويقول بشيء من الغموض ان وعكة خطيرة الم به ، تمنعه من شهود دفن ابنته الشقية الحبيبة ، وانه يعتمد فى كل شيء على ما تتصف به صاحبة السعادة كلافديا بتروفنا من نبل ملائكى . أما الروبلات الثلاثمائة ، فيقول انها نفقات الدفن والنفقات التى اقتضاها المرض . فاذا فاض عن هذا المبلغ شيء فرجاؤه ، مع الخضوع وعظيم الاجلال ، أن ينفق فى اقامة قداس على روح ليزا . ولم يستطع الموظف أن يضيف شيئا على ما جاء فى الرسالة ، حتى لقد فهم من بعض كلامه أنه لم يقبل حمل هذا الظرف بنفسه الى صاحبة السعادة كلافديا بتروفنا الا بعد الحاح شديد من بافل بافلوفتش . وقد شعر بوجورلتسيف من قول بافل بافلوفتش « النفقات التى اقتضاها المرض » بشيء من الاهانة ، فصرح بأن من الواجب الا يحتفظ من المبلغ الا بخمسين روبلا للدفن (اذ يستحيل أن يحرم أب من دفع نفقات دفن طفلته) ، وان يرد الباقى فورا ، وهو مائتان وخمسون روبلا ، الى تروسوتسكى . ولكن كلافديا بتروفنا قررت أخيرا دفع هذا المبلغ الى كنيسة المقبرة ، على روح «العذراء اليزابت» ، واخذت « ايصالا » بذلك ، اعطته لفلتشانينوف من اجل أن يرسله حالا الى بافل بافلوفتش ، الذى أودعه البريد على عنوان الفندق .

غاب فلتشانينوف عن الفيللا بعد دفن ليزا . وظل خلال أسبوعين كاملين ، يضرب فى المدينة على غير هدى ، على غير هدف ، وحيدا ، ذاهلا حتى ليصطدم بالناس فى الطرقات . وكان فى بعض الأحيان ايضا يبقى فى بيته اياما برمتها ، راقدا على سريره ، ناسيا حتى الأمور الأولية . وقد ارسلت أسرة بوجورلتسيف تستدعيه عدة مرات ، فكان يعد بأن يجيء ثم ما يلبث ان ينسى . وجاءت اليه كلافديا بتروفنا بنفسها ذات يوم ، ولكنها لم تجده . وهذا ما وقع أيضا لمحاميه الذى جاء يحمل اليه خبرا هاما ، وهو انه استطاع ببراعته ان يرتب الأمور ، فحمل الخصم على أن يعقد مع فلتشانينوف اتفاقا يضمن له جزءا كبيرا جدا من الارث موضوع

الخلاف ، ولم يبق الا أن يوافق فلتشانينوف على ذلك . فلما استطاع المحامى أخيرا أن يجتمع به ، أدهشه أشد الدهشة ان زبونه هذا الذي كان متعجلا الأمر ، قد استقبل النبأ بدون اكتراث.

كانت تلك الأيام أشد أيام تموز (يوليو) حرارة. ولكن فلتشانينوف كان قد فقد احساسه بالزمان . كان يعذبه خاصة ان ليزا لم تعرفه ، وانها ماتت قبل أن تدرك مدى ما يكنه لها من حب اليم. ان الهدف الذى سطع أمامه ، قد انطفأ فجاة ، وغاب فى الظلام الأبدى . أصبح فلتشانينوف يفكر فى ذلك الهدف بلا انقطاع ، ويريد أن تشعر ليزا بما يضمره لها من حب لن يزول ما بقى هو على قيد الحياة . وكان يقول لنفسه أحيانا ، وقد تملكته حماسة قاتمة مظلمة : « ليس لأحد ولايمكن أن يكون لأحد هدف اعلى من ذلك الهدف . قد يكون ثمة أهداف أخرى ، ولكن ذلك الهدف أقدسها جميعا » .

كان يقول لنفسه : « ان حب ليزا كان يمكن ان يطهر نفسى ، وأن يفدى حياتى الماضية العقيمة السيئة ... كان يمكننى ، انا الانسان العاطل ، الفاسد ، المتعب ، أن اسعد بتدليل مخلوق نقى جميل ، تغفر لى من اجله كل الخطايا ، واغفر لنفسى من اجله كل الخطايا » .

جميع أفكاره ، الواعية كل الوعى ، كانت مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بذكرى الطفلة الميتة ، هذه الذكرى الواضحة ، الماثلة فى ذهنه دائما ، المؤلمة لقلبه بغير انقطاع . كان يرى وجهها الصغير الشاحب ، ويتذكر كل تعبير لاح فى ذلك الوجه . كان يراها كما كانت فى تابوتها تحف بها الأزهار... وكان يراها راقدة فى فراشها، وقد أضنتها الحمى ، وغابت عن الدنيا ، وجمدت عيناها . وتذكر فجاة ان أحد أصابعها الصغيرة قد اسود قبل الموت ، لا يدرى الا الله لماذا ؟ فاثر فيه ذلك تاثيرا شديدا ، واشفق على هذا الاصبع اشفاقا كبيرا ، وفى تلك اللحظة انما انبثقت فى ذهنه لاول مرة ، فكرة البحث عن بافل بافلوفتش فورا ليقتله . اما قبل ذلك فقد كان « لا يحس شيئا » .

هل المذلة التى عاناها قلب هذه الطفلة هى التى حطمته ، أم حطمته الآلام التى سببها لها أبوها خلال ثلاثة أشهر ، ذلك الأب الذى حل محل حبه الكره على حين فجاة ، فأخذ يهينها ويشتمها ويعبث بخوفها ، ثم تركها لغرباء؟ لم ينقطع فلتشانينوف عن التفكير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هذا كله ، وظل يجترهذه الأفكار ويقلبها على ألف وجه ووجه. وتذكر بغتة ، صيحة تروسوتسكى : « هل تعرف ما هى ليزا بالنسبة الى » ، فأدرك ان هذه الصيحة لم تكن صيحة سكران ، بل كانت صيحة صادقة ، كانت حبا . « كيف استطاع هذا الوحش أن يقسو كل تلك القسوة على هذه الطفلة التى كان يحبها ذلك الحب كله ؟ هل هذا ممكن ؟.. » . هكذا كان يتساءل أحيانا ، ولكنه كان فى كل مرة يطرد هذا السؤال من فكره ، ويرميه الى بعيد . كان فى ذلك شيء رهيب ، رهيب جدا .

وفى ذات يوم ، ذهب ، على غير وعى تقريبا ، الى المقبرة التى دفنت فيها ليزا ، واتجه نحو قبرها . لم يكن قد ذهب الى هناك مرة واحدة بعد الدفن . كان يبدو له انه سيعانى الما لا قبل له باحتماله ، فلم يجرؤ أن يذهب . ولكن الشيء الغريب انه حين انحنى على القبر ، وطبع عليه قبلة طويلة شعر فجأة بشيء من الراحة . كان المساء صافيا والشمس تغرب . وقد نبتت حول القبور أعشاب كثيفة غضة نضيرة . وكان ثمة نحلة تدندن فى دغل من أشجار الزعرور . وكانت الأزهار والأكاليل التى وضعها أولاد كلافديا بتروفنا على القبر الصغير لا تزال هناك ، وقد تساقطت بعض أوراقها . فشعر فلتشانينوف ، لأول مرة ، منذ مدة طويلة ، بشيء من الأمل يحيى قلبه . قال فى نفسه وقد تسلل الى نفسه ما فى المقبرة من هدوء ، وغاب بصره فى السماء الصافية « « ما أعذب هذا ! » . ان طمأنينة غريبة ، هادئة ، صافية قد صعدت فيه ، وملأت نفسه . قال : «ليزا هى التى ترسل الى هذا ، ليزا هى التى تخاطبنى » .

وحين قفل راجعا ، كان الليل قد هبط . ومر ، فى الطريق ، غير بعيد عن المقبرة ، ببيت من خشب هو نوع من فندق ريفى . وكانت النوافذ مفتوحة ، فرأى فى داخل البيت اناسا متحلقين حول مائدة . ثم بدا له فجأة أن واحدا منهم ، جالسا قرب النافذة ، يراه أيضا ، وينظر اليه نظرة مستطلعة : انه بافل بافلوفتش . فتابع سيره ، وما لبث أن سمع وقع خطوات وراءه . انه بافل بافلوفتش يركض محاولا اللحاق به . لعل ما كان يشيع فى وجه فلتشانينوف من هدوء وطمأنينة قد شجعه بل جذبه . فلما وصل اليه ، ابتسم ابتسامة خائفة ، ولكنها ليست ابتسامة السكير التى عهدها فيه . لم يكن الآن ثملا . وتبادلا تحية المساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١١ -

بافل بافلوفتش يتزوج

ما كاد ينطق فلتشانينوف بهاتين الكلمتين حتى استغرب ذلك هو نفسه . لقد أدهشه كثيرا ان رؤية هذا الرجل لم تثر فيه الغضب ، بل ايقظت فيه عواطف أخرى مختلفة عن الغضب كل الاختلاف ، أو قل ايقظت فيه رغبة فى الشعور بهذه العواطف الأخرى . قال بافل بافلوفتش بلهجة لطيفة :

ـ ما اجمل هذا المساء !

ـ الم تسافر بعد ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، وهو يتابع سيره ، وكأنه لا يطرح سؤالا بل يفكر بصوت عال :

ـ نعم ، لقد تأخرت بعض التأخر ، ولكننى حصلت على تعيينى فى منصب اعلى ، وسأسافر بعد غد حتما .

فسأله فلتشانينوف هذه المرة :

ـ حصلت على تعيينك ؟

فأجاب بافل بافلوفتش وهو يمط شفتيه قليلا :

ـ ولم لا ؟

ـ نعم ، نعم ، وانما قلت ذلك ...

وقطب فلتشانينوف ما بين حاجبيه ، وجعل يتفرس فى بافل بافلوفتش خلسة . فما كان أشد دهشته حين رأى ثياب السيد تروسوتسكى ، وقبعته ذات الشريط الأسود ، ومظهره كله ، قد أصبحت اليق كثيرا مما كانت منذ أسبوعين . فتساءل بينه وبين نفسه : « ترى ما وجوده فى هذا الفندق ؟ »

وعاد بافل بافلوفتش يقول :

ـ كنت أنوى يا الكسى ايفانوفتش ان أنهى اليك فرحة اخرى .

ـ فرحة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ انني الزوج (*)
ـ كيف ؟
ـ بعد العذاب يأتي السرور . هذه سنة الحياة . أود لو ...
يا الكسي ايفانوفتش ... ولكنني لا ادري ... قد تكون مستعجلا .
أن مظهرك ...
ـ أنا مستعجل حقا واشعر بشيء من الاعياء .
لقد شعر فلتشانينوف فجاة برغبة في التخلص من رفيقه . ان الاستعدادات الطيبة التي نبتت في نفسه منذ قليل ، قد تبددت بغتة .
ـ كنت اتمنى لو ...
لم يقل بافل بافلوفتش ما كان يتمناه ، ولا اهتم فلتشانينوف بكلامه .
ـ اذن أرجيء ذلك الى مرة اخرى ، اذا نحن التقينا .
ـ نعم نعم ، الى مرة اخرى .
قال ذلك فلتشانينوف بسرعة دون أن ينظر اليه ، وهو يتابع سيره .
وساد الصمت دقيقة من الزمن . وكان بافل بافلوفتش يسير الى جانبه . وقال اخيرا :
ـ الى اللقاء ، اذن .
ـ الى اللقاء ، أتمنى لك ...
ورجع فلتشانينوف الى بيته وقد عاد اليه اضطراب شديد . ان رؤية « هذا الشخص » كانت حقا فوق ما تطيقه قواه . ولما استلقى في سريره ، تساءل مرة اخرى : «ما وجوده قرب المقبرة؟» .
وفي صباح غد ، قرر أخيرا أن يذهب الى منزل بوجورلتسيف ، وقد قرر ذلك على مضض . كان يؤلمه كل مظهر من مظاهر العطف ، حتى عطف أسرة بوجورلتسيف . ولكنهم كانوا في قلق عليه ، فكان لابد ان يذهب اليهم . وخيل اليه فجاة انه سيشعر بشيء من العار حين يعود الى رؤيتهم لأول مرة . كان يتساءل وهو يسرع في الانتهاء من التهام افطاره « أأذهب أم لا اذهب ؟ » ، فاذا هو يرى بافل بافلوفتش يدخل فجاة عليه ، فيدهش من ذلك اشد الدهشة .
كان فلتشانينوف ، رغم لقاء الأمس ، لايستطيع أن يتخيل ان هذا الرجل سيتخطى عتبة بيته يوما ، فبلغ من شدة ذهوله عند رؤيته انه نظر اليه دون أن يستطيع مخاطبته بكلمة . ولكن بافل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بافلوفتش حياه بدون تحرج ، وجلس على ذلك الكرسى نفسه الذى جلس عليه منذ ثلاثة أسـابيع ، عنـد زيارته الأخيرة التى تذكرها فلتشانينوف فجأة بوضوح ما بعده وضوح . نظر فلتشانينوف الى الزائر نظرة يمتزج فيها القلق بالاشمئزاز .

قال بافل بافلوفتش ، وقد ادرك معنى هذه النظرة :

ــ الانت مندهش ؟ــ

انه الآن اقل تحرجا مما كان بالأمس ، ولكن المرء يشعر مع ذلك انه اكثر خجلا وخوفا . كان مظهره غريبا كل الغرابة . لم تـكن ثيابه لائقة فحسب ، بل كانت انيقة أيضا :كان يرتدى سترة صيفية خفيفة ، وسروالا ضيقا زاهرا ، وصدرة ناصعة ، وقفازين ، وقميصا ابيض جديدا ، وكان يضع على احدى عينيه نظارة ذهبية ، لايدرى الا الله لماذا ! كان ذلك كله أنيقا غاية الأناقة . حتى لقـد تطيب بالعطر . كان فى مظهره هذا كله شىء مضحك يثير فى الوقت نفسه فكرة غريبة ، مزعجة .

تابع يقول بجهد ظاهر :

ــ واضح ، يا ألـكسى ايفانوفتش ان زيارتى تدهشك . انى أحس بذلك ، ولـكننى اقول ان هناك بين الناس دائما شيئا أسمى من جميع الاحتمالات ومن جميـع الازعاجات التى يمكن ان تقع ، أليس كذلك ؟..

ــ بافل بافلوفتش ، قل بسرعة كل ما تريد أن تقول ، قله بلا تـكلف ولا تصنع .

قال فلتشانينوف ذلك ، وقطب ما بين حاجبيه .

فأسرع بافل بافلوفتش يقول :

ــ اليك الأمر بكلمتين : سأتزوج ، وانا ذاهب حالا الى خطيبتى . انها تسكن فى الريف أيضا . واتمنى لو اشرف بتقديمك الى هذه الأسرة ، لذلك أبيح لنفسى ان ارجوك بكثير من المذلة والخضوع (قال ذلك وأحنى راسه) أن ترافقنى اليها .

ــ ارافقك الى اين ؟

قال فلتشانينوف ذلك محملقا .

ــ اليهم ، فى الفيللا التى يسكنونها . عفوك يا الكسى ايفانوفتش ، اننى محموم قليلا ، وقد اكون على شىء من الارتباك ، ولكننى اخاف كل الخوف أن ترفض تلبية رجائى .

ونظر الى فلتشانينوف نظرة متوسلة دامعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال فلتشانينوف ، وهو يلقى عليه نظرة سريعة ، ولا يكاد يصدق عينيه ولا اذنيه :

ـ تريد مني ان ارافقك الآن الى بيت خطيبتك ؟

قال بافل بافلوفتش وقد تملكه رعب شديد :

ـ نعم . لا تحنق علي يا الكسي ايفانوفتش . ليس ذلك منى وقاحة ، بل رجاء ، رجاء ذليل . لقد تخيلت انك قد لا ترفض تلبية هذا الرجاء .

ـ أولا ، هذا مستحيل .

قال فلتشانينوف ذلك واخذ يتحرك على كرسيه . فتابع بافل بافلوفتش كلامه مصرا :

ـ هذه رغبة قصوى من رغباتي ، وليست شيئا آخر . ولااكتمك ان ثمة دافعا آخر يدفعني الى هذا ، ولكنني لا أريد أن ابوح لك بهذا الدافع الا فيما بعد ، اما الآن ، فأرجوك ، والح فى الرجاء ... حتى لقد نهض وقد امتلأ احتراما واجلالا . فنهض فلتشانينوف أيضا وهو يقول :

ـ ولكن هذا مستحيل ، على كل حال . يجب أن توافقني على ذلك .

ـ بل هو غير مستحيل يا الكسي ايفانوفتش . انني انوى أن أقدمك اليهم ، كصديق . ثم انهم يعرفونك هناك . أنهم أسرة زاخلييينين ، مستشار الدولة زاخلييينين .

فهتف فلتشانينوف متعجبا :

ـ كيف ؟

انه زاخلييينين هو مستشار الدولة ذاك نفسه ، الذى حاول فلتشانينوف أن يلقاه فى بيته ، والذى كان يرى فى دعوى الارث رأيا مخالفا لمصلحته .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يبتسم ، كأن الاندهاش الشديد الذى ظهر على فلتشانينوف قد بث فى نفسه شيئا من الشجاعة :

ـ نعم ، نعم . انه هو نفسه . هل تتذكره ؟ كنتما تسيران معا ، وكنت انا انظر اليكما من الرصيف الثانى ، أنتظر ان تتركه لاقترب منه . لقد عملنا معا فى ادارة واحدة ، منذ عشرين سنة . ولكننى حين كنت اتهيأ للاقتراب منه ، لم يكن فى ذهنى أى مشروع ، وانما انبعثت هذه الفكرة فى نفسى منذ أسبوع .

قال فلتشانينوف بدهشة ساذجة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– ولكن يخيل الي ان هذه الأسرة اسرة محترمة جدا .
– محترمة جدا جدا . وماذا ؟
قال بافل بافلوفتش ذلك ، وانقبضت اسارير وجهه قليلا .
– أوه لا شيء ... ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله ...
قاطعه بافل بافلوفتش يقول بسرعة فرحة :
– انهم يتذكرون زيارتك ، يتذكرونها . ولكنك لم تستطع أن ترى الأسرة في ذلك اليوم . أما الأب فانه يتذكرك ، ويقدرك. لقد حدثته عنك بأجمل عبارات الاحترام .
– ولكنك لم تترمل الا منذ ثلاثة اشهر .
– لن يتم الزواج فورا . لن يتم الا بعد تسعة او عشرة اشهر، وبذلك أكون قد لبست السواد سنة كاملة . صدقني اذا قلت لك ان كل شيء حسن . اولا ، لقد عرفني فيدوسي بتروفتش طفلا ، وعرف بعد ذلك زوجتي ، وعرف كيف عشنا ، وهو واقف على عملي . ثم ان لي بعض الثراء ، وقد عينت لمنصب ارفع... هذا كله له قيمته ...
– هي اذن ابنته ؟
– سأقص عليك هذا تفصيلا .
قال بافل بافلوفتش ذلك وفرك يديه سرورا . ثم اردف يقول :
– ولكن اسمح لي بأن أشعل سيجارة . على انك سترى بأم عينك اليوم . ان رجال الأعمال من امثال فيدوسي بتروفتش يقدرون في دوائرهم كثيرا ، هنا ببطرسبرج ، حين يتوصلون الى ابراز انفسهم ، ولفت الأنظار اليهم . انه يعوزه راس المال . انه يعيش حياة رخية ، ولكنه لايدخر شيئا ، خاصة اذا كانت اسرته كبيرة. ان لفيدوسي بتروفتش مثلا ، ثمان بنات ، وضبيا صغيرا. تصور انه لومات اليوم لما ترك لهم الا معاشا زهيدا. ثماني صبايا!. لو اشترى لكل منهن حذاء ، لدفع من اجل ذلك مبلغا ضخما . ان خمسة منهن هن الآن في سن الزواج . كبراهن في الرابعة والعشرين من عمرها (فتاة فاتنة ، سترى) . اما السادسة ، وعمرها ستة عشر عاما ، فلا تزال في المدرسة الثانوية . يجب ايجاد ازواج للخمس الكبريات ، ويجب تدبير ذلك بسرعة : وعلى الأب اذن أن يمضي ببناته الى المجتمع الراقي. تصور كم يكلف هذا من نفقات ! هاأنذا اتقدم الى هذا البيت أول خاطب ...
– هل الكبرى هي التي خطبتها ؟
– لا ... أنا ... ليست هي الكبرى . لقد خطبت السادسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى لا تزال فى المدرسة الثانوية .

فقال فلتشانينوف وهو يبتسم على غير ارادة منه :

ــ كيف ؟ ألم تقل ان سنها خمسة عشر عاما ؟

سنها الآن خمسة عشر عاما ، ولكنها ستكون بعد تسعة أشهر ستة عشر عاما ، ستة عشر عاما وثلاثة اشهر . ثم ، لم لا ؟ ولما كان ذلك لا يليق الآن ، فاننا لم نعلن شيئا . اتفقنا على ذلك مع الأهل . كل شيء حسن . صدقنى .

ــ اذن لم يتقرر الأمر بعد ؟

ــ بل تقرر . تقرر كل شيء . كل شيء حسن . صدقنى .

ــ وهى ؟ هل تعلم ؟

ــ لا تتحدث فى ذلك ، مراعاة للمواضعات ، ولكن كيف يمكن أن تجهل ذلك ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وغمز بعينيه ، ثم أضاف يختم كلامه

ــ فماذا ؟ هل لك أن تفرحنى هذه الفرحة ؟

ــ ولكن ماذا عسانى أصنع هناك ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، ثم أضاف بسرعة :

ــ على كل حال ، ما دمت لن اذهب ، فلا داعى الى ذكر الأسباب التى تحملك على اصطحابى .

ــ ألكسى ايفانوفتش ...

ــ ولكن كيف يمكننى أن أجلس الى جانبك فى عربة ؟

ان شعور النفور والاشمئزاز الذى بددته ثرثرة بافل بافلوفتش الى حين ، يستيقظ الآن فى فلتشانينوف أقوى وأعنف ، حتى لكأنه يهم أن يطرده من بيته . وكان فلتشانينوف يؤاخذ نفسه على ذلك .

ــ ستجلس الى جانبى يا ألكسى ايفانوفتش ، ستجلس الى جانبى ، ولن تندم على ذلك .

قال هذا بصوت متأثر . فلما رأى فلتشانينوف يحرك يده حركة مفاجئة تدل على نفاد صبره ، أضاف :

ــ لا ، لا ، لا ، يا ألكسى ايفانوفتش . ألكسى ايفانوفتش ، انتظر قليلا قبل ان تتخذ قرارا . يخيل الى انك ربما أسأت فهمى . اننى افهم اننا لا يمكن أن نكون رفيقين . لست من الغباء بحيث لا أستطيع أن افهم ذلك . والخدمة التى ارجوك الآن ان تقدمها لى لا تربطك بشيء للمستقبل . ثم اننى مسافر بعد غد حتما ، فكأن شيئا لم يحدث . هو هذا اليوم وكفى . حين جئت اليك ، كنت ابنى كل املى على نبل عواطفك ، على هذه العواطف التى استطاعت فى هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآونة الأخيرة ، أن تستيقظ فى قلبك .

بلغ بافل بافلوفتش أقصى حدود الاضطراب ، وكان فلتشانينوف ينظر اليه مندهشا . قال وهو يفكر :

ـ انك تطلب منى تقديم خدمة لك ، وتلح فى ذلك الحاحا يدعونى الى الحذر والريبة . أريد مزيدا من المعرفة بالأمر .

ـ الخدمة التى أطلب منك أن تقدمها لى هى أن تصحبنى ، ولا شىء غير ذلك . وبعد أن نعود ، سأقص عليك كل شىء .

ولكن فلتشانينوف أصر على رفضه ، خاصة وقد أحس بفكرة غامضة سيئة تبزغ فى نفسه . كانت هذه الفكرة تضطرب فيه مبهمة منذ تحدث بافل بافلوفتش عن خطيبته . أهي مجرد حب اطلاع ، أم هى رغبة أخرى لم تتبلور بعد ؟ كان ثمة شىء يدفعه الى القبول ، ولكنه كان كلما ازداد الاغراء قوة ازداد هو مقاومة. كان جالسا على كرسيه ، يفكر. وكان بافل بافلوفتش يتوسل اليه. وفجأة قال مضطربا ، قلقا بعض القلق :

ـ سأذهب .

فظهرت على بافل بافلوفتش امارات فرح عظيم . قال وهو يتواثب حول فلتشانينوف الذى اخذ يرتدى ملابسه :

ـ ولكنى أرجوك يا الكسى ايفانوفتش ، ان تتأنق ، كما تجيد ذلك كل الاجادة .

« لماذا يورط هذا السخيف نفسه فى مثل هذا الأمر ! » . ذلك ما قاله فلتشانينوف لنفسه .

ـ انتظر منك خدمة أخرى يا الكسى ايفانوفتش . ما دمت قد وافقت على اصطحابى ، فكن الآن مستشارى .

ـ فى أى شىء مثلا ؟

ـ سؤال هام : الشريط الاسود ، ابقيه ام ارفعه؟ ايهما اليق؟

ـ كما تريد .

ـ لا ، لا ، اننى أنتظر قرارك . ماذا كنت تفعل انت ، لو كان على قبعتك شريط اسود ؟ كان من رايى ان ابقيه ، لأن ذلك يدل على وفائى وعلى ثبات عواطفى ويزكينى .

ـ يجب أن ترفعه بداهة .

ـ هل ذلك بديهى الى هذه الدرجة ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وسكت يفكر لحظة ، ثم اضاف :

ـ لا بل أوثر أن ابقيه .

ـ كما تريد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال فلتشانينوف لنفسه : « انه مع ذلك لا يثق بى » .
وخرجا . كان بافل بافلوفتش ينظر بكثير من الدهشة الى فلتشانينوف الأنيق كل الأناقة ، وكان وجهه يعبر عن مزيد من الاحترام وخطورة الشأن . كان وضعه يثير دهشة فلتشانينوف الذى كان وضعه الخاص يدهشه أكثر من ذلك أيضا .كانت عربة جميلة تنتظرهما عند الباب .
ـ هل استأجرت عربة قبل أن تصعد الى ؟ أكنت اذن واثقا كل هذه الثقة من اننى سأوافق ؟
ـ طلبت العربة لنفسى، وكنت على شبه يقين من أنك ستجىء .
أجاب بافل بافلوفتش بذلك ، وقد لاحت فى وجهه كل امارات السعادة .
قال فلتشانينوف حانقا بعض الحنق، حين ركبا العربة ، وسارت بهما :
ـ هيه ، بافل بافلوفتش ! الا تظن انك مسرف فى الثقة بى .
فأجاب بافل بافلوفتش جادا كثيرا ، بصوت قوى :
ـ ما انت ، يا الكسى ايفانوفتش ، ما أنت من يقول لى ان هذا حماقة منى .
تساءل فلتشانينوف بينه وبين نفسه قائلا : « وليزا ؟ » ولكنه ما لبث أن دفع هذه الفكرة عن نفسه ، كأنه يخشى أن يدنس المقدسات . وفجأة ظهر لنفسه صغيرا تافها ، وظهرت له الفكرة التى كانت تغريه فكرة بائسة دنيئة ، فأحس مرة أخرى برغبة قوية فى أن يدع كل شىء ، وأن يقفز الى خارج العربة ، ولو اقتضى ذلك أن يستعمل القوة مع بافل بافلوفتش . ولكن بافل بافلوفتش عاد يتكلم ، فاستولى الاغراء مرة أخرى على نفسه .
ـ الكسى ايفانوفتش ، هل لك خبرة بالأحجار الكريمة ؟
ـ اى احجار كريمة ؟
ـ الماس .
ـ نعم ، لى به خبرة .
ـ اريد ان اقدم هدية صغيرة . فقل لى : هل يجب ان افعل ذلك ؟
ـ فى رأيى ، لا .
ـ اما انا فأريد أن اقدم هذه الهدية ، ولكن ماذا أشترى ؟ هل أشترى الطقم كاملا : حلية الصدر، وقرطى الأذنين، والسوار،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أم أكتفى بشيء واحد ؟
ــ كم تريد أن تدفع في ذلك ؟
ــ أربعمائة أو خمسمائة روبل .
ــ أوه ... أوه ...
ــ هل هذا كثير ؟
قال بافل بافلوفتش ذلك قلقا . فأجابه فلتشانينوف :
ــ لا تشتر الا سوارا بمائة روبل .
بدا الحزن والأسف على بافل بافلوفتش . انه يريد أن يدفع اكثر من ذلك ، وأن يشترى طقمــا كاملا . واصر على ذلك . ووقفت بهما العربة أمام أحد المخازن . ولم يشتريا مع ذلك الا سوارا ، لا السوار الذى أحب بافل بافلوفتش أن يشتريه ، بل السوار الذى أشار به فلتشانينوف . وقد أراد بافل بافلوفتش أن يشترى السوارين كليهما ، وحين قبل الصائغ ان يبيع السوار بمائة وخمسين روبلا بعد أن طلب مائة وستين ، شعر بافل بافلوفتش من ذلك ببعض الاستياء . أنه مستعد لدفع مائتين ، اذا طلب منه ذلك . هكذا كانت رغبته في الانفاق قوية .
فلما استأنفت العربة المسير قال بافلوفتش ، وقد ازداد فرحا :
ــ لاضير في أن اقدم بعض الهدايا منذ الآن . انهم ليسوا من الطبقة المتكلفة المتصنعة ، هؤلاء أناس بسطاء .
ثم قال وهو يبتسم ابتسامة مرحة متخابثة :
ــ البراءة تحب الهدايا الصغيرة . لقد ضحكت منذ هنيهة من الأعوام الخمسة عشر ، يا الكسى ايفانوفتش ، ولـكن هذا نفسه هو ما الهبب خيالى ... انها لاتزال تذهب الى المدرسة ، وبيدها كيس صغير مما تحمله التلميذات ... هيء هيء هيء ! ذلك الكيس هو الذى استولى على . انني أحب البراءة يا الـكسى ايفانوفتش . قد يكون من الأفضل أن انزع الشريط الأسود ، أليس كذلك ؟
ــ كما تريد .
ــ انزعه !.
خلع قبعته ، فنزع منها الشريط الأسود ، ورماه الى الطريق.
ولـكن فلتشانينوف تساءل وقد تملكه غضب حقيقى : « أحقا هذا كل شيء ؟ الا ينطوى الحاجه على أى فخ ؟ أهو يعتمد حقا على كرمى وسماحتى؟» لقد بدا له هذا الافتراض الأخير مهينا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١٢ -

عند أسرة زاخليبينين

كانت أسرة زاخليبينين «أسرة محترمة» حقا ، كما قال فلتشانينوف منذ فنين : كان الأب يشغل منصبا عاليا ، وكان رجلا مرموقا . وما قاله بافل بافلوفتش عن مواردهم المالية صحيح ايضا : « انهم يعيشون حياة مترفة ، ولكن لو مات الأب لما بقى لهم شيء » .

واستقبل زاخليبينين صاحبنا فلتشانينوف بحرارة عظيمة. أصبح الخصم صديقا . قال أول ما قال ، بلهجة لطيفة ولكنها رصينة :

ـــ أهنئك . هذا أفضل . لقد ألححت أنا نفسي على اللجوء الى حل بالتراضي . أما بيوتر كارلوفتش (محامى فلتشانينوف) فانه رجل ممتاز من هذه الناحية . ستقبض ستين الف روبل ، بلا مناقشات ، ولا تأجيلات ... بينما كان يمكن أن تطول القضية ثلاثة أعوام !

وقدم فلتشانينوف رأسا الى السيدة زاخليبينين . انها سيدة متقدمة فى السن ، بدينة جدا ، ذات وجه متعب مألوف . وجاءت البنات بعد ذلك ، بعضهن وراء بعض . انهن كثيرات : عشر ، أو اثنتا عشرة . لم يستطع فلتشانينوف حتى أن يعدهن . بعضهن يدخل ، وبعضهن يخرج ... ولكن كان بينهن بنات من الجيران ، وصديقات للأسرة . كانت فيللا أسرة زاخليبينين بناء كبيرا من الخشب ، بنى على طراز مجهول غريب ، وله ملحقات ترجع الى عهود مختلفة ، وحديقة واسعة تتصل بها ثلاث أو اربع فيللات اخرى ، فكانت الحديقة اذن مشتركة ، وكان هذا يسهل التقارب اذن بين الآنسات زاخليبينين وجاراتهن .

ادرك فلتشانينوف ، منذ الكلمات الأولى ، انهم كانوا ينتظرونه ، وانهم قد ابلغوا نبأ زيارته بشيء من الاحتفال ، على انه صديق لبافل بافلوفتش يرغب فى أن يتعرف بالأسرة. وسرعان ما استطاعت

نظرته الثاقبة الخبيرة فى هذه الشئون ، أن تكتشف النية الخاصة التى تثوى وراء هذه الحفاوة : فقد استنتج من هذا التودد الشديد الذى استقبله به الأبوان، ومن ذلك التهيؤ وهذه الزينة فى الآنسات (وكن فى أجمل حلة حقا) ان بافل بافلوفتش قد عمد الى الحيلة فايقظ فى النفوس بعض الآمال بكلمات مستترة طبعا ، فوصف فلتشانينوف أمام هذه الأسرة بأنه رجل من « الطبقة الراقية » ، ذو ثراء ، قد سئم حياة العزوبة ، ويمكن أن « ينهيها » ، وأن يستقر، خاصة وانه قد « ورث منذ قليل » . كان واضحا ان كبرى الآنسات زاخليبينين ، واسمها كاترينا فيدوسويفنا ، وهى التى فى الرابعة والعشرين من عمرها والتى تحدث عنها بافل بافلوفتش قائلا انها فتاة فاتنة ، قد اتخذت وضعا خاصا . كانت تتميزعن أخواتها بمزيد من العناية بهندامها ، وبتلك الطريقة الطريفة فى تصفيف شعرها الجميل. وكان يبدو فى وجوه اخواتها وفى وجوه سائر الفتيات انهن على يقين من أن فلتشانينوف قد جاء «ليفحص كاتيا» .كانت نظراتهن وحتى بعض الكلمات التى افلتت منهن أثناء النهار تؤيد هذا الافتراض الذى افترضه فلتشانينوف. انكاترينا فيدوسويفنا شقراء فارعة القوام، قوية البنية ، تكاد تكون مليئة ، ذات وجه محبب وطبع عذب ، ساكن ، لايخلو من رخاوة . تساءل فلتشانينوف بينه وبين نفسه ، رغما عنه ، وهو ينظر اليها شاعرا بشىء من اللذة : « انه لغريب حقا انها لم تتزوج الى الآن . صحيح انها لا تملك بائنة ، وانها ستصبح مسرفة فى السمنة بعد قليل . ولكن لابد أن يوجد الآن هواة ... » ولم تكن الأخوات الأخريات غير جميلات أيضا . ولاحظ فلتشانينوف بين الجارات بعض الوجوه المليحة بل والجميلة . واخذ هذا الموضوع يسليه. ثم انه قد بيت أمرا عند دخوله .

أما ناديجدا فيدوسويفنا، الأخت السادسة، التلميذة فىالمدرسة الثانوية ، التى كان بافل بافلوفتش يعدها خطيبته ، فقد اخذ فلتشانينوف يشتهى أن يراها ، فكان ينتظرها بصبر فارغ ، حتى لقد أدهشه ذلك منه فى أعماق نفسه . ودخلت أخيرا ، تصحبها صديقة لها اسمها ماريا نيكيتشنا ، وهى فتاة سمراء يقظة الوجه حاذقة شرسة كان بافل بافلوفتش يخاف منها خوفا شديدا كما اتضح ذلك فيما بعد . ان ماريا نيكيتشنا هذه فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها ، ضحوك وذكية ، تعمل مربية عند أسرة صديقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الجيران لها اطفال صغار. وكانت اسرة زاخليبينين منذ مدة طويلة تعدها منها ؛ وكانت الفتيات تحبها حب عبادة . وكان واضحا ان ناديا خاصة لا تستطيع الاستغناء عنها فى هـــذه اللحظة . لاحظ فلتشانينوف من النظرة الأولى أن الفتيات جميعا قد اعتصبن على بافل بافلوفتش ، حتى الجارات ، ولم يلبث أن لاحظ أيضا بعد دخول ناديا بدقيقة واحدة انها تحتقره أيضا . ولاحظ كذلك ان بافل بافلوفتش لايدرك ذلك ، او لايريد أن يصدقه . كانت ناديا أجمل أخواتها ، ما فى ذلك جدال : فتاة صغيرة سمراء ، عنيفة الوجه قليـلا ، جريئة جسور ، شيـطانة ذات عينين ملتمعتين براقتين ، وابتسامة عذبة على مكر وخبث فى بعض الأحيان، وشفتين جميلتين، وأسنان رائعة وكانت ذات قوام أهيف ، ممشوق. وكان وجههـا ، على انه لايزال وجه طفلة ، يعبر منذ الآن عن حرارة الروح ، واتقاد الفكر. وكانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تنبىء عن سنيها الخمس عشرة . وقد اتضح فيما بعد انها حقا كانت تحمل كيسا من القماش المشمع مما تحمله التلميذات ، حين رآها بافل بافلوفتش أول مرة ، ولكنها أصبحت الآن لاتحمل هذا الـكيس .

لم يظفر السوار بالاعجاب ، حتى لقد أحدث شيئا من الانزعاج. ان بافل بافلوفتش ، ما أن لمح خطيبته حتى تقدم منها مبتسما ، وقدم لها هديته بحجة « السرور العظيم الذى شـعر به فى المرة السابقة حين غنت ناديجدا فيدوسويفنا تلك الأغنية الجميلة على البيانو ... » قال ذلك ، وارتبك ، ولم يستطع أن ينهى كلامه ، بل ظل حائرا مضطربا يحاول أن يدس العلبة فى يد ناديا التى كانت لا تريد أن تأخذها ، وكانت تحاول أن ترد ذراعيها الى وراء ، وقد احمر وجهها خجلا وغضبا . ثم التفتت بوقاحة الى امها التى كان يبدو عليها انزعاج شديد ، فقالت بصوت عال :

ــ لا اريد أن آخذها يا أمى !

قال الأب بصوت حازم قاس :

ــ خذيها ، واشكريه .

ولـكن الأب كان مستاء هو أيضا ، فقال لبافل بافلوفتش بصوت منخفض وهو ينظر اليه نظرة ذات معنى :

ــ عبث ، عبث !

واضطرت ناديا الى الامتثال ، فتناولت العلبة ، غاضـــة طرفها

ثانية ساقها الى وراء علامة الاحترام،كما تفعلّ البنات الصغيرات، ولـكنها فعلت ذلك بعنف وسرعة . واقتربت احدى اخواتها لترى السوار ، فأعطتها ناديا العلبة مغلقة ، لتدل بذلك على انها لا تريد حتى أن تنظر الى الحلية . وفتحت العلبة ، واخذ السوار ينتقل من يد الى يد . ولـكنهن نظرن فيه جميعا صامتات ، حتى أن بعضهن نظرن فيه وهن يبتسمن ابتسامة ســاخرة . وقالت الأم وحدها ، بصوت رخو ، أن السوار جميـــــل جدا . تمنى بافل بافلوفتش لو تنشق الأرض وتبلعه .

وسرعان ما أسعفه فلتشانينوف ، اذ اخذ يتدفق في الحديث بصوت عال ، منتهزا أول فكرة خطرت بباله ، فما انقضت خمس دقائق ، الا واستولى على انتباه جميع الأشخاص الحاضرين . كان فلتشانينوف يجيد فن الحديث في الصالونات اجادة رائعة ، وهو فن قوامه الظهور بمظهر البساطة التامة والصدق الـكامل ، والظهور بمظهر من يعد مستمعيه اناساً ينعمون بغاية البساطة ومنتهى الصدق أيضا . وكان يعرف أن يمثل دور الانسان المرح السعيد ، اذا اقتضى الحال . وكان يعرف أيضا أن يرمى في اللحظة المناسبة كلمة فكهة أو غمزة مضحكة أو نكتة جميلة ، وكأنها جاءت مصادفة دون أن يقصدها أو يفكر فيها ، رغم أن الكلمة الفكهة والغمزة المضحكة والنكتة الجميلة وحتى الحديث كله ، رغم ان ذلك كان جميعا يمكن ان يكون مهيأ منذ مدة طويلة ، وأن يكون محفوظا عن ظهر القلب ، وأن يكون قد درج على لسانه مرات كثيرة . الا أن مزاجه اليوم كان يسعفه ويساعده . لقد كان يشعر بحماسة وكان ثمة شيء يدفعه الى الحديث دفعا . كان على يقين مطلق، مطلق ، من أن هذه الاعين كلهـــا ستلتفت اليه بعد بضع دقائق ، وان هؤلاء الأشخاص جميعا لن يصغوا الى أحد غيره ، ولن يكلموا احدا غيره ، ولن يضحكوا الا لما سيقوله هو. وما هى الا فترة قصيرة واذا بالضحكات تنطلق فعلا من هنا ومن هناك . وما لبث الحديث أن أصبح عاما يشاركون فيه جميعا ، وصرت تسمع ثلاثة أصوات أو أربعة أصوات تتكلم معا في آن واحد ، حتى أن وجه السيدة زاخليبينين الجهم المتعب انبسطت أساريره رضا بل وفرحا. وكذلك كاترينا فيدوسيفنا التي كانت تصغي وتنظر مفتونة مأخوذة. وكانت ناديا تراقب فلتشانينوف خلسة بانتباه شديد . كان واضحا أنهـــا قد حذرت منه ، فمـــا زادها ذلك الا حماسة . أما ماريا نيكيتشنا « الخبيثة » فقد استطاعت ان ترميه اثناء الحديث بغمزة لاذعة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت ان بافلوفتش قد حدثهم امس بأن فلتشانينوف صديق من اصدقاء طفولته ، وبذلك اضافت الى سنه سبع سنين طوال ، ملحة على ذلك . ولكن فلتشانينوف استطاع أن يحظى حتى باعجاب الخبيثة ماريا نيكيتشنا . وبهت بافل بافلوفتش . كان يعرف ، طبعا ، ما يملكه صديقه من وسائل ، وقد سره نجاحه كثيرا فى أول الأمر ، فضحك مع الضاحكين فى تواضع ، وانضم اليهم فى الحديث ، ولكنه ما لبث أن أصبح حالما ذاهلا حزينا ، وفضح وجهه الهموم ما يضطرب فى نفسه من عواطف .

قال الأب زاخليبينين بلهجة مرحة ، وهو ينهض ليذهب الى غرفته فى الدور الثانى حيث تنتظره أوراق كثيرة يجب أن يوقعها رغم ان اليوم يوم عيد :

ـ أرى أنك ضيف لا حاجة للمرء فى معاملته الى كلفة . تخيل انى كنت أظنك من أشد الشباب سوداوية . ما اكثر ما يخطىء الانسان !

وكان فى الصالون بيانو . فأراد فلتشانينوف أن يعرف من يعزف عليه ، فاتجه فجأة الى ناديا يسألها :

ـ أظن انك تغنين ؟

فأجابته بجفاف :

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ قال ذلك بافل بافلوفتش منذ هنيهة .

ـ غير صحيح . انا لا اغنى الا لاضحك ، بل ان صوتى غير جميل .

ـ وانا أيضا صوتى غير جميل ، ومع ذلك أغنى .

ـ هل تغنى اذن ؟ اذا غنيت أنت أغنى انا .

قالت ناديا ذلك وقد التمعت عيناها . ولكنها اضافت :

ـ غير أننى لن أغنى الآن ، بل فيما بعد ... بعد الغداء . لقد سئمت البيانو . جميع الناس فى بيتنا يغنون ، ويعزفون من الصباح الى المساء . لو لم تعزف الا كاتيا ، لكان ذلك فوق الكفاية ..

فادرك فلتشانينوف الأمر فى مثل لمح البصر . أن كاترينا فيدوسويفنا هى الوحيدة التى تمارس الموسيقى جادة . فسألها فورا أن تعزف . وسرت الفتيات جميعا من انه اتجه الى كاتيا ، حتى أن ماما (١) نفسها احمر وجهها سرورا . نهضت كاترينا فيدوسويفنا مبتسمة ، واتجهت الى البيانو . واحمر وجهها فجأة ، فاضطربت أشد الاضطراب من هذا الاحمرار الذى فاجأها كأنها طفلة صغيرة ، مع أنها كبيرة ، قوية ، فى

(١) بالفرنسية فى الاصل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرابعة والعشرين من عمرها . ظهرت هذه المشاعر كلها فى وجهها حين أخذت تعزف .

عزفت قطعة لهايدن ، فكان عزفها واضحا ، ولكن ليس فيه تعبير كثير : لقد كانت خجلى . فلما انتهت من العزف أخذ فلتشانينوف يكيل المديح حارا لا لعزفها بل لهايدن ، ولهذه القطعة التى عزفتها خاصة. فلاحت فى وجهها معانىالسرور الكبير والشكر العميقعلىأن المدائح لم توجه اليها بل آلي هايدن ، فمــــا وسع فلتشانينوف الا أن ينظر اليها نظرة أحفل بالانتباه واللطف ، وكأنه يقول لها : « انك حقا لفتاة طيبة » ، وبدا أن الحاضرين جميعا فهموا هذه النظرة ، وخاصة كاترينا فيدوسويفنا نفسها .

قال فلتشانينوف فجأة ، دون أن يتجه بكلامه الى أحد بالذات ، وهو يلتفت الى باب الشرفة الزجاجي :

ــ ما أجمل حديقتكم هذه . هيا بنا الى الحديقة !

ــ نعم ، هيا بنا الى الحديقة .

بهذا صاحوا جميعا فرحين ، كأن فلتشانينوف قد أدرك أقوى رغبة تجيش فى أنفسهم كلهم .

وظلوا يتنزهون فى الحديقة حتى حان وقت الغداء . ان السيدة زاخليبينين التى كانت تريد منذ مدة طويلة ان تذهب لتستريح لم تستطع أن تمنع نفسها من الخروج معهم ولكنها آثرت أن تجلس على الرصيف من باب الحـــذر ، ثم ما لبثت أن غفت . انعقـــدت أواصر الصداقة بين فلتشانينوف والفتيات . وهرع من الفيللات المجاورة ثلاثة فتيان انضموا الى الموكب : احدهم طالب فى الجامعة ، والثانى تلميذ فى مدرسة ثانوية . وقد أسرع هذان الشابان كل الى « آنسته » ، وكان واضحا انهما لم يجيئا الا من اجلهما . اما الثالث فهو شاب فى نحو العشرين من العمر أشعث فظ ، مظلم الوجه ، على عينيه نظارتان زرقاوان ضخمتان . تحدث مع ماريا نيكيتشنا ومع ناديا حديثا سريعا بصوت منخفض ، ثم قطب ما بين حاجبيه ، واخذ يرمى فلتشانينوف بنظرات قاسية ، كأنه يشعر أن من واجبه أن يحتقره احتقارا عميقا .
واقترحت بعض الفتيات أن يبدأوا اللعب بلا ابطاء ، فسأل فلتشانينوف عن اللعب الذى يلعبونه عادة ، فقيل له أنهم يلعبون أنواعا من اللعب ، ولكنهم فى المساء يؤثرون لعب الأمثـــــال : يجلس الجميع ، ويبتعد الشخص الذى عليه أنيحزر . فيختارون عندئذ مثلا من الأمثال، كقولهم : « وصاحب البيت أدرى بالذى فيه » ، ثم ينادون الشخص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي عليه أن يحزر ، ويكون على كلّ واحد منهم أن يقول له جملة مهيأة من قبل ، فالأول يقول جملة تشتمل على كلمة « صاحب » ، والثانى يقول جملة تضم كلمة « أدرى » ، وهكذا دواليك ، ويكون على الحازر أن يلتقط هذه الكلمات وأن يركب منها المثل .

قالَ فلتشانينوف :

ــ لابد أن هذا اللعب مسلّ جدا .

فأجابته عدة أصوات فى آن واحد :

ــ بلْ هو مملّ جدا .

فتدخلت ناديا تقولُ متجهة بالكلام اليه :

ــ اننا نلعب أحيانا لعبة المسرح .. هل ترى تلك الشجرة الكبيرة التى يحيط بها مقعد ؟ تلك هى الكواليس التى يقف فيها الممثلون : الملك ، الملكة ، الأميرة ، الفتى الاول . ثم يخرج كلّ واحد منهم منى شاء ، ويأخذ يقول ما يخطر بباله . ان هذه اللعبة تنجح فى بعض الاحيان .

فقال فلتشانينوف محبذا مرة أخرى :

ــ لعبة جميلة جدا .

ــ بلْ هى مملة الى اقصى الحدود . لا بأس بها فى البداية ، ولكن كل شيء يرتبك ويختلط فى النهاية ، لأن أحدا لا يعرف كيف يختمها ، قد تنجح أكثر من ذلك اذا اشتركت فيها أنت . ألا ما اجهلنا ! لقد تصورنا أنك صديق بافل بافلو فتش ! لقد أراد التباهى ، هذا كلّ ما فى الأمر . انني لسعيدة جدا بأنك جئت لعمل ما .

قالت ذلك ، ونظرت الى فلتشانينوف نظرة ذات معنى ، نظرة جادة ، ثم مضت تلحق بماريا نيكيتشنا فورا .

همست فتاة كان فلتشانينوف قد لمحها لمحا ، ولم تكن قد اتجهت اليه بكلام بعد ، همست فى أذنه سرا تقول :

ــ سنلعب لعبة الأمثال فى المساء . نهيىء «المقالب» لبافل بافلو فتش وتشترك انت فى ذلك .

وقالت فتاة لم يكن قد لاحظها أبدا ، وكأنها انبجست فجـــأة من مخبأ ، وهى فتاة قصيرة حمراء ، زاد الركض والحر حمرتها حتى اصبح وجهها مضحكا ، قالت :

ــ ما أسعدنا بمجيئك ! ان الجو هنا مملّ الى اقصى حد .

كان بافلْ بافلو فتش يزداد قلقه شيئا بعد شيء . وانتهى الأمر بأن انعقدت أواصر الصـداقة بين فلتشانينوف وناديا . أصبحت لا تنظر اليه شزرا ، ولاتفكر فى فحصه بانتباه . لقد اخذت تضحك، وتقفز،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتطلق صرخات صغيرة ، حتى انها أمسكت بيده مرتين . كانت سعيدة جدا ، واستمرت لا تلتفت الى بافل بافلوفتش ، ولا تحفل به ، كأنه لا وجود له . وايقن فلتشانينوف ان ثمة مؤامرة حقيقية على بافل بافلوفتش : فبينما كانت ناديا وزمرة من البنـــــات يجذبن اليهن فلتشانينوف كانت زمرة اخرى تجذب اليها بافل بافلوفتش بحجج وأعذار شتى. الا أن بافل بافلوفتش كان يهرب منهن، ويسرع راكضا الى فلتشانينوف وناديا يدس بينهما راسه الأصلع القلق فجأة ليسمع ما يقولان . وأصبح اخـــيرا لا يتحفظ في ذلك اى تحفظ ، واصبحت سذاجة موقفه تثير الدهشة في بعض اللحظات . ولم يسع فلتشانينوف الا ان يظل يلاحظ كاترينا فيدوسويفنا بكثير من الانتباه . وقد أدركت هي ذلك ورغم اهتمامه بناديا ، وانه يهتم غير ان وجه كاترينا ظل يعبر عن تلك العذوبة نفسها ، وعن ذلك الرضا نفسه الذى كان يعبر عنه قبل ذلك ، كانت تبدو سعيدة بوجودها مع الآخرين، واصغائها الى الزائر الجديد . وكانت ، هي المسكينة ، لا تعرف كيف تنخرط في الحديث انخراطا سهلا لبقا .

قال فلتشانينوف لناديا فجأة بصوت منخفض :

ــ ما ألطفها ، اختك كاترينا فيدوسويفنا .

فأجابته ناديا بحماسة :

ــ كاتيا ! هل يمكن أن يكون احد الطف منها ؟ أنها ملاكنا جميعا . انني أهواها !

وأخيرا ، في الساعة الخامسة ، وضع الغداء . كان واضحا انه ليس غداء عاديا ، وأن الاسرة قد تكلفت من أجل الضيف الجديد بعض النفقات . لقد أضيف الى قائمة الطعام المالوفة طبقان أو ثلاثة اطباق معقدة . وكان أحد هذه الأطباق غريبا جدا حتى ان احدا لايستطيع أن يقول ما هو ، في اغلب الظن . واضافة الى خمور المائدة العادية ، جيء بزجاجة من خمر توكي ، لاشك انها اشتريت لهذه المناسبة خصيصا ، حتى لقد جيء في آخر الغداء بزجاجة الشمبانيا . واسرف الأب زاخليبينين قليلا في الشراب، فصفا مزاجه، واصبح يضحك لكل ما يقوله فلتشانينوف. ولم يستطع بافل بافلوفتش أخيرا ان يصمد أكثر مما صمد ، فحاول أن يتكلم هو أيضا ، تدفعه الى ذلك روح المنافسة ، فاذا بالفتيات يضحكن ضحكا صاخبا عند آخر المائدة ، حيث كان يجلس بافل بافلوفتش مع السيدة زاخليبينين . وصرخت اثنتان منهن في آن واحد ، تقولان :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ بابا ، بابا ، لقد قال بافل بافلوفتش نكتة ايضا : اننا فتيات جديرات بالاعجاب .
ــ ها ! هو ايضا اخذ ينكت ! ماذا قال ؟
كذلك سأل زاخليبينين ، بلهجة وقور كأنها تحمي بافل بافلوفتش ، وبابتسامة يستبق بها النكتة التي سيسمعها .
ــ قال اننا « فتيات جديرات بالاعجاب » .
ــ نعم ، ولكن ؟ ...
مرة اخرى لم يفهم الأب ، ومع ذلك ازدادت ابتسامته وداعة ولطفا .
ــ كيف لا تفهم يا بابا ؟
وشرحت له النكتة أخيرا ، فقال مرتبكا بعض الارتباك :
ــ ها ... نعم ... هم ... لطيف .. فى مرة اخرى ، يقول نكتة الطف ايضا .
قال ذلك وانفجر ضاحكا .
وصاحت ماريا نيكيتشنا تقول بلهجة ساخرة ،
ــ لايمكن أن يملك المرء جميع المواهب فى آن واحد ، اليس كذلك يا بافل بافلوفتش ؟
ثم هتفت وهي تنهض فجاة :
ــ ما بك ؟ انه يختنق .. لا شك انها حسكة من السمك !
وعم الاضطراب ، وهذا بعينه ما كانت تريده ماريا نيكيتشنا ، مع أن كل ما فى الأمر أن بافل بافلوفتش قد غص بجرعة من الخمر شربها اخفاء لخجله واضطرابه . ولكن ماريا نيكيتشنا اخذت تحلف ايمانا مغلظة بانها « حسكة سمك ، وبانها رأت الحسكة بأم عينها ، وبأن ذلك يمكن أن يسبب الوفاة » .
صاح أحدهم يقول :
ــ اضربيه على ظهره !
فقال زاخليبينين :
ــ هذا خير ما يعمل ، حقا !
وتطوع المتطوعون للنهوض بهذه المهمة . ان ماريا نيكيتشنا ، والفتاة القصيرة الحمراء (وقد دعيت ايضا الى تناول الغداء) ، والسيدة زاخليبينين نفسها ، (وقد ذعرت ذعرا شديدا) ، هؤلاء جميعا أردن أن يضربن بافل بافلوفتش الذى نهض عن المائدة ، واخذ يحاول الافلات منهن ، مؤكدا لهن أن الامر لا يعدو أن يكون غصة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن سعاله سيهدأ فورا . وفهم الجميع أن ذلك كان «مقلبا» من ماريا نيكيتشنا .

ــ هذا يتجاوز الحدود ، انك تسرفين ...

هذا ماحاولت السيدة زاخليبينين أن تقوله لها بلهجة قاسية ، ولكنها لم تستطع أن تكمل عبارتها ، بل انفجرت فى ضحكة مجنونة ليست من عادتها ، فأحدث ذلك أثره أيضا .

وبعد الغداء ، احتسوا القهوة على الرصيف .

قال زاخليبينين بلهجة فخمة وهو يتأمل الحديقة راضيا مسرورا :

ــ ما أجمل هذه الأيام فى هـــذه السنة . ولكن لعلنا أصبحنا فى حاجة الى مطر غزير .

ثم أضاف وهو ينهض :

ــ أنا ذاهب لارتاح قليلا . اتمنى لـكم تسلية جميلة ! اتمنى لك أيضا تسلية جميلة .

قال جملته الاخيرة هذه وهو يربت على كتف بافل بافلوفتش ، ثم خرج .

فلما نزلوا جميعا الى الحديقة ، هرع بافل بافلوفتش فجأة نحـو فلتشانينوف ، وأمسكه من كمـه ، وهمس فى أذنه وقد فرغ صبره يقول :

ــ دقيقة من فضلك .

ودخلا فى ممر بالحديقة منعزل . فقال بافل بافلوفتش بصـوت منخفض يخنقه الغيظ وهو يشد على ذراع فلتشانينوف :

ــ لا ، لا ، لن أسمح لك فى هذه المرة ، اعذرنى ... لن اسمح لك فى هذه المرة ...

فسأله فلتشانينوف محملقا :

ــ ماذا ؟ ماذا هناك ؟

فنظر اليه بافل بافلوفتش دون أن يستطيع الـكلام . كانت شفتاه ترتجفان ، وكان يبتسم ابتسامة الحنق والغضب .

ووصلت أصوات الفتيات من بعيد تنادى مستعجلة :

ــ اين ذهبتما ؟ أين انتما ؟ لقد هيأنا كل شيء !

فهز فلتشانينوف كتفيه ، ومضى يلحق بهن، فأسرع بافل بافلوفتش يتبعه .

قالت ماريا نيكيتشنا :

ــ أراهن أنه طلب منك منديلا ! لقـد نسي منديله فى المرة الماضية .

واسرعت احدى بنات زاخليبينين تقول :
ـ انه ينسى منديله دائما .
ـ نسي منديله ! بافل بافلوفتش نسي منديله ! ـ ماما ، بافل بافلوفتش نسي منديله هذه المرة أيضا ! ـ ماما ، بافل بافلوفتش أصيب بزكام مرة اخرى !
هكذا كانت أصوات تصرخ من كل جانب .
فقالت السيدة زاخليبينين بصوت بطيء :
ـ ولكن لماذا لا يقول ؟ لماذا هذه الكلفة ؟ الزكام لا مزاح معه . سآتيك بمنديل . ولكن كيف يمكن أن يكون مصابا بزكام دائما ؟
أضافت سؤالها الاخير هذا وهي تبتعد ، وقد أسعدها كثيرا أن تجد حجة للعودة الى البيت .
فصرخ بافل بافلوفتش يقول لها :
ـ معي منديلان ، وليس بي أي زكام .
ولكنها لم تسمعه . وما هي الا بضع لحظات ، بينما كان بافل بافلوفتش يتبع الآخرين ويحاول أن يكون اقرب ما يمكن من ناديا وفلتشانينوف ، اذا بخادمة تصل لاهثة ، حاملة اليه منديلا .
وتعالت أصوات من كل جانب تقول :
ـ هيا بنا نلعب لعبة الامثال .
كأنهم قد بيتوا أمرا ، فهم يتوقعون أن يجنوا من هذه اللعبة لذة خاصة لا يعلم الا الله ما عسى تكون .
واختاروا مكانا ، وجلسوا على المقاعد . وكان على ماريا نيكيتشنا أن تكون أول الحازرين . فطلب اليها أن تبتعد اكثر ما يمكن ، والا تحاول التسمع على ما يقولونه . حتى اذا اختاروا المثل ، توزعوا الكلمات فيما بينهم فلما نادوا ماريا نيكيتشنا حزرت المثل فورا . كان المثل هو : الخطر عظيم ولكن الله رحيم .
ثم جاء دور الشاب الأشعث ذي النظارتين الزرقاوين . فاتخذت معه احتياطات أكبر : قيل له أن يبتعد حتى يصل الى حيطان البيت وأن يدير وجهه الى الجدار . وقام هـذا الشاب بواجبه متعاليا محتقرا ، كأنه يشعر ان هذا اللعب يذله ، فلما نودي لم يستطع أن يحزر : طاف على الحلقة مرتين ، وجعل كلا من افرادها يكرر الجملة التي قالها ، وفكر مدة طويلة ، قاتم الوجه مظلم الأسارير ، على غير طائل . فأخذوا يعيرونه ، على العادة في هذه اللعبة . وكان المثل الذي يجب أن يحزره هو : ما صلاة لله ، ولا خدمة للقيصر بذاهبة سدى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الشاب متذمراً ، وهو يعود فيجلس فى مكانه مهانا :
ــ المثل سخيف أصلا !
وارتفعت أصوات تقول متململة :
ــ ما هذه اللعبة المملة !
وجاء بعد ذلك دور فلتشانينوف . فاضطروه أن يبتعد أكثر من ذلك أيضا . ولم يستطع أن يحزر هو الآخر، فزاد عدد الأصوات المتململة قائلة :
ــ ما هذه اللعبة المملة ! ما هذه اللعبة المملة !
قالت ناديا :
ــ الآن دورى أنا .
فصرخن جميعا بحماسة :
ــ بل دور بافل بافلوفتش ، دور بافل بافلوفتش .
ثم اقتيد بافل بافلوفتش الى جـــدار السور ، فاوقف هنالك واضعا أنفه فى زاوية ، وجعلت الفتاة الحمراء القصيرة رقيبة عليه .. استرد بافل بافلوفتش بعض هـــدوئه ، وعاد اليه شىء من صفاء المزاج ، فكان يستعد للقيام بواجبه على أدق وجه . فوقف ساكنا كأنه حطبـــــة ، لا يجرؤ أن يلتفت الى الوراء ، ولا يزيح عينيه عن الجـــدار . وكانت الصغيرة الحمراء تراقبه مضطربة على بعـــد عشرين خطوة منه ، وتلوح للفتيات سرا . كان واضحا أن ثمة حادثا ينتظرنه بصبر فارغ . وفجأة حركت الصغيرة الحمراء يديهـــا ، فاذا هن يهربن جميعا بخطا راكضة سريعة .
ــ اركض ، اركض ، مالك لا تركض ؟
هكذا قالت لفلتشانينوف أصوات عشر بنات فى آن واحد ، وقد أقلقهن أنه لا يزال فى مكانه .
فسألهن وهو يتبع الآخرين :
ــ ماذا هنالك ؟ ما الذى حدث ؟
ــ اسكت . لا تصرخ . سيبقى واقفا هناك ، لاصقا انفه بالجدار . أما نحن فنهرب . انظر ها هى ذى ناستيا تهرب أيضا .
كانت ناستيا (الفتـــــاة القصيرة الحمراء) تركض كمن طاش صوابها ، وهى تحرك ذراعيها ، لكان أمرا لا يعلمه الا الله قد وقع. ووصلوا أخيرا الى الطرف الثانى من الحديقة ، ووراء غدير . فلما أدركهم فلتشانينوف رأى كاترينـــا فيدوسيفنا تناقش الفتيـــات

الاخريات ،وخاصة ناديا وماريا نيكيتشنا ، نقاشا حارا . قالت لها ناديا وهي تقبلها :

ــ كاتيا ، حبيبتي ، لا تغضبي .

ــ طيب . لن أقول ذلك لماما . ولكنني ذاهبة . ان هذا عيب . ما عساه يقول هذا المسكين ، قرب الجدار ؟

قالت ذلك ، ثم تركتهن ... الا أن الاخريات لم تأخذهن به رحمة ولا شفقة . وطلبن الى فلتشانينوف الا يلتفت الى بافل بافلوفتش أى التفات حين يلحق بهن بعد قليل ، كأن شيئا لم يقع . وصاحت الفتاة القصيرة الحمراء تقول فرحة أشد الفرح :

ــ والآن فلنلعب لعبة السباق .

لم يلحق بهم بافل بافلوفتش الا بعد ربع ساعة فى اقل تقدير ، ولا شك أنه قضي ثلثي هــــذا الوقت ساكنا قرب الجدار . كانوا يلعبون فى حماسة ، وكانت الفتيات جميعا تصرخ وتضحك ، فهــرع بافل بافلوفتش الى فلتشانينوف راسا ، وقد جن جنونه من الحنق ، فأمسك بكمه مرة أخرى ، وقال له :

ــ لحظة قصيرة ، من فضلك .

ــ هوه ! ما أكثر لحظاته القصار المزعجة !

قالت عدة أصوات فى آن واحد :

ــ انه فى حاجة الى منديل أيضا .

قال بافل بافلوفتش وهو يقرع أسنانه :

ــ أنت السبب ، فى هذه المرة ، أنت السبب !

فقاطعه فلتشانينوف ، ونصحه ، هادئا كل الهدوء ، بأن يكون مرحا ، قال له : « هذا هو السبب فى أنهن يسخرن منك . انت مزعج ، بينما جميع الناس يلهون ويضحكون ويعبثون » . وما كان أشد دهشة فلتشانينوف حين رأى إن كلماته أثرت في بافل بافلوفتش تأثيرا قويا ، فاذا هو يصمت فجأة ، بل يطاطىء رأسه ذلا وانكسارا ، ويلحق بالموكب ثم يشارك فى الألعاب خاضعا طيعا . وقد عاملنه خلال فترة من الوقت معاملة لطيفة ، فكن يلعبن معه كما يلعبن مع غيره ، وما هى الا نصف ساعة حتى عاد اليه مرحه تاما كاملا . وكان ، اذا اختار كل واحد من الرجال سيدة له ، يختار هو الفتـــــاة القصيرة الحمراء « الخائنة » ، أو يختـــــار احدى أخوات ناديا . ودهش فلتشانينوف كثيرا حين لاحظ أن بافل بافلوفتش لم يتجه الى ناديا مرة واحدة بالكلام ، رغم أنه كان يحوم حولها دائما . كان يبدو على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل حال انه ارتضى عدم احتفالهن به ، كان ذلك الامر طبيعي لا غرابة فيه . ولكنهن دبرن له ، في النهاية ، « مقلبا » جديداً .

كانوا يلعبون لعبة « الاختباء » ، وكان يسمح للشخص أن ينتقل اثناء اختبائه ، من مكان الى مكان . وقد خطر فجأة على بال بافل بافلوفتش الذى اختبأ تحت دغل كثيف ، أن يختبىء فى البيت . فلما رأينه يركض ، دوت صرخاتهن . فصعد السلم بسرعة ، وهرع الى القبو . كان يعرف هنالك ركنا صغيرا وراء صندوق ، فأراد أن يندس فى ذلك الركن . غير أن الفتاة القصيرة ركضت وراءه على رءوس أصابعها ، فلما وصلت الى الباب ، اغلقته وأدارت مفتاحه . فانقطعت البنات عندئذ جميعا عن اللعب ، كما فعلن فى المرة الماضية ، وهربن لا يلوين على شيء . ولاحظ بافل بافلوفتش بعد عشر دقائق أن أحدا لا يبحث عنه ، فنهض من مكانه ، ومد رأسه من النافذة ، فلم ير أحدا . لم يستطع أن ينادي ، مخافة أن يوقظ الابوين . وقد اوعزت البنات الى الخادم والى الطباخة ايعازا شديد اللهجة أن تختفيا ، والا تردا على بافل بافلوفتش اذا هو صرخ ينادي أحدا . فما كان يمكن أن ينقذه احد غير كاترينا فيدوسويفنا . ولكن كاترينا كانت قد غفت حين عادت الى غرفتها تحلم . وهكذا ظل بافل بافلوفتش سجينا قرابة ساعة ، ظهرت بعدها الفتيات واحدة بعد الأخرى

ــ بافل بافلوفتش ! لماذا لا تجيء الينا ؟ ان جونا مرح جدا . اننا نلعب لعبة المسرح . الكسي ايفانوفتش يمثل دور الفتى الاول .

ــ بافل بافلوفتش ! ماذا تصنع هناك ! انك لتدهشنا حقا ! ...

ــ ماذا هنالك ؟

هكذا دوى فجأة ، صوت السيدة زاخليبينين . لقد استيقظت ، فقررت أن تنزل الى الحديقة ، وأن تشاهد ألعاب « الأولاد » بانتظار موعد الشاى .

ــ أنظرى الى بافل بافلوفتش !

قلن لها ذلك ، واشرن بالاصابع الى النافذة التى يرى فى اطارها وجه بافل بافلوفتش الشاحب من الحنق ، المتشنج بابتسامة .

قالت السيدة العجوز وهي تهز رأسها :

ــ اية لذة يجد فى البقاء هناك وحده ، بينما الآخرون يلهون ويتسلون؟

فى اثناء ذلك الوقت ، كان فلتشانينوف قد شرف بالحظوة بثقة ناديا به ، فشرحت له السبب فى انها « سعدت بزيارته أشد السعادة » . وقد تم الحديث بينهما فى ممر بالحديقة منعزل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اقتربت منه ماريا نيكيتشنا ، وأشارت اليه بيدها ، بينما كان يشارك في اللعب ، ويشعر بحزن عميق الم به فجأة ، ثم قادته الى قرب ناديا ، وتركته وحيدا معها .

بدأت ناديا تقول ، جريئة ، بصوت سريع متعجل :

— ايقنت الآن انك لست صديقا حميما لبافل بافلوفتش ، كما كان يتباهى هو بذلك . واعتقد انك الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يقدم هذه الخدمة الهامة . خذ سواره هذا الكريه (قالت ذلك وسحبت العلبة من جيبها الصغير) ، ورجائي اليك أن ترده اليه حالا ، لأنني لن اخاطبه ما حييت . وتستطيع ان تقول له أنني انا الذي كلفتك بذلك ، وتستطيع أن تطلب منه ، عدا ذلك ، الا يتجرأ بعد الآن على ان يقدم لي اية هدية . اما ما عدا هذا ، فسأكلف به آخرين . هل لك أن تخدمني هذه الخدمة ، وأن تنفذ ما طلبته منك ؟

صاح فلتشانينوف وهو يرد اليها العلبة :

— اعفيني من هذه المهمة ، ارجوك ...

— كيف ؟ اعفيك ؟

دهشت ناديا من رفضه أشد الدهشة ، فحملقت . ثم فقدت سيطرتها على نفسها فجـــأة ، واوشكت ان تجهش باكية . فانفجر فلتشانينوف ضاحكا :

— ليس معنى هذا أنني ... كان يسعدني جدا انه ... ولكن بيننا حسابا يجب ان يصفى ..

فقاطعته تقول بسرعة :

— اعرف انه ليس صديقك ، وانه كذب . لن اتزوجه ابدا . أعرف هذا . بل انني لا افهم كيف تجرأ ان ... ولكن يجب عليك مع ذلك أن ترد اليه سواره القذر ، والا فهل لي من سبيل آخر ؟ أريد حتما ، أن يرد اليه في هذا اليوم نفسه ، أن يتلقى هـــذه الاهانة . واذا تجرأ أن يشكوني الى بابا ، فسيعرف ماسيحدث له ..

وفي هـــذه اللحظة ، انبجس الشـــاب الأشعث ذو النظـــارتين الزرقاوين ، انبجس فجأة من احـــد الادغال . وقال لفلتشانينوف بلهجة حانقة غاضبة :

— يجب عليك أن ترد اليه السوار ... على الاقل باسم حقوق المرأة ... هذا اذا كنت قادرا على الارتفاع الى مستوى ...

ولـكنه لم يستطع أن يكمل جملته . ذلك أن ناديا أمسكت ذراعه بقوة ، ودفعته ، وهي تصيح به :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ما أحمقك يا بردبوسيلوف ! هيا أذهب . هيا اذهب . ولاتسمح لنفسك بعد الآن أن تتجسس علينا . لقد أمرتك بأن تظل بعيدا ...

كانت ناديا تضرب الارض برجليهـــا . وغار الشاب الاشعث في الادغال . ولكنها ظلت تذرع الممر جيئة وذهابا ، وقد خرجت عن طورها ، واتقدت عيناها ، وضمت ذراعيها الى صدرها . ثم وقفت فجأة أمام فلتشانينوف وقالت له :

ـ انك لا تستطيع أن تتصور حماقتهم . انت تضحك ... ولكن فكر فيما يمكن أن أشعر به أنا .

فسألها فلتشانينوف ضاحكا :

ـ ليس هذا هو ، أليس كذلك ؟

ـ طبعا ليس هو . وكيف يمكن أن تظن ان هذا هو ؟

قالت ناديا ذلك مبتسمة ، واصطبغ وجهها بالحمرة. ثم اضافت:

ـ هذا صديقه . ولكننى اتساءل كيف يختار لنفسه مثل هـذا الصديق ! انا لا افهم ذلك . انهم يجمعون على أن لهـــذا الشاب مستقبلا عظيما ... اما انا فــلا أفهم شيئا من هذا ... الكسى انفانوفتش ، ليس ثمة شخص آخر التجىء اليه . كلمة اخيرة : هل ترد السوار ؟

ـ هاتيه ...

ـ ما الطفك ، ما أطيبك .

قالت ذلك وهى تناوله العلبة فرحة كل الفرح . واضافت :

ـ وفى مقابل ذلك ، سأغنى لك طوال السهرة ، لأننى اغنى غناء جيدا جدا ، فاعلم ذلك ... لقد كذبت حين زعمت لك اننى لا احب الموسيقى . ليتك تعود ، ولو مرة واحدة أخرى ... لشد مايسرنى أن تعود . ساقص عليك كل شىء ، كل شىء ، وساروى لك أشياء اخرى كثيرة ، لأنك طيب ، طيب جدا ، مثل كاتيا تماما .

فلما عادوا لتناول الشاى غنت له ناديا فعلا لحنين غراميين بصوت لم يصقل بعد ، ولكنه صوت جميل ما فى ذلك شـــك . كان بافل بافلوفتش جالسا قرب الابوين حول مائدة الشاى التى كان عليهـــا سماور كبير يغلى ، واقداح من خزف سيفر . كان لعله يحدثهما فى امور هامة جدا ، لانه سيسافر بعد غد ، وسيغيب تسعة أشهر . بدا بافل بافلوفتش كأنه لا يهتم بالشبيبة العائدة من الحديقة ، ولا يحفل بفلتشانينوف خاصة . وكان واضـــحا انه لم يشك أمره بعد . وكان كل شىء الى ذلك الحين هادئا . حتى اذا تهيأت ناديا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للغناء ، ظهر فجأة . فتعمدت ناديا الا ترد على سؤال وجهه اليها . ولكنه لم يضطرب من ذلك ولم يرتبك بل جلس وراء كرسيها ، كأنما ليعلن بذلك أن هذا هو مكانه وانه لن يتخلى عنه لاحد .

— الكسى ايفانوفتش هو الذى سيغنى الآن . ماما ، ان الكسى ايفانوفتش يريد أن يغنى .

هكذا صاحت الفتيات وهن يسرعن الى البيانو ، ويتحلقن حول فلتشانينوف الذى جلس اليه جلسة الواثق بنفسه ، واستعد لأن يعزف لنفسه اثناء غنائه . فانتقل الأبوان من قاعة الطعام الى الصالون ، وكذلك فعلت كاترين فيدوسويفنا التى هيأت الشاى .

اختار فلتشانينوف اغنية غرامية من تأليف جلنكا ، اصبحت اليوم منسية :

حين تنفرج شفتاك فى اللحظة الفرحة

فتخاطبينني بكلام ارق من سجع حمامة ...

فغناها متجها الى ناديا الواقفة قربه . لقد فقد فلتشانينوف صفاء صوته منذ مدة طويلة ، ولكن المرء يدرك حين يسمعه أن صوته كان جميلا من غير شك . لقد سمع فلتشانينوف هذه الأغنية ، اول مرة ، منذ عشرين عاما ، حين كان طالبا ، سمعها من جلنكا نفسه ، فى سهرة فنية أقيمت فى بيت أحد أصدقاء المؤلف . ففى ذلك اليوم غنى جلنكا الاغنيات التى كان يؤثرها على غيرها من اغنياته ، وكانت هذه الاغنية من بينها ... وكان جلنكا يومئذ يغنى ويعزف بحماسة وحرارة ، رغم أنه كان قد فقد جمال صوته . ولكن فلتشانينوف لايزال يتذكر الأثر العميق الذى احدثته هذه الأغنية نفسها فى قلوب المستمعين . ما كان لأى فنان حاذق ، ولا لأى مغن من مغنى الصالونات أن يبلغ فى غنائه ما بلغه جلنكا يومئذ من عنف التعبير . ان الهوى ليشتد ويتفتح فى هذه الاغنية عند كل جملة جديدة من اللحن . ومن أجل هذا التوتر الذى ماينفك يزداد ، فان أيسر مبالغة يقع فيها المغنى ، وأبسط خطيئة يقترفها ، مما قد يفوت المرء ادراكه فى أوبرا ، يمكن أن يهدم هنا معنى اللحن ، وأن يضعف دلالته . ان هذه الاغنية البسيطة كل البساطة ، ولكن الرائعة كل الروعة ، تتطلب ممن يريد أن يغنيها غناء تاما ، ان يكون صادق الالهام ، صادق الهوى ، أو أن يعيد خلق ما فيها من شعر ، فى أقل تقدير . والا بدت الاغنية عامية مبتذلة : ان من المستحيل أن يعبر المرء عن هوى عنيف هذا العنف تعبيرا قويا هذه القوة ، بدون أن يثير شيئا من الاشمئزاز ، اللهم الا أن يدخل فيها ما يجب لها من صدق ، وبساطة وشيء من

السذاجة . ان فلتشانينوف يتذكر أنه استطاع فى الماضى أن ينجح فى غنائها نجاحا تاما . لقد تمثل طريقة جلنكا فى غنائها أكمل تمثل . فلما بدأ فى غنائها هذه المرة ، حتى أسكر الالهام روحه وأرعش صوته ، منذ أول نغمة من اللحن ، منذ أول بيت من القصيدة . فاذا العاطفة تزداد تدفقا وتزداد جرأة فى التعرى ، عند كل كلمة جديدة ، واذا الأبيات الأخيرة أشبه بصرخات من صرخات الهوى الجامح ، حتى اذا غنى هذه الابيات ، وهو يشخص بعينيه المتقدتين الى ناديا :

الآن انظر فى عينيك نظرة جريئة .. واقرب شفتى من شفتيك
بعد أن فقدت القدرة على الاصغاء الى كلامك ،
أريد ان اقبلك ، أن أقبلك ، أن أقبلك .

ارتعشت ناديا بما يشبه الخوف ، حتى لقد تراجعت بحركة صغيرة الى الوراء ، واصطبغ خداها بحمرة الدم ، ولاحظ فلتشانينوف فى وجهها الخجل الوجل تعبيرا سريعا عن الرضا والقبول. وبدا على جميع المستمعين انهم مفتونون ، ولكنهم مضطربون ، كأنهم يعتقدون جميعا أن من المستحيل ، أن من المخجل أن يغنى المرء هكذا . ومع ذلك كانت وجوههم تحمر ، وعيونهم تتقد ، وكأنهم ينتظرون أن يستمر المغنى على الغناء . ولاحظ فلتشانينوف خاصة وجه كاترينا فيدوسويفنا الذى اوشك أن يصبح جميلا .

ودمدم العجوز زاخليبينين يقول مضطربا :

ــ ها ... هذه اغنية ... ولكن أليست عنيفة مسرفة فى العنف ؟ انها جميلة جدا ، ولكنها عنيفة ...

وتدخلت امرأته تقول :

ــ نعم هى عنيفة ...

ولكن بافل بافلوفتش لم يتح لها أن تتم كلامها ، فقد نهض مسرعا ، وكما بفعل مجنون فقد كل سيطرة على نفسه ، مضى نحو البيانو ، فأمسك بذراع ناديا وابعدها عن فلتشانينوف بعنف ، وقد أصبحت عيناه كعينى وحش كاسر ، واخذت شفتاه ترتجفان ، فقال لفلتشانينوف بصوت متقطع :

ــ أريد أن أكلمك

ادرك فلتشانينوف أن بافلّ بافلوفتش قادر فى الحالة التى هو فيها ، على ارتكاب أفظع الاعمال الجنونية ، فأمسك يده ، وخرج به دون ان يلتفت الى ما أصاب الحاضرين من دهشة ، خرج به الى الرصيف ، وسار به بضع خطوات فى الحديقة التى أوشكت أن يعمها الظلام

قال بافل بافلوفتش :
ـ هل تعرف أن عليك أن تذهب معي ، حالا ، في هذه اللحظة ؟
ـ لا ، لا أعرف .
فاستأنف بافل بافلوفتش يقول بصوت حار ، ولكنه مختنق :
ـ هل تتذكر انك أردتني ذات يوم على أن أقول لك كل شيء ، كل شيء ، صراحة ؟ أن أقول لك « الكلمة الاخيرة » ؟ هل تتذكر ؟ اذن فاعلم ان الوقت قدحان وانني سأقول لك هذه الكلمة فلنذهب!
فكر فلتشانينوف ، ورمى بافل بافلوفتش بنظرة أخيرة ، ووافق على الذهاب .
فلما أعلنا انهما ذاهبان دهش الابوان واستاءت البنات جميعا .
قالت السيدة زاخليبينين بصوت شاك :
ـ فنجان من الشاي ، على الأقل ...
وقال العجوز زاخليبينين بلهجة مستاءة قاسية ، متجها بكلامه الى بافل بافلوفتش الذي كان صامتا يحاول أن يبتسم :
ـ فيم اضطرابك هذا ؟
وأسرعت البنات تقلن لبافل بافلوفتش ، وهن ينظرن اليه غاضبات:
ـ لماذا تأخذ الكسي ايفانوفتش ، يابافل بافلوفتش ؟
أما ناديا فقد رمته بنظرة فيها من السوء ما جعله يرتبك ويشعر بكثير من الحرج ، ولكنه لم يخضع .
قال فلتشانينوف وهو يصافح رب البيت ويودع السيدة زاخليبينين ويودع الفتيات ، وينحني أمام كاترينا فيدوسوينا انحناءة خاصة لوحظت :
ـ اني لأشكر بافل بافلوفتش على أنه ذكرني بأمر خطير كل الخطورة كنت قد نسيته .
قال زاخليبينين بلهجة عميقة نافذة :
ـ نشكر لك زيارتك هذه ، وسيسعدنا دائما أن نراك .
وأضافت زوجته تلح بحرارة :
ـ نعم ، سيسعدنا أن نراك .
ـ عد الينا ، يا اليكسي ايفانوفتش ، عد الينا .
هكذا صاحت به الفتيات من أعلى الشرفة ، بينما كان يركب العربة الى جانب بافل بافلوفتش ، حتى لقد خيل اليه أنه سمع صوتا صغيرا يهتف هتافا دون هتاف الاخريات علوا : « عد الينا أيها العزيز ، ايفانوفتش » فقال في نفسه « انها الحمراء القصيرة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١٣ -

الى أى جهة يميل الميزان

كان لايزال قادرا على ان يفكر فى الفتاة القصيرة الحمراء ، ولكنه كان مستاء من نفسه ، وكان آلندم يقلق روحه . ثم انه طوال ذلك اليوم الذى انقضى مرحا كل ذلك المرح فى الظاهر ، لم يتركه حزنه لحظة واحدة ، حتى انه قبل أن يأخذ بالغناء أصبح لايعرف كيف يتخلص من هذا الحزن . ولعل هذا هو السبب فى أنه استطاع أن يغنى الاغنية الغرامية بعاطفة مشبوبة .

قال لنفسه بمرارة : « كيف امكننى ان انحدر الى هذا الدرك ... وان انسى كل شيء ؟ » ولكنه اسرع يدفع افكاره فى مجرى آخر . لقد تراءى له أن من الذل والهوان أن يئن ويتفجع . ان من الافضل ان يصب غضبه على شخص ما ، بأسرع ما يمكن .

فدمدم يقول حانقا ، وهو يلقى نظرة مواربة على بافل بافلوفتش الذى كان يجلس الى جانبه صامتا :

ــ احمق .

ولكن بافل بافلوفتش اصر على صمته . لعله كان يهيىء نفسه ، ويستجمع افكاره . كان من حين الى حين يرفع قبعته بحركة نافدة الصبر ، ويمر على جبينه بمنديله .

قال فلتشانينوف لنفسه مهتاجا : « انه يعرق » .

ولم يفتح بافل بافلوفتش فمه بكلام الا مرة واحدة ، ليسأل الحوذى هل ينذر الجو بعاصفة ؟ فأجابه الحوذى :

ــ آ ... طبعا ... كيف لا ؟ لقد كان النهار ثقيلا جدا ...

واربدت السماء فعلا . ولمعت بروق بعيدة تخدد الأفق . ووصلت العربة الى المدينة فى الساعة الحادية عشرة .

فلما امست غير بعيدة عن منزل فلتشانينوف ، قال بافل بافلوفتش منبها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- سأذهب الى بيتك .
- أعرف ذلك ، ولكنني انبهك منذ الآن الى انني مريض حقا .
- لن أمكث مدة طويلة .
فلما دخلا باب العمارة ، مضى بافل بافلوفتش لحظة الى مافرا في حجرة البواب . حتى اذا لحق بفلتشانينوف سأله هـــذا بلهجة قاسية :
- ماذا ذهبت تصنع هناك ؟
ودخلا البيت .
فأجابه بافل بافلوفتش بقوله :
- لا شيء ... من أجل العربة .
- لن أسمح لك أن تشرب .
جلس بافلوفتش على المقعد . ووقف فلتشانينوف أمامه عابسا مظلم الوجه ، ثم قال له بغيظ لايزال مكبوحا :
- انا أيضا وعدتك بأن أقول لك الكلمة « الأخيرة » ! اسمع : انني أرى ، وأنا أملك وعيي كاملا ، أن جميع المســائل قد صفيت بيننا تصفية حاسمة ، فلم يبق اذن ما يقوله احدنا للآخر . أفليس من الافضل ، والحالة هذه ، أن تذهب فورا ، وأن أغلق الباب وراءك ؟
فقال بافل بافلوفتش أخيرا ، وهو ينظر في عيني صـــاحبه نظرة وديعة رفيقة :
- لنصف حساباتنا يا الكسي ايفانوفتش .
قال فلتشانينوف ، وقد دهش اشد الدهشة :
- نصفي حساباتنا ؟ يا له من تعبير غريب هذا الذي تستعمله ! أي حسابات تعني ؟ أهذه هي اذن الكلمة الاخيرة التي وعدت ؟
لم يجب بافل بافلوفتش ، واشعل فلتشانينوف شمعة ، فما لبث بافل أن قال :
- هذه هي ..
- لم يبق بيننا حسابات نصفيها . لقد تمت التصفية منـذ مدة طويلة .
قال فلتشانينوف ذلك بزهو وصلف .
فأجابه بافل بافلوفتش بلهجة مؤثرة وهو يضم يديه ضما وثيقــا بحركة غريبة ، على صدره :
- هل تعتقد بذلك حقا ؟
فلم يجبه فلتشانينوف ، بل أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان قلبه يئن قائلا : « ليزا ؟ » . وقال بعد صمت طويل :
ــ كيف تريد أن أسدد ما على ؟
كان بافل بافلوفتش ما ينفك يتابعه بعينيه ، ويداه لا تزالان مضمومتين على صدره ، فدمدم بصوت متوجع يقــــول وهو ينهض فجأة عن مقعده :
ــ لا تذهب بعد الآن الى هناك !
ــ كيف ؟ أهذا كل شيء ؟
قال فلتشانينوف ذلك ، وضحك ضحكة خبيثة ، ثم اضاف يقول باحتقار :
ــ استطيع أن أقول انك ادهشتني اليوم .
ولكن تعبير وجهه مالبث أن تبدل فجأة ، فقال بصوت حزين ، وعاطفة عميقة :
ــ اسمعني يا بافل بافلوفتش . أعتقد أنني ما هبطت يوما ، في أي ظرف من الظروف ، الى مثل هذا الدرك الاسفل الذي هبطت اليه اليوم : اولا بقبولي مرافقتك الى هناك ، وثانيا بسلوكي الذي سلكته هناك ... هذه ضعة ، هذه حقارة ... لقد دنست نفسي .. لقد حقرت شرفي ، اذ ارتضيت .. نسيت .. نعم .. ثم ماذا ؟
ولم يتم فلتشانينوف كلامه ، فقد ثاب الى رشده . ثم أردف يقول :
ــ اسمع ! لقد غافلتني اليوم مغافلة ... كنت مهتاجا ، مريضا ... ولكن علام ابرر نفسي ؟ انني لن اذهب الى هناك ، وأؤكد لك أنه لا شيء يغريني بالذهاب .
ــ حقا ؟ حقا ؟
هكذا صاح بافل بافلوفتش دون أن يخفي فرحه . فنظر اليه فلتشانينوف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، باحتقار، ثم استأنف سيره في الغــــرفة . ولم يستطع اخيرا ان يمنع نفسه عن ان يقول لصاحبه :
ــ يظهر انك مصر كل الاصرار على أن تكون سعيدا .
فأجابه بافل بافلوفتش بصوت عذب يقول :
ــ نعم .
قال فلتشانينوف لنفسه :«هل يهمني الا يكون الا مهرجا ، وأن لا يكون خبثه الا حماقة وشباء ؟ انني لا أستطيع الا ان اكرهه ،حتى لو كان لا يستحق الكره » .

قال بافل بافلوفتش وهو يبتسم ابتسامة ذليلة مذعنة :
ــ لست الا « زوجا أبديا » . لقد تعلمت منك هذا التعبير ، يا الكسى ايفانوفتش ، حين كنت لاتزال تقيم قربنا. حفظت ، فى تلك السنة ، كثيرا من تعابيرك . فلما قلت فى المرة الماضية ، هنا، « الزوج الابدى » ، فهمت .
دخلت مافرا تحمل زجاجة شمبانيا ، وقدحين .
ــ اعذرنى يا الكسى ايفانوفتش ، فأنت تعرف حق المعرفة أننى لا استطيع ان استغنى عن هذا . لا تعد ذلك وقاحة منى ، ولا تنظر الى نظرتك الى غريب ، نظرتك الى شخص غير جدير بك أبدا .
فقال فلتشانينوف يأذن له مشمئزا :
ــ اشرب . ولكننى أؤكد لك اننى مريض .
فأسرع بافل بافلوفتش يقول :
ــ نعم ، حالا ، حالا . كأس واحد لا اكثر ، ان حلقى ...
قال ذلك وافرغ كأسه فى جوفه بسرعة ، دفعة واحدة ، وجلس وهو يلقى على فلتشانينوف نظرات توشك أن تكون عاطفية .
وخرجت مافرا .
دمدم فلتشانينوف يقول :
ــ عار ، عار .
ــ الذنب ذنبهن ، هؤلاء الصديقات الصغيرات . ثم انهن فى ميعة الصبا، وتمام النضج... يعبثن ويلهون... بل ان هذا لفاتن ساحر. وهناك سأكون خادمها ... انت تفهم ذلك . ستجد نفسها محاطة بألوان الرعاية والاحترام ... المجتمع الراقى ... لسوف تتبدل كل التبدل .
قال فلتشانينوف لنفسه مسرورا وهو يتلمس العلبة فى جيبه :
« يجب مع ذلك ان أرد له السوار » .
وتابع بافل بافلوفتش كلامه يقول بلهجة النجوى والمسارة ، بلهجة رقيقة :
ــ كنت تقول منذ لحظة اننى مصر على أن أكون سعيدا . وهذا صحيح ، والا ما عسى أن أصير اليه من مصير ؟ انظر ! (قال ذلك وأشار الى الزجاجة) . وهذه أيسر عيوبى وآفاتى . لا أستطيع أن أعيش اذا لم أتزوج ، اذا لم أسترد ثقتى القديمة بنفسى . ان الايمان يبعثنى بعثا جديدا .
ــ ولكن لماذا تقص على هذه الامور كلها ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالَ فلتشانينوف ذلكَ وأوشكَ أن ينفجر ضاحكا . لقدْ بدا له ذلك مضحكا . ثم أردف :

ــ قل اخيرا لماذا جررتني الى هناك ؟ ماذا كانت حاجتك الى ؟

ــ لأعرف ...

بدأ بافل بافلوفتش يقول ذلك ثم اذا به يرتبك فجأة اشد الارتباك.

ــ لتعرف ماذا ؟

ــ لأعرف مايكون لك من تأثير... اسمع يا الكسى ايفانوفتش .. انني لم ابدأ محاولتي هناك الا منذ أسبوع (كان يزداد ارتباكه) ، وقد لقيتك أمس ، فقلت في نفسي : « انني لم أره بعد في مجتمع من الغرباء ، مع أناس غيري » . فكرة حمقاء ، اشعر بذلك الآن . فكرة حمقاء لا محل لها . ولكن الاغراء كان اقوى من ان استطيع دفعه . ذلك هو طبعي السيء .

قال ذلك ورفع راسه فجأة ، وقد احمر وجهه .

تساءلْ فلتشانينوف مذهولا : « ترى هلْ يقول كلَّ الحقيقة ؟ » .

ثم سأله :

ــ ثم ماذا بعد ذلك ؟

فابتسم بافلْ بافلوفتش ابتسامة الرضا الماكر ، وقالْ :

ــ لم يكن ذلك كله الا لعبا طفوليا جميلا! والذنب ذنب الصديقات على كل حال . اغفر لي سلوكي الأحمق اليوم معك . الكسى ايفانوفتش لن أفعل ذلك مرة اخرى أبدا ، لن يقع هذا مرة اخرى ابدا .

قال فلتشانينوف وهو يبتسم :

ــ ولكنني لن أذهب الى هناك بعد الآن .

ــ اعتمد على ما تقولْ .

فاغتاظ فلتشانينوف لحظة ، ثم قالْ :

ــ ولكنني لست الانسان الوحيد في الدنيا .

فاحمر وجه بافلْ بافلوفتش من جديد وقالْ :

ــ يؤلمني أن أسمعك تقول هذا الكلام يا الكسى ايفانوفتش : انني أحترم ناديجدا فيدوسويفنا كثيرا . صدقني .

ــ عفوك ، ما قصدت شيئا . ولكنني أستغرب مع ذلك انك وثقت بي هذه الثقة الكاملة كلها ، رغم ما تظنه في من قدرة عظيمة على الاغراء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ما وثقت كل هذه الثقة ، الا لان الامر يجرى الآن ، بعد كل ما جرى فى الماضى .

— أانت اذن لا تزال تعدني الى الآن رجلا شريفا كل الشرف .

قال فلتشانينوف ذلك وتوقف عن الكلام فجأة . ان سذاجة هذا السؤال كان يمكن أن تدهشه هو نفسه فى غير هذه اللحظة .

قال باقل بافلوفتش وهو يغض طرفه :

— لقد عددتك دائما كذلك .

— نعم نعم ، طبعا ، ما الى هذا قصدت ، ما اردت هذا المعنى ... وانما اردت أن اقول : رغم كل التقديرات ...

— نعم رغم كل التقديرات ...

— وحين سافرت الى بطرسبرج ؟

لم يستطع فلتشانينوف أن يمنع نفسه عن طرح هذا السؤال ، على علمه بأن استطلاعه هذا شيء خبيث شيطانى .

— حين سافرت الى بطرسبرج ، كنت اعدك ايضا رجلا شريفا كل الشرف . كنت أقدرك واحترمك دائما يا الكسى ايفانوفتش .

رفع باقل بافلوفتش عينيه ، واخذ ينظر الى خصمه صراحة ، دون أي اضطراب . فشعر فلتشانينوف بشيء من الخوف فجأة ، فلم يحاول أن يحدث بعد ذلك أى انفجار ، وأراد الا تتجاوز الأمور حدا ما ، ولا سيما بخطيئة منه .

— كنت احبك كثيرا يا الكسى ايفانوفتش ... كنت طوال تلك السنة التى قضيتها فى ت... أشعرنحوك بالحب... كنت أنت لا تلاحظ ذلك (قال هذا بصوت مرتجف أخاف فلتشانينوف). كنت انا اهون عندك من أن احملك على ملاحظة ذلك . على كل حال ، ربما كان ذلك أفضل . وخلال هذه السنين التسع الطويلة كنت اتذكرك دائما ، لأننى لا اتذكر سنة تشبه تلك السنة (التمعت عينا باقل بافلوفتش التماعا غريبا). وقد حفظت عددا كبيرا من تعابيرك، ومن آرائك. كنت اتذكرك دائما ، كرجل حار القلب ، نبيل العواطف، مثقف ، مثقف جدا ، صاحب أفكار : « الأفكار الكبيرة ثمرة القلب الكبير لا العقل الكبير». هذا ما قلته انت ، ولعلك لاتتذكره ، اما أنا فقد حفظته . كنت ارى فيك دائما انسانا ذا قلب . فكنت أعتمد عليك ، وكنت أثق بك رغم كل شيء ...

أخذت ذقنه ترتجف فجأة . وذعر فلتشانينوف . كان لابد من قطع هذه اللهجة غير المتوقعة قطعا سريعا . فتمتم فلتشانينوف

يقول ، وقد احمر وجهه ، وانزعج وذهب صبره :
ـ كفى ، ارجوك .
ثم صاح فجاة يقول :
ـ ولـكن لماذا ، لماذا تلاحق رجلا مريضا ، مهدم الأعصاب ، يكاد يهذى ؟ لماذا تجره الى ظلمات كثيفة ... مع ان هذا كله ليس الا أشباحا ، وسرابا ، وكذبا شائنا ، وسرفا ... والسرف هو الشيء الأساسى ، هو ما يثير الحنق اكثر من اى شيء آخر: السرف . كل ذلك سخيف مضحك . نحن كلانا فاسدان ، خبيثان ، نحن كلانا كاذبان . هل تريد ، هل تريد أن أبرهن لك فورا على انك لا تحبنى ، على انك تكرهنى من أعماق نفسك ، وعلى انك تكذب دون أن تعرف ذلك انت نفسك ؟ لقد اخذتنى الى هناك ، لقد جررتنى الى هناك ، لذلك الغرض السخيف المضحك ، وهو أن تمتحن خطيبتك (وهذه فكرة غبية) ، ولـكنك حين رايتنى أمس عاد اليك الغضب ، فأخذتنى الى هناك ، لترينى خطيبتك، ولتقول لى: «حاول ان استطعت !» اردت أن تتحدانى. لعلك كنت لا تعى ذلك ، ولـكن هذا هو الواقع ... هذا ما كنت تحسه . والمرء لا يتحدى هذا التحدى الا اذا كره ، وانت اذن تكرهنى .
كان فلتشانينوف يمسح الأرض جيئة وذهابا ، وهو يقذف هذا الـكلام ، بصوت لاهث ، ذليـل ، يعذبه الشعور بالانحدار الى مستوى بافل بافلوفتش .
قال بافل بافلوفتش فجاة ، بصـوت منخفض ، متعجل ، وقد اخذت ذقنه ترتجف من جديد :
ـ اردت أن أعقد بيننا صلحا ...
فما أن سمع فلتشانينوف هذا الـكلام حتى استبد به غضب مجنون ، كأنه لم يسمع فى حياته اهانة كهذه الاهانة ، فزار يقول:
ـ أعود فأقول لك أنك تلاحق انسانا مريضا مهدم الأعصاب... تلاحقه لتنتزع منه الكلمة التى تنتظرها فى غيرطائل! ولكننا.. نعم.. ولـكننا ننتمى الى عالمين مختلفين ... افهم هذا أخيرا ... ثم ... ثم ان بيننا قبرا ...
قال ذلك بصوت مختنق ، ثم ما لبث أن ثاب الى نفسه .
قال بافل بافلوفتش وقد اصفر وجهه فجاة وتشنج :
ـ ولـكن كيف تستطيع أن تفهم ماذا يعنى هذا القبر بالنسبة الى .. هنا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ذلك وهو يسير نحو فلتشانينوف ، ويضرب صدره ضربة مضحكة ولكنها قوية .

ــ انا أعرف ما هو هذا القبر الصغير . انه بيننا نحن الاثنين ، وأنت وأنا واقفان على طرفيه ... ولكن الطرف الذى اقف عليه انا فيه أكثر .. أكثر ... اكثر ... اكثر ...

ردد كلماته الأخيرة هذه متمتما كأنه يهذى ، وهو ما زال يضرب صدره بيده .

وفجأة قرع الجرس قرعا قويا ذكرهما بنفسيهما . ان الطارق يقرع الجرس قرعا عنيفا كأنه يريد أن يقطع الحبل .

قال فلتشانينوف مضطربا :

ــ ما من أحد يقرع الجرس فى بيتى هذا القرع العنيف .

فتمتم بافل بافلوفتش يقول خجلا ، وقد ثاب الى نفسه وعاد كما كان بافل بافلوفتش منذ برهة :

ــ ليس هذا بيتى مع ذلك .

ومضى فلتشانينوف يفتح الباب مستاء .

قال فى حجرة المدخل صوت شاب قوى ملىء بالثقة :

ــ أظنك السيد فلتشانينوف ؟

ــ ماذا تريد ؟

تابع الصوت القوى الرنان كلامه يقول :

ــ أعرف ان عندك فى هذه اللحظة رجلا اسمه تروسوتسكى . احب ان اراه .

لاشك ان فلتشانينوف كان يسره كثيرا أن يركل هذا الشاب الواثق بنفسه ركلة واحدة بقدمه فاذا هو يتدحرج على السلم . ولكنه فكر فى الأمر لحظة ، ثم تنحى قليلا ، وسمح للطارق ان يدخل :

ــ ادخل ... هذا هو السيد تروسوتسكى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ١٤ —

ساشنكا ونادنكا *

فتى فى ريعان الصبا ما تجاوز التاسعة عشرة من عمره ، ولعله دون ذلك سنا ... ان وجهه الجميل ، المتكبر ، الواثق ، يبدو كانه وجه طفل . انيق الملبس ، أو تناسبه ملابسه على كل حال . اميل الى الطول ، فاحم الشعر غزيره ، يتبعثر شعره خصلات جامحة ، أسود العينين جرىء النظرات ، وذلك كله يضفى على وجهه تعبيرا خاصا . لو لم يكن له من الجمال الا هذا الأنف لكان فتى جميلا .

دخل وقد بدا فى وجهه الجد والرصانة :

— اظن انى احدث السيد تروسوتسكى .

قال ذلك وهو يفصص الكلمات ، ويحرص على أن تخلو عبارته من أى معنى من معانى الاحترام ، ليدل على ان حديثه مع هذا الرجل الملقب باسم تروسوتسكى لا يشرفه ولا يمتعه .

أخذ فلتشانينوف يفهم الأمر ، وبدا على بافل بافلوفتش أيضا انه احس بشىء ما . فقد لاح فى وجهه قلق ، ولكنه حاول أن يسيطر على نفسه . فأجاب بلهجة وقور :

— لم أشرف بمعرفتك قبل الآن ، وافترض انه ليس بيننا شىء مشترك .

— اصغ الى أولا ، ثم تقول رأيك بعد ذلك .

قال ذلك بلهجة رصينة متفخمة . ثم وضع نظارته المربوطة بخيط من الحرير ، وضعها على احدى عينيه وتفرس فى زجاجة الشمبانيا الموضوعة على المائدة . حتى اذا انتهى من تفرسه ، طوى نظارته بهدوء ، وقال يتجه بالكلام مرة أخرى الى بافل بافلوفتش :

* « ساشنكا » هو مصغر الكسندر ، و « نادنكا » هو مصغر « ناديجدا » .

ـ الكسندر لوبوف .

ـ ماذا يعني ، الكسندر لوبوف ؟

ـ الكسندر لوبوف هو انا . الا تعرفني ؟

ـ لا .

ـ ليس لك ان تعرفني على كل حال . لقد جئت لشأن هام يتعلق بك . ولكن اسمح لي أن أجلس فانا متعب ...

قال فلتشانينوف :

ـ اجلس .

ولكن الفتى كان قد جلس قبل أن ينتظر السماح له بالجلوس . شعر فلتشانينوف رغم الألم الشديد الذى كان يحسه في صدره ، والذي كان يتزايد لحظة بعد لحظة ، شعر رغم ذلك باهتمام كبير بهذا الفتى الوقح . وخيل اليه ان ثمة شبها بين هذا الوجه الجميل الوردي وبين ناديا .

قال الفتى لبافل بافلوفتش وهو يشير الى كرسي أمامه ، بحركة مهملة من رأسه :

ـ اجلس انت أيضا .

ـ بل سأبقى واقفا .

ـ ستتعب من الوقوف . أما انت ، ياسيد فلتشانينوف ، فاظن انك تستطيع البقاء .

ـ ليس ما يدعوني الى الخروج . أنا في بيتي .

ـ كما تريد . ويجب أن أعترف لك بأنني أؤثر أن تحضر حديثي مع هذا السيد . لقد كلمتني عنك ناديجنا فيدوسويفنا بكثير من الاطراء .

ـ صحيح ؟ متى اتسع وقتها لهذا ؟

ـ بعد ذهابكما مباشرة . أنا آت الآن من عندهم .

قال ذلك ثم التفت الى بافل الذى كان لا يزال واقفا ، واضاف يقول ببطء :

ـ اليك الموضوع ياسيد تروسوتسكي . اننا أنا وناديجدا فيدوسويفنا يحب كل منا الآخر منذ مدة طويلة ، وقد تعاهدنا على الزواج . وانت تقف الآن حائلا بيننا . وانما جئت اليك لأطلب منك أن تنسحب . فهل انت مستعد لأن تطيع ؟

أوشك بافل بافلوفتش أن يقع ، واصفر وجهه ، ولكن ابتسامة خبيثة شوهت شفتيه . فقال بوضوح :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لا ، أبداً (*)
فتبختر الفتى على مقعده ، ووضع ساقا على ساق ، وقال :
ـ هكذا ؟
فأضاف بافل بافلوفتش يقول :
ـ انني لا أعرف الشخص الذى أكلمه . وأظن انه لم يبق ما يقوله أحدنا للآخر .
فلما فرغ من النطق بهذه الكلمات رأى من المستحسن أن يجلس هو أيضا . فقال له الفتى فى اهمال :
ـ ألم أقل لك انك ستتعب ؟ أما عن الشخص الذى تكلمه فقد سبق أن قلت لك ان اسمى لوبوف ، واننا أنا وناديا فيدوسويفنا قد خطب أحدنا الآخر . فلا تستطيع اذن أن تقول انك لا تعرف الشخص الذى تكلمه ، لا ولا تستطيع أن تظن انه لم يبق ثمة ما يقوله كل منا للآخر . ان الأمر لا يتعلق بى وحدى ، بل يتعلق ايضا بناديجدا فيدوسويفنا التى تلاحقها هذه الملاحقة الوقحة . هذا وحده سبب كاف للحديث بيننا .
أخرج هذا الكلام كله من بين اسنانه ، بلهجة متغطرسة ، وهو لايكاد يتنازل الى حيث ينطق بالألفاظ نطقا واضحا ، حتى لقد وضع نظارته مرة أخرى ، وتظاهر بأنه يفحص شيئا من الأشياء اثناء الكلام .
حاول بافل بافلوفتش أن يقاطعه ، وقد غضب غضبا شديدا ، فقال :
ـ اسمح لى أيها الشاب ...
ولكن « الفتى » أوقفه فورا عن اكمال جملته ، قائلا :
ـ ما كان لى فى أية لحظة أخرى أن أسمح لك بمخاطبتى «أيها الشاب» . ولكن يجب أن تعترف الآن بأن هذا الشاب هو بعينه التفوق الأكبر الذى امتاز به عليك . واليوم مثلا حين قدمت لها سوارك حاولت أن تبدو أقرب الى الشباب قليلا .
تمتم فلتشانينوف يقول : « ياله من أفعى » .
وأجاب بافل بافلوفتش يقول فى وقار :
ـ على كل حال ، أيها السيد ، انا لا أرى الحجج التى أوردتها ، وهى حجج مشكوك فيها وغير لائقة ، كافية لحملنا على متابعة حديثنا . انى أرى ان هذا كله عبث أطفال لا قيمة له البتة . سأسأل منذ الغد السيد المحترم جدا فيدوسوئى سيمنوفتش عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الأمر ، وارجوك الآن الا تعكر على هدوئي .

فهتف المراهق يقول وهو يتجه بالكلام الى فلتشانينوف ويعجز عن الاحتفاظ بلهجته السابقة :

ـ هل ترى الى هذا الانسان ؟ ليس يكفيه أن يطرد من هناك ، وان تمد له الألسن سخرا . بل يريد أن يقص كل شيء على الأب . لا تبرهن بذلك أيها الرجل العنيد انك تريد الحصول على الفتاة بالقوة ، وانك تشتريها شراء من أبويها اللذين صارا الى الطفولة ولكن الوحشية الاجتماعية تحفظ لهما سلطتهما عليها . الم تظهر لك احتقارها اظهارا كافيا ؟ الم ترد اليك هديتك غير اللائقة ؟ الم ترد اليك سوارك ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

فارتجف بافل بافلوفتش ، وقال :

ـ لم يرد الى أحد سوارى ، وهذا من جهة اخرى مستحيل .

ـ مستحيل ؟ تقول ان هذا مستحيل ؟ الم يرد اليك السيد فلتشانينوف سوارك ؟

قال فلتشانينوف لنفسه « سحقا له » ، ثم التفت الى بافل بافلوفتش قائلا :

ـ حقا لقد كلفتني ناديجدا فيدوسويفنا بأن أرد لك هذه العلبة يا بافل بافلوفتش . لم أشأ أن آخذها . ولكنها أصرت . وقد ساءني ذلك كثيرا .

قال ذلك وأخرج العلبة من جيبه فوضعها ، خجلا ، أمام بافل بافلوفتش المشدوه .

قال الفتى لفلتشانينوف بلهجة قاسية :

ـ لماذا لم تردها اليه ؟

فأجاب فلتشانينوف وقد انزعج انزعاجا شديدا :

ـ لم يتسع الوقت لهذا .

ـ غريب جدا !

ـ ماذا ؟

ـ يجب أن تعترف بأن ذلك شيء غريب فى أقل تقدير . على انني مستعد للتسليم بأن ثمة سوء تفاهم .

عصفت بفلتشانينوف رغبة قوية فى أن ينهض وأن يشد أذني هذا الصبي ، ولكنه لم يستطع ان يحتفظ بجده ، فاذا هو ينفجر ضاحكا منه أمام أنفه . فأخذ الفتى يضحك أيضا . ولكن بافل بافلوفتش لم يضحك . لو قد لمح فلتشانينوف النظرة الرهيبة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رماه بها بافل بافلوفتش لأدرك انه قد بلغ في هذه اللحظة حدا خطرا ... ولكنه ، رغم انه لم يلاحظ تلك النظرة ، احس ان عليه أن يساعد بافل بافلوفتش .

فقال بلهجة ودية صداقية :

ـ اسمع ياسيد لوبوف . احب ان الفت نظرك ، دون الدخول في بحث البواعث الأخرى التي أريد استبعادها ، الى أن بافل بافلوفتش يمتاز عليك ، اذ يخطب ناديجدا فيدوسويفنا ، بأنه معروف جدا عند هذه الإسرة الكريمة . ويجب عدا هذا أن يحسب حساب المركز الممتاز الذي يحتله ، ويجب كذلك أن يحسب حساب الثروة الطائلة التي يملكها . فمن الطبيعي جدا ، والحالة هذه ، أن يشعر بافل بافلوفتش بكثير من الاستغراب حين يرى منافسا مثلك : قد تكون لك مزايا كبيرة ، ولكنك أصغر سنا من أن يعدك منافسا ذا شأن ... ومن حقه ما دام الأمر كذلك أن يرجوك انهاء هذا الحديث .

ـ ماذا تعني بقولك « صغير السن » . لقد بلغت التاسعة عشرة منذ شهر. ويحق لي من ناحية القانون أن أتزوج منذ مدة طويلة . هذا كل شيء .

ـ ولكن اي اب يقبل أن يزوجك ابنته الآن ، حتى ولو سلمنا بانك ستصبح في المستقبل من أصحاب الملايين او من مشاهير الانسانية . أن فتى في التاسعة عشرة من عمره لايمكن أن يسأل عن أفعاله الخاصة ، فكيف تطمع في تأمين مستقبل انسان آخر صغير السن مثلك ؟ الا تجد ان هذا ليس على جانب عظيم من النبل والشرف ؟ ولئن ابحت لنفسي أن اكلمك صراحة فلأنك انت نفسك قد استشهدتني على بافل بافلوفتش منذ لحظة .

ـ ها... نعم . اسمه بافل بافلوفتش. ولكن لماذا كنت اتصور ان اسمه فاسيلي بتروفتش ؟

قال ذلك ثم اردف وهو يتجه الى فلتشانينوف :

ـ نعم ! ان كلامك لم يدهشني أبدا : فلقد كنت اعرف انكم جميعا سواء . على انني أستغرب بعض الاستغراب . فقد حدثوني عنك حديثهم عن رجل يحمل فكر العصر الحديث . على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة . وانما المهم انني ، على خلاف ما سمحت لنفسك بأن تقوله منذ هنيهة ، لا أرتكب اى عمل مناف للنبل والشرف ، بل الحقيقة هي عكس هذا ، كما سأحاول أن أبرهن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لك على ذلك . اقول اولا : اننا قد تعاهدنا ، واقول ثانيا انني قد وعدتها وعدا قاطعا امام شاهدين ، اذا هي أحبت يوما شخصا آخر أو هي ندمت على زواجها بي وارادت أن تفصم عرى هذا الزواج ، ساعترف كتابة بانني قارفت أثم الخيانة الزوجية ، وبذلك أهيء لها الأسباب اللازمة للحصول على الطلاق . وليس هذا كل شيء . بل سأعطيها ، يوم الزواج نفسه ، سندا قيمته مائة الف روبل ، فاذا تراجعت في المستقبل عن تعهدي ، وابيت أن اكتب لها تلك الوثيقة ، ورفضت الموافقة على الطلاق ، استطاعت أن تستعمل ذلك السند وأن تضعني في السجن . معنى ذلك كله اننا احتطنا لكل مفاجاة ، وانني لا أعرض مستقبل أحد للخطر .

— اراهن أن الشخص الآخر ... ما اسمه ؟ بردبوسيلوف ! نعم أراهن أن بردبوسيلوف هو الذي تخيل هذه الخطة الجميلة ؟

— هيء هيء هيء ...

هكذا ضحك بافل بافلوفتش ضحكا خبيثا .

— ما الذي يضحك هذا السيد ؟ نعم لقد حزرت الحقيقة : ان بردبوسيلوف هو صاحب هذه الفكرة . ولابد لك من الاعتراف بأنه أحسن تخيل هذا كله . وبذلك نعطل التشريع السخيف تعطيلا كاملا . لقد قررت أن أحبها الى الأبد ، طبعا ، وهذه الاحتياطات كلها تضحكها كثيرا . ولكنها احتياطات بارعة على كل حال . ولابد من الاعتراف بأنها عمل نبيل ، لا يقدم عليه أي انسان .

— في رايي ان هذا العمل لا يعوزه النبل فحسب ، بل هو عمل سيء مرذول .

قال فلتشانينوف ذلك ، فهز الفتى كتفيه ، ثم قال بعد لحظة من صمت :

— ليس يدهشني كلامك ، اكرر ذلك . ان هذه الامور اصبحت منذ مدة طويلة لاتدهشني . ولعل بردبوسيلوف قد ذكرلك بوضوح ان عجزكم عن فهم الأمور ، مهما تكن طبيعية ، يرجع الى أن عواطفكم وافكاركم قد أفسدتها أولا هذه الحياة السخيفة التي تعيشونها منذ مدة طويلة ، وافسدها ثانيا فراغكم الطويل ... وعلى كل حال ، لعلنا لم نتفاهم بعد : لقد حدثوني عنك بثناء واطراء ... هل انت في نحو الخمسين من العمر ؟

— لنعد الى موضوعنا ، من فضلك !

— أعتذر عن فضولي ، وأرجو الا تشعر من ذلك بشيء ، فما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصدت الى أى سوء . وهأنذا أعود الى الموضوع : لن أكون فى المستقبل من أصحاب الملايين كما تخيلت برهة (والفكرة مضحكة !) . أنا كما ترانى . ولكننى مطمئن الى مستقبلى كل الاطمئنان . لن أكون بطلا أو مشهورا من مشاهير الانسانية . غير اننى سأكفل حياة زوجتى وحياتى . صحيح اننى لا أملك الآن شيئا ، حتى لقد نشأت فى أسرتهم منذ طفولتى ...

ـ كيف ؟

ـ نعم نشأت فى أسرتهم ! كان أبى يمت الى زوجة هذا السيد زاخليبينين بقربى بعيدة . فلما مات هو وأمى ،كنت فى الثامنة من عمرى ، قضمنى العجوز اليه ، ثم أرسلنى بعد ذلك الى المدرسة الثانوية . انه رجل شهم طيب ، اذا أردت أن تعرف ذلك .

ـ أعرفه .

ـ نعم ، ولكن راسه محشو بأفكار عتيقة . هو طيب جدا على كل حال . وقد تحررت من وصايته منذ مدة طويلة ، لأننى اريد أن أسعى الى رزقى بنفسى ، والا أكون مدينا لأحد بشيء .

سأله فاتشانينوف وقد ثار فيه حب الاطلاع :

ـ منذ متى ؟

ـ منذ أربعة أشهر تقريبا .

ـ اذن لقد اتضح كل شيء : أنتما اذن صديقا طفولة . وهل حصلت على عمل ؟

ـ نعم ، عند كاتب بالعدل : خمسة وعشرون روبلا فى الشهر . وهذا شيء مؤقت . ولكننى حين تقدمت خاطبا لم أكن أملك حتى هذا . كنت أعمل عندئذ فى ادارة السكك الحديدية بعشر روبلات فى الشهر . ولكن هذا كله شيء مؤقت .

ـ هل تقدمت بالخطبة الى الأبوين اذن ؟

ـ تقدمت بالخطبة رسميا ، منذ مدة : منذ ثلاثة أسابيع .

ـ فماذا قالا ؟

ـ ضحك الأب فى أول الأمر ، ثم غضب غضبا هائلا ، وحبس ابنته . ولكن ناديا كانت بطلة . واذا كنا لم نظفر، فلأن الأب كان حاقدا على منذ مدة : فلقد تركت الادارة التى أدخلنى فيها قبل ذلك بأربعة أشهر . كان ذلك قبل السكك الحديدية أيضا . انه شيخ شهم ممتاز، كما قلت لك ، وهو فى بيته بسيط جدا مرح جدا . ولكن ليتك تراه فى مكتبه ! انه يتبدل هنالك تبدلا تاما :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انه هنالك جوبيتر حقيقي . ولقد افهمته طبعا ان طرائقه هـــذه لاتعجبني . ولكن المذنب الحقيقي في الموضوع كان هو نائب الرئيس، فقد ارتأى هذا السيد أن يشكو « فظاظتي » ، مع انني لم أزد على أن قلت له ان ثقافته ناقصـــة . ثم تركتهما كليهما ، وهأنا الآن عند الـكاتب بالعدل .

ـ هل كان أجرك حسنا في تلك الادارة ؟

ـ كنت زائدا على العدد المحدد للوظائف ، فكان العجوز زاخليبينين هو الذي يدفع أجري . انه رجل طيب جدا ، كما قلت لك . ولـكننا لن نذعن ! ان خمسة وعشرين روبلا لا تكفي . لذلك آمل أن اشارك قريبا في ادارة أملاك الـكونت زافيليسكي الذي اضطربت شئونه اضطرابا كبيرا ، وسأبدأ عندئذ بثلاثة آلاف روبل . والا فسأصبح محاميا . ان الحاجة الى رجال فعالين نشيطين حاجة ماسة الآن !.. اوه ! ما هذا الرعد ! ستهب العاصفة عما قليل . من حسن حظي انني وصلت قبل هبوبها . لقد جئت من هنالك سيرا على الأقدام ، وكنت أركض ركضا طوال الوقت تقريبا .

ـ ولـكن قل لي ، كيف اتسع وقتك ، ما دام الأمر كذلك ، لأن تتحدث مع ناديجدا فيدوسويفنا ، خاصة وانك لا تستقبل في بيتهم ؟

ـ يمكن التحدث من وراء السياج . ثم قال وهو يضحك :

ـ ألم تلاحظ الفتاة القصيرة الحمراء ؟ أنها تسمى بيننا ، وكذلك ماريا نيكيتشنا . ولـكن مابك ؟ أأنت خائف من العاصفة ؟

ـ لا ، ولـكنني أشعر بألم شديد .

والحق ان الألم الذي أحسه فلتشانينوف فجأة في صـــدره ، اصبح يوجعه اشد الوجع ، فنهض عن مقعده ، وحاول أن يسير في الغرفة بضع خطوات .

ـ اذن أنا أزعجك ... لا تتحرج مني ... انا ذاهب حالا .

قال الفتى ذلك ، ونهض فجأة .

فقال له فلتشانينوف بأدب ورقة :

ـ لا لا ، لست تزعجني . الأمر بسيط .

ـ كيف يكون بسيطا ؟ « حين يشعر كوبلنيكوف بألم في بطنه.. » هل تتذكر هذا الـكلام عند شيدرين ؟ هل تحب شيدرين ؟

ـ نعم .

ـ وأنا ايضا.. والآن يافاسيلي... ها ... عفوا ... يا بافل بافلوفتش ! يجب أن ننهي هذا الأمر (قال ذلك وهو يلتفت الى بافل

بافلوفتش ويكاد يضحك) هانذا أصوغ لك السؤال مرة اخرى حتى تفهم حق الفهم : هل توافق على أن تصرح للأبوين ، غدا ، تصريحا رسميا ، أمامي، بانك تعدل عن جميع ما طمعت فيه بشأن ناديجدا فيدوسويفنا ؟

ـ لا ، لا أوافق .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو ينهض نافد الصبر مهتاجا . ثم اردف يقول :

ـ وأرجوك أن تتركني لهدوئي ... لأن هذا كله ليس الا عبث اطفال ، وحماقة !..

قال الفتى وهو يبتسم ابتسامة متعجرفة ، ويلوح بأصبعه مهددا :

ـ حذار ! انك تخطىء الحساب ! وهل تعرف الى اين يمكن ان يؤدى بك مثل هذا الخطا في الحساب ؟ اما انا فانبئك منذ الآن بانك حين ستعود بعد عشرة اشهر ، وتكون قد انفقت ما انفقت من مال كثير ، وعانيت ما عانيت من صداع عسير، ستضطر الى العدول عن ناديجدا فيدوسويفنا ، فاذا لم تعدل ، عاد عليك ذلك بمتاعب كثيرة ! هذا ما سيقع ! ويجب أن أقول لك (واغفر لى هذا التشبيه) ان مثلك الآن كمثل كلب راقد على علف : لا هو ياكل ، ولا هو يدع لأحد ان ياكل . واعود فاقول لك من قبيل العطف عليك والاحسان اليك : فكر في الأمر ، حاول أن تفكر في الأمر تفكيرا جادا ، ولو مرة واحدة في حياتك على الاقل .

قال بافل بافلوفتش وقد جن حنقا :

ـ أرجوك أن تعفينى من هــــذه المواعظ . أما عن تلميحاتك السافلة . فسأتخذ أجراءاتي منذ غد أيها السيد ، سأتخذ اجراءات جديدة !

ـ تلميحاتى السافلة ؟ ما الذى تعنيه ؟ لأنت السافل اذن ، ما دامت تراودك أفكار كهذه ! على كل حال ، انا اوافق على الانتظار الى غد . أما اذا ... ما هذا ؟ رعد أيضا ؟ الى اللقــاء ! لقد سعدت جدا بمعرفتك .

قال جملته الاخيرة لفلتشانينوف وهو يحييه ، ثم مضى بسرعة ، ليسبق العاصفة ، ويتحاشى المطر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ١٥ ـ

سدد الحساب

ما انخرج الشاب حتىأسرع بافل بافلوفتش نحو فلتشانينوف صائحا :

ــ هل رايت ؟ هل رايت ؟

ــ حظك سيء .

قال فلتشانينوف ذلك دون أن يفكر . واغلب الظن انه لولا ذلك الهياج الذى يسببه له المه المتزايد فى صدره ، لما أفلت منه هذا الكلام .

فانتفض بافل بافلوفتش كأن حرقا اصابه . وقال :

ــ وأنت ؟ اغلب الظن أن شفقتك بى هى التى منعتك من رد السوار الى ، اليس كذلك ؟

ــ بل لم يتسع الوقت .

ــ لاشك انك رثيت لحالى ، لأنك صديق صادق ؟

ــ نعم ، رثيت لحالك !

قال فلتشانينوف هذا وقد تملكه الغضب .

ومع ذلك قص عليه ، بايجاز ، كيف رد اليه السوار ، وكيف ان ناديجدا فيدوسويفنا قد اكرهته اكراها على الاهتمام بهذا الأمر .. وقال :

ــ لم اشأ أن آخذه ، فان لى من متاعبى الخاصة ما يكفينى..

فقال بافل بافلوفتش ضاحكا :

ــ استسلمت للاغراء ، فرضيت أن تأخذه .

ــ مضحك هذا الذى تقول . ويجب عليك أن تعتذر عنه . ألم تقتنع منذ قليل بأننى لا العب الدور الأساسى فى هذا الأمر ، وان هنالك آخرين .

ــ لقد استسلمت للاغراء ، مع ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال بافل بافلوفتش هذا وجلس يصب لنفسه خمرا ، ثم اردف :
ـ هل تتصور انني سأذعن امام هذا الصبي ؟ لسوف احطمه كما يحطم الزجاج . هذا ما سأصنعه به . سأذهب الى هناك منذ غد ، وادبر امر هذا العبث ، عبث الأطفال ... كله ...
ثم افرغ كأسه في جوفه ، وصب كأسا اخرى . وقد فعل ذلك بدون تحرج .
ـ نادنكا وساشنكا ! الا ما اجمل الأطفال !.. ها ها ها ...
اصبح لايستطيع كظم غيظه .
والتمع برق باهر ، ما لبث أن اعقبه رعد رهيب ، واخذ المطر ينهمر سيولا . فنهض بافل بافلوفتش الى النافذة فأغلقها .
ـ أرى انك تستقر هنا . سأرقد انا ، فافعل ما يحلو لك .
قال فلتشانينوف ذلك وهو لايكاد يقوى على الكلام من فرط ما يشعر به من الم .
فأجاب بافل بافلوفتش وقد لاح عليه انه يشعر بانه أهين، ولكن يكاد يسعده أن يشعر بذلك ، اجاب قائلا :
ـ في مثل هذا الجو ، لا يطرد كلب الى خارج .
فقال فلتشانينوف بصوت متعب :
ـ اذن فابق ، واشرب ... واقض الليلة هنا اذا شئت .
ثم تمدد على ديوانه ، وان انينا خافتا .
ـ اقضي الليلة هنا ؟ ولا تخاف مني ؟
ـ مم اخاف ؟
قال فلتشانينوف ذلك وهو ينهض راسه فجاة .
ـ أوه ! لا شيء ... قلت ذلك هكذا ... ولكن كان يبدو عليك في المرة الماضية انك تخشي شيئا ما ... أو هذا ما تراءى لي ...
ـ انت غبي !
كذلك قال فلتشانينوف ، وقد عجز عن كبح جماحه ، ثم ادار رأسه نحو الحائط .
قال بافل بافلوفتش :
ـ أوه ! لا ، لا شيء ...
وما هي الا لحظات حتى نام المريض. ان الجهد الذي تكلفه طوال النهار قد هبط فجاة ، وكانت صحته مضعضعة كثيرا ، فاذا هو يشعر انه ضعيف كطفل .

ولـكن الالم انتصر على التعب وعلى النوم ، فما هى الا ساعة حتى أستيقظ ، واضطره الوجع الى النهوض . كانت العاصفة قد هدأت . والغرفة ملأى بدخان التبغ . وزجاجة الخمر قد فرغت. وبافل بافلوفتش نائم على الديوان الآخر. انه مستلق على ظهره ، وراسه منقلب الى جانب . لم يخلع ملابسه ، لا ولا حذاءه . وقد انزلقت نظارته من جيبه ، وتدلت من طرف سلـكها الحريرى حتى كادت تلامس الأرض ، وتدحرجت قبعته . نظر اليه فلتشانينوف نظرة قاتمة ، ولـكنه لم يوقظه. وراح يسير فى الغرفة وقد انحنى نصفين من شدة الالم . واصبح لايقوى على البقاء راقدا ، وكان يئن ، ويفكر فى وجعه .

انه خائف من هـذا الوجع . ومن حقه ان يخاف . انه يصاب بمثل هذه النوبات منذ مدة طويلة ، ولـكنها لا تقع له الا من حين الى حين مرة فى السنة او فى السنتين . وكان يعرف ان منشأها الـكبد : فالالم ، عند حفرة المعدة أو فوقها قليـلا فى نقطة من الصـــــدر ، يبدأ ضغطا أصم ، مزعجا ، مثيرا ، رغم انه لايزال ضعيفا ، ثم ما ينفك يشتد ويشتد طوال عشر ساعات فى بعض الأحيان ، ثم يبلغ الألم من القوة ويبلغ الضغط من العنف انالمريض يرى الموت يهم به . وفى المرة الأخيرة ، منذ سنـة ، بعد عشر ساعات من آلام هدات أخيرا ، بلغ فلتشانينوف من فرط الارهاق انه أصبح لايقوىعلى تحريك يده وهو راقد فى سريره . ولم يسمح له الطبيب بأن يتناول ، طوال ذلك اليوم ، الا بضع جرعات من شاى خفيف جداً ، مع قليل من الخبز المغموس بالمرق ، كأنهطفل. كانت الآلام تنبثق فجأة دون سبب ظاهر ، ولـكنها كانت لا تكاد توافيه الا على أثر هياج عصبى شديد. وكانت تزول ايضا بطريقة غريبة جدا : كان يمكن فى بعض الأحيان وقف النوبة منذ بدايتها ، منذ نصف الساعة الاولى ، بواسطة كمادات ساخنة لا اكثر ، وفى أحيان اخرى لا يجدى فيها شيء ، كما وقع ذلك فى آخر نوبة ، ولا تزول الآلام عندئذ الا باســـــتعمال المقيئات مرة بعد مرة . وقد أعترف الطبيب فيما بعد ان الظن قد ذهب به الى ان سما قد وضع له فى طعامه .

والآن ، لايزال الصبـــــاح بعيدا . وفلتشـــانينوف يـكره ان يستدعى طبيبا فى الليل . بل انه لا يحب الاطباء اصلا . ولـكنه لم يستطع أخيرا ان يحتمل أكثر مما احتمل ، فاخذ يئن انينـــا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاليا ، فأيقظ تأوهه بافل بافلوفتش ، فنهض هـــذا واقفا على ديوانه ، وظل على هذه الحال برهة يستمع الى أنين فلتشانينوف مذعوراً ، وينظر اليه وهو يركض من غرفة الى غرفة ، وقد استبد به رعب شديد . كان واضحا ان زجاجة الخمر التى افرغها فى جوفه قد اثرت فيه أكثر مما تؤثر فيه عادة ، فلم يستطع ان يثوب الى رشده الا ببطء ، حتى اذا فهم أخيرا ، هرع الى فلتشانينوف الذى كان لا يكاد يقوى على الـكلام ، وهتف يقول له مضـــطربا اشد الاضطراب :

ــ هذا من الـكبد . اعرف ذلك . آن بيوتر كوزتش الذىتعرفه قد اصيب بهذا الشىء نفسه ، وكان ذلك ناشئا عن الـكبد. يجب أن نضع كمادات ساخنة . كان بيوتر كوزتش يضع دائما كمادات ساخنة ، فى مثل هذه الحالة... ذلك ان هذه النوبة خطرة يمكن أن تؤدى الى الموت . سانادى مافرا ، هه ؟

فدفعه فلتشانينوف عن نفسه منزعجا ، وهو يقول :

ــ لاداعى الى ذلك ، لاداعى الى ذلك . لست فى حاجة الىشىء .

ولكن بافل بافلوفتش كان مضطربا أشد الاضطراب ، لايدرى الا الله لماذا ! كأن الأمر أمر حياة ابن له . لم يشأ ان يسمع شيئا ، واصر علىان يقبل فلتشانينوف الـكمادات ، وعلىأن يبتلع قدحين او ثلاثة أقداح من الشاى دفعة واحدة ، « يجب الا يكون الشاى ســــاخنا بل غاليا » ، فأسرع يوقظ مافرا ، دون أن يأذن له فلتشانينوف بذلك ، وساعد مافرا على اشـــعال النـــار فى المطبخ المهجور منذ مدة طويلة ، واغلى الماء فى السماور . وارقد المريض اثناء ذلك على فراشه ، وخلع له ملابسه ، وغطاه . وما هى الا عشرون دقيقة حتىكان الشاى قد أعد ، وكذلك الـكمادة الأولى.

قال بافل بافلوفتش فى حماســـــة ، وهو يضع على صـــــدر فلتشانينوف صحنا مسخنا ملفوفا بمنشفة :

ــ هذه صحون ساخنة . ليس عندنا شىء آخر. وهىعلىكل حال احسن أنواع الـكمادات . أقسم لك . لقـــد جربتها بنفسى على كوزتش . ذلك ان حالتك خطـــيرة ، قد تؤدى الى الموت . اشرب الشـاى . ابلعه بسرعة ، ولو حرقت حلقـــك . ان انقـــاذ حياتك يستحق أن تقبل من اجله بعض الحروق .

كان بافل بافلوفتش يصطدم من فرط السرعة بمافرا التى كانت لا تزال شبه نائمة ، وكانا يتبادلان صحنا بصحن كل دقيقتين او

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل ثلاث دقائق . وشعر فلتشانينوف بعد الصحن الثالث وقدح الشاى الثانى ، شعر فجاة بشيء من التحسن .

ــ اذا استطعنا ان تكسر شدة الألم ، وان نسيطر عليه ، كان ذلك وحده علامة حسنة يجب ان نحمد الله عليها !

بهذا هتف بافل بافلوفتش ، واسرع يهيىء قدحا آخرمنالشاى، وصحنا آخر ، وهو يشعر بفرح شديد .

ــ المهم هو كسر شدة الألم ... هو وقف سيره ...

هذا ما كان يردده بافل بافلوفتش فى كل لحظة .

وما هى الا نصف ساعة ، حتى كان الألم قد هدأ كل الهدوء تقريبا ، ولكن المريض كان قد بلغ من الاعياء انه رفض « وضع صحن واحد آخر» رفضا قاطعا ، رغمكل ضراعات بافل بافلوفتش . كانت عيناه تغمضان من فرط الضعف .

قال بصوت ضعيف :

ــ انام ... انام ...

فأجابه بافل بافلوفتش :

ــ ذلك خير شيء تفعله .

ــ اقض الليلة هنا ... كم الساعة الآن ؟

ــ تبلغ الثانية الا ربعا بعد قليل .

ــ ارقد .

ــ نعم سارقد .

وبعد دقيقة واحدة ، نادى المريض بافل بافلوفتش ، فجاءه وانحنى عليه ، فتمتم يقول له :

ــ انت ... انت ... انت خير منى . فهمت كل شيء ، كل شيء ... شكرا .

فقال له بافل بافلوفتش بصوت خافت :

ــ يجب أن تنام الآن ، يجب أن تنام ...

ثم عاد الى ديوانه يمشى على رءوس الأصابع .

حين نام فلتشانينوف كان لايزال يسمع صاحبه وهو يرتب سريره بسرعة ، ويخلع ملابسه ، ويطفىء الشمعة ، ويرقد فى فراشه حابسا انفاسه مخافة أن يوقظه .

لاشك ان فلتشانينوف قد نام بعد اطفاء الشمعة حالا . فقد تذكر ذلك تذكرا واضحا فيما بعد . ولكنه ظل طوال مدة النوم وحتى اللحظة التى استيقظ فيها ، ظل يحلم بأنه لا ينام وبأنه

لا يستطيع ان ينام رغم ما هو فيه من اعياء وضعف . وحلم بأنه يهذى وهو يقظان ، وبأنه لا يستطيع أن يبدد الرؤى التى تزدحم حوله ، رغم شعوره التام بأنها ليست الا رؤى. ثم انه كان يتعرفها جميعا : غرفته ملأى بالناس ، وباب الدخول مفتوح . الناس يدخلون جماعات جماعات ، ويزدحمون على السلم . وامام المائدة ، في وسط الغرفة يجلس رجل ، تماما كما فى الحلم الذى رآه منذ شهر. والرجل كما فى المرة السابقة ، متكىء على المائدة صامت . ولكن على رأسه فى هذه المرة قبعة مدورة ذات شريط أسود . قال فلتشانينوف لنفسه : « ماذا ؟ كان هو اذن بافل بافلوفتش أيضا فى المرة الماضية !». ولكنه تفرس فى هذا الرجل الصامت ، فرأى انه ليس بافل بافلوفتش ، بل شخص آخر. « لماذا يضع على قبعته شريطا أسود ؟ » والناس الذين يزدحمون حول المائدة يتكلمون ويصرخون ، وتصبح الجلبة فظيعة . والجمهور حانق على فلتشانينوف ، كما فى الحلم الأول أيضا ، فهم يهددونه بقبضة اليد ، ويصرخون فى وجهه ، ولكنه لايفهم ماذا يريدون منه . قال فى نفسه : « اننى أهذى. اعرف ذلك. اعرف اننى لم استطع أن أنام ، واننى نهضت عن فراشي ، من شدة الألم ! » . ومعذلك فان هؤلاء الناس ، وصراخهم ، وحركاتهم ، كل ذلك يبلغ من الوضوح والواقعية ان الشكوك تساوره من حين الى حين « أهذه كلها هلوسات حقا ؟ ماذا يريد منى كل هؤلاء الناس ؟ رباه ! ولكن.. اذا لم يكن هذا هلوسة ، فهل يمكن الا يوقظ هذا الصراخ بافل بافلوفتش ؟ ذلك انه نائم هنا على ديوانه ! » ووقع أخيرا شيء ، كما فى الحلم السابق تماما : اسرع جميع الناس نحو السلم ، وازدحموا أمام الباب . ذلك ان جمهورا جديدا يصعد السلم ليدخل الى الغرفة . ان هؤلاء الناس يحملون شيئا : شيئا كبيرا ثقيلا . ان وقع خطواتهم الثقيلة وأصواتهم اللاهثة المتداخلة تدوى على السلم . وترجعت فى الغرفة صرخات : « ائتوا به ... ائتوا به ». فالتمعت جميع الأعين ، وحدقت فى فلتشانينوف ، واخذت تشير له فى السلم متوعدة مظفرة . فلم يشك فى أن هذا كله واقع ، فارتفع على رءوس الأصابع ، ليرى من فوق هامات الناس، بسرعة، الشيء الذى يحمله الحاملون . ان قلبه يخفق ، ويخفق ويخفق . وفجأة ، كما فى الحلم الماضى ، قرع الجرس ثلاث قرعات قوية ، هى فى هذه المرة ايضا تبلغ من الوضوح انها لايمكن انتكونحلما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صرخ فلتشانينوف واستيقظ من نومه .

ولكنه لم يثب الى الباب كما فعل فى المرة الماضية. ترى ماهى الفكرة التى ولدت حركته الاولى ، بل هل كان فى ذهنه فى تلك اللحظة فكرة ما ؟.. لكأن شخصا ، مع ذلك ، قد همس فى اذنه بما يجب أن يعمله ، فانتصب على سريره ، ووثب نحو الجهة التى ينام فيها بافل بافلوفتش، وثب مادا ذراعيه الى الأمام كأنما ليدافع عن نفسه ، ليذب عن نفسه هجوما . فاذا يداه تصطدمان بيدين اخريين ممدودتين عليه ، فقبض عليهما قبضا قويا : كان هناك اذن شخص واقف قرب سريره ، منحن عليه . كانت الستائر مسدلة ، ولكن الظلام لم يكن كاملا ، لأن شعاعا ضئيلا من النور كان يأتى من الغرفة المجاورة التى ليس لها ستائر. واحس فجأة بألم هائل فى راحة يده اليسرى وفى أصابعها ، فأدرك انه قبض على نصل سكين او موسى حلاقة وانه شد على النصل شدا قويا ... وفى تلك اللحظة نفسها سقط شيء على الأرض ، فأحدث قرقعة ثقيلة .

ان قوة فلتشانينوف تساوى ثلاثة اضعاف قوة بافل بافلوفتش على الأقل . ومع ذلك دام صراعهما مدة طويلة لا تقل عن ثلاث دقائق ، قلبه فلتشانينوف بعدها على الأرض ، شادا ذراعيه الى الوراء . ولكنه اصر على أن يوثق هذين الذراعين ، فأمسك يديه بيسراه المجروحة ، واخذ يتلمس باليمنى حبل الستارة ، ودام ذلك مدة طويلة ، ثم عثر على الحبل فشده فانتزعه . لقد دهش فلتشانينوف نفسه ، فيما بعد ، من الجهد الجبار الذى انفقه فى هذا . لم ينبس احد من الرجلين خلال ذلك بكلمة ، فكان لا يسمع الا تنفسهما اللاهث والا صوت الصراع الأصم . فلما فرغ فلتشانينوف من تكبيل يدى بافل بافلوفتش مشدودتين وراء ظهره، رماه على الأرض ، ووقف ، فأزاح الستارة ثم فتح النافذة ، وظل واقفا بضع لحظات يتنشق الهواء الطرى تنشقا عميقا. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة . فلما أغلق النافذة اتجه نحو الخزانة بلا اسراع، فتناول منها منشفة نظيفة لف بها يده اليسرى، وشدها شدا قويا ليقطع جريان الدم الذى كان ينزف غزيرا . واصطدمت قدماه بموسى مفتوحة ، فتناولها من الأرض وطواها ، واعادها الى العلبة التى كانت موضوعة منذ الصباح على منضدة صغيرة الى جانب الديوان الذى نام عليه بافل بافلوفتش . ثم خبأ العلبة فى درج مكتبه . ولم يعد الا فى تلك اللحظة الى بافل بافلوفتش ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأخذ ينظر فيه متفرسا .

كان بافل بافلوفتش قد استطاع أثناء ذلك بكثير من الجهد أن ينهض فيجلس على المقعد . لم يكن مرتديا ملابسه ، ولا منتعلا حذاءه . وكان قميصه مضرجا بالدم فى ظهره والكمين ، ولكن هذا الدم هو الدم الذى نزف من يد فلتشانينوف المجروحة .

انه بافل بافلوفتش نفسه ، ولكن كان يمكن جدا الا يعرف من النظرة الأولى ، لو رئى فجاة . لقد تبدل تبدلا كبيرا .كان وجهه مخضرا ، متشنجا مخربا . وكانت يداه الموثقتان وراء ظهره تجعلان جلوسه على المقعد متجمدا متصلبا . وكان يرتعش من حين الى حين . أدار نحو فلتشانينوف نظرة ثابتة ، ولكنها منطفئة ، كأنه لايميز كل شيء بعد . وفجاة ابتسم ابتسامة تائهة . ثم تمتم يقول وهو يشير بحركة من راسه الى ابريق الماء الموجود على المائدة :

ــ ماء ...

فصب له فلتشانينوف كاسا من الماء ، وسقاه. مد بافل بافلوفتش شفتيه بشراهة . حتى اذا تجرع ثلاث جرعات ، رفع راسه ، وتفرس فى فلتشانينوف الذى كان واقفا أمامه ممسكا بالكاس ، ولكنه لم يقل شيئا ، بل عاد يشرب. فلما انتهى من الشرب تنفس تنفسا عميقا .

حمل فلتشانينوف وسادته ، وجمع ملابسه ، ومضى الى الغرفة الثانية ، مغلقا الباب على بافل بافلوفتش بالمفتاح .

لقد اختفت الأوجاع التى كان يحسها اختفاء تاما . ولكنه يحس الآن بضعف شديد ، بعد الجهد الكبير الذى انفقه لايدرى الا الله كيف ! حاول أن يدرك ما وقع ، ولكن أفكاره كانت لا تزال مضطربة غير متسقة . لقد كانت الهزة قوية مسرفة فى القوة . اغمض عينيه مدة عشر دقائق ، ثم ارتعش فجاة ، وصحا ، وتذكر كل شيء . فرفع يده الجريحة الملفوفة بمنشفة يبللها الدم ، والتى كانت تؤلمه ، وأخذ يفكر فى الامر بنوع من الشراهة المحمومة . ثمة نقطة واحدة بدت له واضحة : لقد أراد بافل بافلوفتش حقا ان يذبحه ، ولكن لعله كان قبل ذلك بربع ساعة لا يعرف هو نفسه انه سيفعل هذا . لعله قد وقع بصره على علبة الموسى فى مساء امس ، دون أن توقظ هذه العلبة فى نفسه اية فكرة ، ولكن صورتها بقيت فى ذاكرته (من عادة فلتشانينوف انه يضع امواس الحلاقة فى درج المكتب ويقفل عليها بالمفتاح ، ولكنه اخرجها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امس لنزع شعرات زائدة حول شاربيه والوجنتين) .
قال فلتشانينوف لنفسه ، فيما قال : « لو كان قد قرر قتلى منذ مدة طويلة لأعد سكينا أو مسدسا ، ولما اعتمد على امواسى التى لم يرها قط قبل امس مساء » .
ودقت الساعة السادسة اخيرا . وثاب فلتشانينوف الى نفسه ، فارتدى ملابسه ، ودخل على بافل بافلوفتش . لقد تساءل وهو يفتح الباب ، دون أن يستطيع تعليل هذا التساؤل لنفسه : «ترى لماذا اقفل الباب على بافل بافلوفتش ، بدلا من أن يطرده فورا » .
فما كان أشد دهشته حين راى السجين مرتديا ملابسه . لقد استطاع بافل بافلوفتش ان يحل وثاقه ، وجلس على المقعد . فلما راى فلتشانينوف داخلا ، نهض . وكان يحمل قبعته استعدادا للخروج . ورمى فلتشانينوف بنظرة قلقة كأنها تقول : « لا تبدأ ، فما يجب أن نتكلم » .
قال له فلتشانينوف :
ـ اخرج !
ثم اضاف :
ـ وخذ علبتك .
فعاد بافل بافلوفتش أدراجه ، فتناول علبته ، فوضعها فى جيبه ، وخرج . ومضى فلتشانينوف وراءه حتى الباب ، ليغلقه . والتقت نظراتهما الآخر مرة . فتوقف بافل بافلوفتش فجاة ونظر كل منهما فى الآخر كأنه يتردد . ودام ذلك خمس ثوان . واخيرا اشار له فلتشانينوف بحركة يسيرة من يده ان يخرج قائلا بصوت خافت :
ـ اخرج .
واقفل الباب بالمفتاح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحليل

اغرقه فرح كبير عظيم : ان شيئا قد انتهى ، ان عقدة قد انحلت ، ان القلق الحاد الذى كان يحاصره ، قد ابتعد الآن وتبدد . هذا ما تراءى له . لقد دام ذلك القلق خمسة أسابيع . رفع يده ، ونظر الى المنشفة المبللة بالدم ، وتمتم يقول : « فى هذه المرة ، انتهى كل شيء » . وظل طوال ذلك الصباح ، لأول مرة منذ ثلاثة اسابيع ، لايكاد يفكر فى ليزا ، كأن هذا الدم الذى جرى من اصابعه يسدد ذلك الحساب ايضا .

كان يدرك ادراكا واضحا انه نجا من خطر رهيب . قال فى نفسه : «ان أمثال هؤلاء الناس الذين لايعرفون ، قبل دقيقة واحدة ، ايقتلون أم لا يقتلون ، متى أمسكوا بيديهم سكينا ، وشعروا بأول دفعة من دفعات الدم الحار تجرى فى أصابعهم ، لم يكتفوا بالقتل ، بل كان لابد لهم من أن يذبحوا ضحيتهم ذبحا » . لم يستطع أن يبقى فى بيته ، فخرج ، وهو على يقين من انه سيعمل شيئا ما ، أو أن شيئا ما سيقع له . كان يسير فى الشوارع ، ينتظر . ان به رغبة قوية فى أن يلقى أحدا ، فى أن يتحدث الى اى انسان ، ولو كان لا يعرفه . وفى هذه اللحظة انما بدا له أن يذهب الى طبيب ، ليضمد له جرحه تضميدا مناسبا . فذهب الى طبيب يعرفه منذ مدة طويلة . فلما فحص الطبيب الجرح شاء له حب الاستطلاع ان يعرف كيف « امكن ان يقع هذا الامر » ، فبدا فلتشانينوف يجيبه مازحا ، وهو ينفجر فى ضحك قوى ، وهم أن يقص عليه كل شيء ، ولكنه ما لبث أن لجم لسانه . وجس الطبيب نبضه . ولما علم بالنوبة التى اصابته الليلة البارحة ، اقنعه بتناول شراب مهدىء كان بين يديه . وطمأنه على عواقب الجرح قائلا : « لا لن تنشأ عنه نتائج سيئة » ، فأخذ فلتشانينوف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضحك ، وأكد للطبيب ان النتائج كانت ممتازة جدا ... واستبدت به فى ذلك الصباح نفسه رغبة قوية عارمة فى ان يقص كل شىء ، استبدت به تلك الرغبة مرتين ، حتى انه فى احدى هاتين المرتين هم أن يقص الأمر على سيد لايعرفه اية معرفة ، ولكنه لقيه فى أحد محلات الحلوى ، فاتجه اليه بالكلام ، رغم انه يكره كل الكره أن يدخل فى حديث مع اناس لايعرفهم ، فى مكان عام .

دخل مخازن كثيرة ، واشترى جريدة وذهب الى خياطه يوصيه على بدلة . وكان لايزال يكره أن يمضى الى زيارة أسرة بوجورلتسيف ، وكان يحاول الا يفكر فيهم . ثم انه كان لا يستطيع أن يذهب الى انضواحى ، لأنه ينتظر شيئا لابد أن يحدث هنا فى المدينة. واقبل على تناول غدائه بشهية عظيمة ، وتحدث مع خادم المطعم ، وتحدث الى جاره فى المائدة ، وشرب نصف زجاجة من الخمر. لم يخطر له ببال أن نوبة الليلة البارحة يمكن أن تعود ، وكان مقتنعا بأن مرضه قد زال زوالا تاما فى اللحظة التى وثب فيها عن سريره ، فصرع القاتل ، بعد أن نام ساعة ونصف الساعة ، مهدود القوى تماما . ومع ذلك اصيب عند المساء بدوار ، وحاصرته فى بعض اللحظات افكار شبيهة بالأفكار التى وافته فى حلم الليلة البارحة . عاد الى بيته عند هبوط الظلام ، فلما دخل الى غرفته شعر من منظرها ببعض الخوف . بدا له منزله حزينا ، كالحا ، جهما . طاف فى البيت عدة مرات ، حتى لقد زار المطبخ ، وكان لايدخله أبدا . « هنا كانا يسخنان الصحون » . كذلك قال لنفسه . اغلق الباب بعناية واحكام ، وأشعل الشموع قبل أوان اشعالها فى العادة . وحين أغلق الباب تذكر انه حين مر منذ برهة امام حجرة البواب ، نادى مافرا وسالها : هل جاء بافل بافلوفتش أثناء غيابه .

فلما احكم اقفال الباب ، ذهب الى مكتبه ، ففتح الدرج ، واخرج علبة الأمواس ، وانعم النظر فى موسى « الليلة البارحة » . كان على الساعد العاجى من الموسى قليل من آثار دم . ثم اعاد الموسى الى العلبة ، ووضع العلبة فى الدرج . كان يريد أن ينام ، وبشعر ان عليه أن يرقد فورا ، والا « لم يصلح لشىء فى غد » . ذلك انه يتصور أن غدا سيكون يوما « حاسما » ، لايدرى لماذا ! ان تلك الأفكار نفسها التى لم تبرحه ، فى الشارع ، طوال النهار ، لحظة واحدة ، تزدحم الآن فى راسه ، وتغزو دماغه المريض ، دون أن

تدع له لحظة من هدنة . كان يفكر ، ويفكر ، فظل مدة طويلة لا يستطيع الى النوم سبيلا .

« اذا كان من الثابت انه حاول أن يقتلني دون سابق تصور وتصميم ، فهل سبق أن راودته هذه الفكرة ، ولو مرة واحدة ؟»

هكذا تساءل ثم حسم هذا السؤال حسما غريبا ، قائلا لنفسه :

« نعم ، لقد أراد بافل بافلوفتش أن يقتلني ، ولكن فكرة القتل لم تراوده في اية لحظة من اللحظات ، اى ان بافل بافلوفتش أراد أن يقتلني ، ولكنه كان لايعرف انه يريد أن يقتل . هذا كلام ليس له معنى ، ولكن الأمر كذلك . انه لم يجيء الى بطرسبرج من أجل باجاوتوف ، ولا جاء اليها من أجل ترفيعه في الوظيفة ، رغم انه طاف على الوزارات ، وذهب الى باجاوتوف يحاول أن يراه. لقد أحنقه موت باجاوتوف . ولكنه كان يحتقر باجاوتوف كقشة. من أجلي اذن انما جاء الى بطرسبرج ، واتى بليزا ...

« وأنا هل كنت أتوقع أن ... يحاول قتلى ؟ نعم كنت اتوقع أن يقتلني ، وذلك منذ رأيته في العربة يشيع جنازة باجاوتوف . منذ تلك الدقيقة ، أصبحت أتوقع شيئا ما ، ولكن هذا الشيء ليس هو القتل . لم اتوقع أن يذبحني » .

« وهل يمكن (بهذا هتف فلتشانينوف وهو ينهض رأسه عن المخدة فجأة ويفتح عينيه) هل يمكن أن يكون هذا ... المجنون ... صادقا حين أكد لي حبه أمس ، وحين أخذت ذقنه ترتعش، وحين راح يضرب صدره بيديه ؟ »

« نعم ، لقد كان صادقا (هكذا قال فلتشانينوف لنفسه وهو يوغل في التفكير والتحليل) ان كازيمودو (١) ت ... هذا ، لهو من الكرم والغباء بحيث يمكن أن يحب عشيق امرأته التي بدا له سلوكها خلال عشرين عاما سليما لا غبار عليه . لقد ظل خلال تسع سنين يحترمني ويقدس ذكراي ، ويحفظ « تعابيرى » ! الا ما أغباني حين لم يخطر لي ذلك على بال. انه ماكان يكذب أمس. ولكن هل كان يحبني أمس حين صرح لي بحبه وقال لي : « لنصف حساباتنا ؟ »... نعم ، كان يحبني وهو يكرهني ، وذلك هو أقوى حب ... »

« لاشك انني حين كنت في ت ... قد تركت في نفسه أثرا هائلا

(١) اسم أحدب نوتردام ، بطل فكتور هوجو .

« مفيدا » . هـــذا ما لابد ان يقع لشخص يجتمع فيه شيللر وكازيمودو . لقد ضخمني مائة مرة ... لأنني أحدثت تشويشا عميقا في وحدته الفلسفية ... انه لمن الشائق أن يعرف المرء ما الذي شوشه على وجه الدقة ! ربما قفازاي النضيران ، وطريقتي في لبسهما . ان امثال كازيمودو يحبون الاستيتيك كثيرا ... بعض الناس ممن يملكون نفوسا كريمة سمحة ، و « الأزواج الأبديون» خاصة ، يكفيهم قفازان ... حتى يضخموا ما عداهما ألف مرة... وانهم لمستعدون أن يقاتلوا من أجلك ، اذا شئت. وما أكثرمايقدر وسائلي في الاغراء ! بل لعل هذه الوسائل نفسها هي التي أسرته أكثر من أي شيء آخر. وصرخته تلك التي صرخها في ذلك اليوم : « اذا كان هو أيضا ... فمن أصدق ؟ » ان المرء ليصبح بعد صرخة كهذه ، حيوانا كاسرا ... »

« هيه !.. لقد جاء الى هنا « ليقبلني ويبكي...» كما عبر هو نفسه عن ذلك هذا التعبير الخبيث. معنى هذا أنه جاء الى بطرسبرج ليدق عنقي .. ولكنه كان يتخيل أنه جاء « ليقبلني ويبكي » . وقد اتى بليزا ... لو أنني أخذت ابكي معه ، اذن لكان يمكن أن يغفر لي ، انه كان في شوق عنيف الى الغفران ! .. ولكن هذا كله انقلب منذ اللقاء الأول الى تكشيرات سكران ، الى حركات فظة غليظة ، الى تأوهات جبانة كتأوهات امراة مهانة (والقرنان ، القرنان اللذان تباهي بهما !..) من اجل هذا انما جاء ثملا. لقد سكر حتى يستطيع أن يسكت مايعتلج في نفسه ، ولو بعربدات . ذلك انه ما كان ليستطيع أن يتكلم بدون سكر . هل كان يحبها ، هذه العربدات وتلك التهريجات ؟ آه كم كان يحبها ! وماكان أشد فرحة حين استطاع أن يحملني على تقبيله ! ولكنه كان لايعرف كيف سينتهي الأمر: اينتهي بقبل أم بطعنات سكين ؟ وأخيرا ، كان أفضل شيء هو أن يقبل وأن يقتل . كان هـذا هو الحل الطبيعي . نعم ان الحياة لا تحب الاشخاص الشاذين ، وهي تتخلص منهم « بحلول طبيعية » . واشد الشاذين هو ذلك الذي يحمل عواطف نبيلة . أعرف ذلك من تجربتي الشخصية يا بافل بافلوفتش ! الطبيعة ليست للشاذين أما رءوما ، بل أم جافية شرسة. تنجب الشاذ الأشوه ام تقضي عليه بدلا من أن ترثي لحاله وترأف به. وكذلك يجب أن يكون الامر . ان الحنان ودموع الغفران لا تصلح حتى للشرفاء في هـذا العصر ، فما بالك بنا نحن يا بافل بافلوفتش ؟ »

« نعم لقد كان غبيا حين اخـذني الى خطيبته . خطيبته ! اللهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رحمتك ! ان التفكير في العودة الى حياة جديدة ، مع الاستعانة ببراءة الآنسة زاخليبينين ، لايمكن أن يراود الا رجلا من هذا النوع، لايمكن أن يساور الا رجلا مثل كازيمودو . ولكنك لست آثما يا بافل بافلوفتش ، لست آثما البتة . انك انسان شاذ ، وكل شيء فيك لابد اذن من أن يكون شاذا ، لابد أن تكون احلامك وآمالك شاذة . ولكنه على شذوذه شك في حلمه ، واحتاج الى ان يدعمه فلتشانينوف المحترم المعظم . كان لابد له من أن يشجعه فلتشانينوف ، من أن يؤكد له أن ذلك ليس حلما بل هو الواقع نفسه . انه لم يأخذني الى هناك الا لأنه يحترمني ، ولأنه يثق بنبل عواطفي ، ولعله كان مطمئنا الى اننا سنقبل كل منا الآخر ، هناك ، وراء دغل من الادغال ، باكيين منتحبين، غير بعيدين عن البراءة ! نعم كان لابد لهذا الزوج الابدى من أن يعاقب نفسه أخيرا في يوم من الايام ، عقابا حاسما ... ولكي يعاقب نفسه امسك بالموسى ... صحيح انه لم يمسكه عن سابق تصور وتصميم ، ولكنه أمسكه على كل حال ! « مع ذلك طعنه بسكين أمام الحاكم » . لعله حين قص على تلك الحكاية عن الوصيف كان يفكر في شيء من هذا القبيل . ترى هل كان يبيت شيئا ، في تلك الليلة ، حين نهض من سريره ، وظل واقفا في وسط الغرفة ؟ لا ... كان ذلك مزحة . لقد نهض لحاجة ، ولكنه حين رآني خائفا ، ظل لا يجيب مدة عشر دقائق ، لأنه كان يسره كثيرا أن يراني خائفا منه . ولعل الفكرة ما نبتت في ذهنه لأول مرة الا في تلك اللحظة ، حين كان واقفا في الظلام » .

« واغلب الظن مع ذلك أن شيئا مما وقع امس ، ما كان ليقع لولا انني نسيت الامواس على المنضدة . هل الأمر كذلك ؟ هل هو حقا كذلك ؟ لقد كان يتحاشاني ، ولم يجئني الا بعد ثلاثة أسابيع . كان يختبيء عني ، لأنه كان يشفق علي . اختار في أول الامر باجاوتوف ، ولم يخترني انا . وما هذه الصحون التي مضى يسخنها في الليل؟

« كان يأمل أن يصرف ذهنه الى شيء آخر ، أراد أن يصرف فكره عن السكين الى الحب ! ... كان يريد ان ينقذني ، وان ينقذ نفسه بواسطة الصحون الساخنة » .

هكذا ظل عقل فلتشانينوف يعمل مدة طويلة في فراغ .. هكذا كانت الافكار تضطرب في الدماغ المريض ، دماغ هذا الرجل الذى كان يوما من «رجال الصالونات» ... الى ان هدأ أخيرا فنام . حتى اذا استيقظ في صباح غد ، كان راسه لايزال مريضا ، ولكن ذعرا جديدا قد استولى عليه ، ولم يكن في الحسبان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان مصـــدر هــذا الذعر الجــديد هو انه ايقن فجـاة انه ، هو ، فلتشـانينوف، رجل المجتمع الراقى ، سيذهب ، فى هذا اليوم نفســه ، طائعا مختارا ، الى بافل بافلوفتش . . . لماذا ؟ لأى غرض ؟ ذلك ما كان لا يعرفه ، ولا يريد من فرط اشمئزازه أن يعرفه . كان يعرف شــيئا واحدا هو أنه محمول على ذلك حملا ، دون أن يفهم لماذا ؟

وقد بلغت هذه الفكرة المجنونة (كان لا يستطيع أن يصفها الا بأنهـا مجنونة) من الوضوح انها أخذت شـــكلا معقولا ، وانتحلت لنفسـها عذرا كافيا . كان فلتشانينوف قد تخيل ، منـــذ امس ، أن بافل بافلوفتش ، حين سيعود الى بيته ، سيسجن نفسه فى غرفته بعـد أن يقفل بابها بالمفتاح ، وسيشنق نفسه ، كذلك الخازن الذى حدثته عنه ماريا سيسويفنا . وتحولت هذه الفـــكرة شيئا بعد شيء الى يقين سخيف، ولكن لايمكن أن يغالب. كان فلتشانينوف يقول لنفسه محاولا قطع مجرى أفكاره : « ولكن علام يشنق هذا الابله نفسه ! » . ثم كان يتذكر كلمات ليزا فيقول لنفسه : « على اننى لو كنت فى مكانه فقد أشنق نفسي . . . »

وأخيراً قرر فلتشانينوف أن يتجه الى مسكن بافل بافلوفتش، بدلا من أن يذهب الى المطعم لتناول العشاء . كان يقول لنفسه : « لن ازيد على أن اسأل عنه ماريا سيسويفنا » . ولكنه ما أن وصل الى آخر السلم ، حتى وقف تحت الرواق .

هتف وقد احمر وجهه خجلا وشعوراً بالعـــار : « كيف ؟ كيف ؟ أصحيح اننى أجر نفسى الى هناك لاقبله وابكى؟ هل يجب أن أضيف هذه الضعة المجنونة الى كل ذلك العار ؟ »

ولكن العنـاية الالهية التى تسهر على جميع النـــاس اللائقين المحترمين ، قد انقذته من هذه « الضعة المجنونة » . فما أن أصبح فى الشارع حتى اصطدم بالكسندر لوبوف . كان الفتى يلهث مضطربا أشد الاضطراب . قال :

ــ كنت ذاهبا اليك . ما رأيك فى صاحبنا هذا بافل بافلوفتش ؟

فتمتم فلتشانينوف يقول بلهجة سادرة :

ــ هل شنق نفسه ؟

ــ شنق نفسه ؟ لماذا ؟

قال لوبوف ذلك محملقا .

ــ لا شيء . اكمل كلامك !

ــ ان لك لافكارا عجيبة حقا ! لم يشنق نفسه (وعلام يفعـل ؟) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعكس . لقد سافر . أركبته القطار منذ هنيهة ، وشحنته . ولكن ما أكثر ما يشرب ! لقد افرغنا ثلاث زجاجات . وبرديبوسيلوف أيضا . ما أكثر ما يشرب ! ما أكثر ما يشرب ! كان يغني في القطـــار . وقد تذكرك ، ولوح لنا بيده ، وحملنا تحية لك . ولكنه وغد . ما رأيك ؟

كان الفتى ثملا : يدل على ذلك وجهه المشرق ، وعيناه اللامعتان. ضحك فلتشانينوف ملء حنجرته .

ـ اذن لقد انتهى الى التـآخي بالشرب . هاها ها . لا شك أن كلا منهما قد قبل الآخر وبكى . آه منكم أيها الشعراء ، يا اخوة شيللر!

ـ لاداعي الى الشتم ، ارجوك . اعلم انه تنازل هناك عن كل شيء. ذهب اليهم امس واليوم . وشي بنا ، فحبسوا ناديا في حجرة بالقبو. وكان صراخ ، وكان بكاء ... ولكننا لن نخضع !.. ليتك تعرف كم يشرب ! ثم ما كان اسوأ ابتهاجه من نهجة : انه يتحدث عنك دائمـا ، ولكن انى له أن يشبه بك ! أنت على كل حال رجل محترم ، ولقـــد كنت فيما مضى من الطبقة العليا من المجتمع ، وانما أنت تنعزل عن هذه الطبقة الآن لقلة مواردك ، فيما أظن .. ليذهب الى الشيطان !.. انني لم افهم حق الفهم !..

ـ أهو الذي حدثك عني بهذا ؟

ـ نعم هو، ولكن لاتغضب. لخير للانسان أن يكون مواطنا صالحا من أن ينتمي الى الطبقة العليا ... اقول هـذا لأننا اصبحنا في روسيا لا نعرف في هذه الايام من نحترم ونقدر . لا شك انه بؤس في عصر من العصور ألا يعرف المرء من يحترم ويقدر . أليس هذا صحيحا ؟

ـ صحيح ، صحيح ، ولكن هو ؟

ـ هو ؟ من ؟ ها ... نعم ... ترى لمـــاذا كان لا ينفك يقول : « فلتشانينوف هذا له من العمر خمسون عاما ، ولكنه مهدم » . لمـاذا يقول « ولكنه مهدم » ، بدلا من أن يقول « ومهـــدم » . كان يضحك ويردد هذا الكلام ألف مرة . وحين ركب القطار ، اخذ يضحك ، ثم اخذ يبكي . كان ذلك يبعث على القـرف والاشمئزاز لا أكثر من ذلك ولا اقل . كان هذا الرجل السكران في حالة من الوضاعة يرثى لهـا . انني لا احب البلهاء ! وقد اخذ بعد ذلك يوزع مالا على الفقراء على روح اليزابت . أهي زوجته ؟

ـ هي ابنته .

ـ ماذا بيدك ؟

ـ جرح بسيط .

ـ هل تعلم ؟ لقد احسن صنعا اذ سافر . لياخـــذه الشيطان . والكنني أراهن على انه سيتزوج فـــور وصوله الى هناك . الا تعتقد بذلك ؟

ـ ولكنك تريد انت أيضا ان تتزوج ؟

ـ أنا ؟ زواجي انا شيء آخـــر ... انك حقا لشخص عجيب ! اذا كنت أنت في الخمسين من العمر، فلابد أن يكون هو في الستين. يجب على المرء أن يكون منطقيا ياعم . ثم انني كنت في الماضي ، منذ مدة بعيدة ، من أنصارالسلافية ، اما الآن فنحن ننتظرالفجر من الغرب. هيا ! الى اللقاء . من حسن الحظ أنني صادفتك في الشارع ، فما اضطررت ان أصعد الى بيتك . يستحيل أن أدخل ، لاتلح ، لاتلح.

قال هذا واستأنف ركضه ، ولـكنه ما لبث أن عاد أدراجه ـ

ـ أين دماغي ؟ لقد حملني رسالة اليك . هذه هي الرسالة . لمـــاذا لم تصحبه الى المحطة ؟

صعد فلتشانينوف الى بيته ، وفض الغلاف الذي كتب عليه اسمه . لم يكن الغلاف يضم سطرا واحدا من بافل بافلوفتش، بل كان يحتوي على رسالة أخرى عرف فلتشانينوف خطهـــا . كان الورق قد اصفر ، وكان الحبر قد كبا . ان الرسالة مكتوبة منذ عشر سنين ، بعد سفره من ت ... بشهرين . ولكنها لم ترسل اليه ، بل أرسلت اليه رسالة اخرى بدلا منها. ذلك واضح من مضمونها. في هذه الرسالة تودعه ناتاليا فاسيليفنا الى الأبد، كما في الرسالة التي وصلته ، ولا تخفي عنه أنها حامل ، مع اعترافها بأنها تحب الآن شخصا آخر . ولـكنهـــا تعده ، من قبيل المواساة له ، بأنهـــا ستنتهز فرصة من الفرص لرد ابنهما اليه ، وتقول ان عليها بعد الآن واجبات اخرى ، وان صداقتهما موطدة بذلك الى الابد . اي ان الرسالة كانت خالية من المنطق ، ولكن الهدف واحد ، هو التخلص من حب فلتشانينوف . حتى لقد سمحت له بأن يجيء الى ت .. بعد سنة ، ليرى الطفل . لا يدري الا الله لمـــاذا استعاضت عن هذه الرسالة برسالة أخرى بعد أن فكرت في الامر .

امتقع لون فلتشانينوف وهو يقرأ الرسالة ، ولكنه تخيـــــل بافل بافلوفتش ، وهو يعثر على هذه الرســــــالة فيقرؤها لأول مرة أمام الصندوق المصنوع من خشب الابنوس والمرصع بالصدف .

قال في نفسه وهو ينظر الى وجهه في المرآة : « لا شك أن وجهه هو ايضا قد امتقع حتى صـــــار كالميت . واغلب الظن انه كان يقرأ ، ثم يغمض عينيه ثم يفتحهما عسى أن يجد الرسالة قد استحالت ورقة بيضاء ... ولا شك انه كرر التجربة ثلاث مرات على الاقل ! ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٧

الزوج الأبدى

انقضت على هذه الأحداث التى رويناها سنتان. ها نحن أولا نرى السيد فلتشانينوف ، ذات صباح من الصيف ، فى عربة قطار من قطر سككنا الحديدية الجديدة . انه ذاهب الى أوديسا لرؤية صديق له ؛ ولهدف آخر لا يقل عن ذلك متعة وجمالا : كان يأمل أن يلقى ؛ بواسطة هذا الصديق ، امرأة جميلة يريد منذ مدة طويلة أن يوثق معرفته بها . لا نريد الآن أن ندخل فى التفاصيل ، وحسبنا ان نذكر أن فلتشانينوف قد تبدل خلال هاتين السنتين تبدلا كبيرا ، أو قل انه تحسن تحسنا كبيرا ، فقد زالت سوداويته القديمة ، دون أن تخلف اثرا يذكر .

لم يبق له من « ذكرياته » ومن انواع القلق (نتائج حالته المرضية) التى حاصرته فى بطرسبرج ، منذ سنتين ، ابان ملاحقته شئون تلك الدعوى الشقية ، لم يبق له منها الا شعور خفى بالخجل من ذلك الضعف . وكان اعتقاده بأن ذلك لن يقع بعد الآن ، وبأن أحدا لن يعرف منه شيئا ، يعزيه بعض العزاء . كان أثناء تينك السنتين قد هجر علاقاته الاجتماعية هجرا تاما ، وكان لا يعنى بهندامه ، وكان يختبىء عن الناس ، ولا شك أن جميع أبناء الطبقة الراقية قد لاحظوا ذلك . ولكنه سرعان ما عاد الى المجتمع ، نادما ، مستردا ثقته بنفسه ، متبدلا كل التبدل ، وبلغ من هذا كله أن « جميع » الناس ما لبثوا أن عذروا اهماله ذلك الوقت .

حتى أن أولئك الذين انقطع عن تحيتهم كانوا أول من اعترفوا به ، ومدوا اليه أيديهم ، دون أن يسألوه عن شىء ، كأنه كان خلاله ذلك الوقت كله غائبا عنهم لأسباب عائلية لا شأن لأحد بها ، ثم عاد اليهم . ولا شك ان سبب هذه التبدلات السعيدة انما هو النتيجة التى انتهت اليها الدعوى . ذلك ان فلتشانينوف قد حصل على مبلغ ستين الف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روبل ، وهو مبلغ ليس بالضخم حتما ، ولكن له عند فلتشانينوف قيمة كبيرة. فقداصبح الآن راسخ القدم ، مطمئن النفس . هـذا اولا ، ثم انه كان يعلم ثانيا أنه لن يبدد موارده الأخيرة هذه تبديدا ابله ، كمـا فعل بثروتيه السابقتين ، وأن هذا المال سيكفيه الى آخر حياته . وكان يقول لنفسه احيانا وهو يرى هذه الأشياء العجيبة التى تدور من حـوله فى روسيا : « لا مانع ان ينهار نظامهم الاجتماعى ، ولا مانع ان ينفخوا فى آذاننا ما يشـاءون ... ان البشر والافكار تتبدل ما حـلا لهـا التبدل ، أما أنا فسأظل واثقا من هذا الطعام اللذيذ الذى اجلس اليه الآن ، وانا تبعا لذلك مستعد لـكل شىء » .

ان هذه الفكرة العذبة المتعة قد استولت عليه شيئا فشيئا استيلاء تاما ، وبدلته تبديلا كبيرا ، بدلته جسما وروحا معا . انه الآن انسـان آخر ، لا يمت بصلة الى ذلك « المتـذمر » الذى وصفناه والذى كانت تقع له قصص غير لائقة . كان مظهره مرحا ، متفتحا رضـيا . وحتى الغضون المقلقة التى ظهرت حول عينيه وفى جبينه قد زالت زوالا شبه تام ، وابيض لونه وتورد .

انه الآن جالس جلسة مريحة فى عربة من عربات الدرجة الاولى من القطار ، وقد راودته ، منذ لحظة ، فكرة ممتعة جدا . هناك تفرع فى السكة بعد محطتين : ان خطا جديدا يتجه الى اليمين : (فـاذا تركت الخط المستقيم وانحرفت يمنة ، استطعت بعد محطتين من ذلك التفرع أن أمضى الى زيارة سيدة عادت من الخارج منذ قليل ، وهى تقيم الان فى الريف وحدها ،وهذا يفيدنى وان كان يسيئها . وفى وسعى اذن أن اقضى هنالك وقتا جميلا لا يقل جمـالا عن الوقت الذى سأقضيه فى أوديسا ، خاصة واننى استطيع أن اذهب الى أوديسا فيما بعد). ولكنه كان لا يزال مترددا ، لا يستطيع أن ينتهى الى قرار . كان ينتظر « الصدمة » المفاجئة التى يمكن أن تحمله على أن يعزم أمره . أن القطار يقترب من المحطة ، وها هي ذى الصدمة تحدث .

ان وقوف القطار فى هذه المحطة يدوم أربعين دقيقـة . وفى وسع المسافرين أن يتناولوا فيها طعام الغداء . وهاهوذا الجمهور يزدحم عند باب قاعة الانتظار ، نافد الصبر ، متعجلا ، كالعادة . وكالعـادة أيضا ، فى اغلب الظن ، وقعت فضيحة . نزلت من مركبة من مركبات الدرجة الثانية سيدة جميلة جدا ، ولكن ملابسها صارخة الالوان قليلا بالنسبة الى مسافرة ، نزلت من العربة وهى تجر ، بكلتا يديها تقريبا ، ضابطا من سلاح الفرسان ، شابا جميلا ، يحاول أن يتفلت منها . كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفتى بالغا من سكره كل مبلغ ، وكانت السيدة ، وهى قريبة له أكبر منه سنا فى اغلب الظن ، لا تتركه خشية ان يذهب الى المشرب . وقد اصطدم الضابط بشاب تاجركان يتطرب ويعبثخارجاعلىكلاتزان : انه فىالمحطة منذ يومين يشرب معءدد من رفاقه ، ويبددماله هدرا ، دون أن يجد فرصة لمتابعة طريقه . وقام أذن شجار : فالضابط يصرخ ، والتاجر يشتم ، والسيدة مصعوقة تحاول أن تجر الضابط ، وتتوسل اليه هاتفة به « ميتنكا ، ميتنكا ! » (١) وبدا ذلك للتاجر الشاب أمرا فاضحا معيبا . صحيح ان الناس كانوا يضحكون ، ولكنه شعر هو بأن عواطفه الأخلاقية قد خدشت وأهينت ، لا يعلم الا الله لماذا ...

قال عائبا وهو يقلد صوت السيدة المنغم :

ــ هل ترون هذا ؟ « ميتنكا ! » ... انهما لا يستحيان ، حتى أمام الناس .

قال ذلك ثم اقترب متمايلا مترنحا من السيدة التى ارتمت على احد المقاعد واجلست الضابط الى جانبها ، فرماها بنظرة احتقار ، وقال لها بصوت متعثر :

ــ ما انت الا امراة قذرة ! امراة قذرة !

فصرخت السيدة صرخة حادة ، والقت حولها نظرات باكيــة تطلب النجدة . كانت تشعر بالعار والخوف . وزاد الطين بلة ان الضـــابط وثب عن كرسيه يرغى ويزبد ، ويهم أن يهجم على التاجر ، ولكنه انزلق وتهاوى على كرسيه مرة أخرى ، فازداد ضحك الناس ولم يفكر احد فى التدخل ... الا فلتشانينوف الذى هب الى النجدة ، فامسك التاجر من ياقته ، وهزه ، ثم دفعــه خمس خطوات عن المراة المذعورة . فكان هذا نهاية الفضيحة : ان الشاب التاجر ، وقد أرهبته الهزة واوجس خيفة من هامة فلتشانينوف ، ما لبث أن استسلم لرفاقه يجرونه الى بعيد . واحدث مظهر هذا السيد المهيب الانيق أناقة عظيمة ، احدث اثرا كبيرا فى الضاحكين ، فكفوا عن الضحك . واخذت السيدة ، وقد احمرت احمرارا شديدا وترقرقت الدموع فى عينيها ، اخذت تعبر لفلتشانينوف عن شـــكرها فى تدفق . وتمتم الضـــابط يقــول : « شـ..كـ..ـرا ... شـ...كـ..ـرا » ، واراد أن يمـــد يــده الى فلتشانينوف ، ولكنه عدل عن ذلك ، واستلقىعلىالـكرسى بجسمه كله .

---

(١) « ميتنكا » هو تصغير « ديمترى » للتحبب والمداعبة .

وقالت السيدة متأوهة ، بلهجة اللوم ، وهى تضم يديها احداهما الى الاخرى :

ــ ميتنكا ! ...

سر فلتشانينوف من هذه المغامرة ومن ظروف تدخله . ان هذه السيدة تعجبه : لا شك انها ريفية ذات ثراء ، فملابسها غنية ، وان تكن بغير ذوق مرهف ، وحركاتها مضحكة . وهى اذن تجمع كل الشروط التى تكفل النجاح لمحتال من العاصمة يطمع فى امرأة . وتحدثا : فكانت السيدة تتكلم بحرارة ، وتشكو زوجها الذى اختفى من المركبة فجأة ، فكان ذلك سبب كل شيء ... « انه يختفى دائما فى اللحظة التى تمس الحاجة فيها اليه » .

قال الضابط :

ــ كانت به حاجة ...

ــ أوه ... ميتنكا !

قالت ذلك وعادت تضم يديها احداهما الى الاخرى .

قال فلتشانينوف لنفسه : «مسكين أيها الزوج ! لو عرفت ماذا سيصيبك ! »

ثم سألها :

ــ ما اسمه ؟ سأذهب أبحث عنه .

ــ با ... ل با ... لتش ...

فسألها فلتشانينوف بكثير من حب الاطلاع :

ــ هل اسم زوجك بافل بافلوفتش ؟

سألها هذا السؤال ، ثم تراءى له الرأس الاصلع الذى يعرفه ، تراءى له فجأة يندس بينه وبين السيدة . وتراءت له ، فى لحظة ، حديقة زاخليبينين ، والألعاب البريئة ، وذلك الرأس الأصلع الذى لا يطاق ، ذلك الرأس الاصلع الذى كان يدخل دائما بينه وبين ناديجدا فيدوسويفنا .

هتفت السيدة مغتاظة :

ــ هذا انت أخيرا !

انه بافل بافلوفتش نفسه . كان ينظر الى فلتشانينوف مدهوشا ، مذعورا ، متجمدا ، كأنه يرى شبحا من الاشباح . وقد بلغ من فرط الانصعاق انه ظل خلال مدة كأنه لا يفهم شيئا مما تشرحه له زوجته المهانة متدفقة فى الكلام حانقة . واخيرا ارتعش وفهم فى لحظة واحدة كل فظاعة الموقف : خطيئته ، وما فعله ميتنكا ، وكيف كان « هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيد ملاكنا الحارس ، ومنقذنا ، بينما أنت تذهب حين يكون عليك أن تبقى ! » .

انفجر فلتشانينوف ضاحكا ، وقال :

ـ ولكننا صديقان قديمان ، نحن صديقا طفولة . ألم يحدثك يوما عن فلتشانينوف ؟

قال ذلك للسيدة المدهوشة كل الدهشة ، وهو يضع يده اليمنى بلا كلفة على كتف بافل بافلوفتش الذى كان يبتسم ابتسامة غامضة .

أجابته السيدة وهى متحيرة بعض التحير :

ـ لا ، أبدا .

فقال لصاحبه :

ـ هيا قدمنى الى عروسك أيها الصديق غير الوفى !

ـ نعم ، هى ليبوتشكا (١) يا سيد فلتشانينوف ...

بدأ يقول ذلك مضطربا ، وارتبك . واحمر وجه زوجته ورمته بنظرة حانقة ، لأنه دعاها ليبوتشكا .

قال فلتشانينوف :

ـ تصورى أنه لم ينبئنى بأنه سيتزوج ولا دعانى الى حفلة الزواج . أما أنت يا أولمبيادا ...

ـ سيميونوفنا

قال بافل بافلوفتش ذلك يلقنه تتمة الاسم . وتدخل الضابط النائم يقول فجأة :

ـ سيميونوفنا .

ـ اعذريه يا أولمبيادا سيميونوفنا . أقسم لك بشرفى ، وبشرف لقائنا هذا ... انه زوج ممتاز .

قال فلتشانينوف ذلك وضرب بافل بافلوفتش على كتفه ضرب الصديق لصديقه تحببا .

حاول بافل بافلوفتش أن يبرر نفسه ، فقال :

ـ انما ابتعدت يا عزيزتى لحظة قصيرة ...

ولكن ليبوتشكا قاطعته فورا بقولها :

ـ وتركت زوجتك تشتم وتحقر ... حين نكون فى حاجة اليك نبحث عنك فلا نجدك ، وحين لا نكون فى حاجة اليك تظل معنا .

فكرر الضابط يقول ملحا :

---

(١) تصغير أولمبيادا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ حيث لا يجب ، تكون ... حيث لا يجب ، حيث لا يجب ...

كانت ليبوتشكا تكاد تختنق غضبا . كانت تفهم ان ذلك لا يحسن أمام فلتشانينوف ، فكانت تحمر خجلا ، ولكنها لا تستطيع أن تكظم غيظها . فأفلت من لسانها قولها :

ـ انت مفرط في الحذر حين لا يجب الحذر ، مفرط في الحذر .

وتحمس ميتنكا بدوره قائلا :

ـ تحت السرير ... يبحث عن عشـــاق ... تحت السرير ... حيث لا يجب ... لا يجب ...

ولكن كان لا يمكن الرد على ميتنكا بشيء . ثم أن الامور قد انتهت على احسن وجه . زاد التعارف ، وأرسل بافل بافلوفتش ليأتى بقهوة ومرق. وذكرت أولمبيادا سيميونوفنا لفلتشانينوف انهم آتون من(و.. مكان عمل زوجها ، وانهما ذاهبان الآن الى أرضهم التى تبعد عن المحطة مسافة اربعين كيلو مترا ، لقضاء شهرين : وأن لهم هنالك بيتا جميــلا وحديقة ، وانهم ينتظرون عددا من الزوار ، وأن لهم هنالك عــدداً هــذا كثيرا من الجيران ، وقالت له : اذا أحب الكسى ايفانوفتش أن يتفضل بزيارتهم « في عزلتهم » ، فستستقبله على أنه «ملاكها الحارس الامين»، لأنها لا تستطيع أن تتصور ، دون جزع شديد ، ما كان يمكن أن يقع هنا لولا ... الخ ... المهم أنهــا ستستقبله على أنه « ملاكها الحــارس الأمين » .

قال الضابط يلح في حرارة :

ـ منقذ ، منقذ ...

شكرها فلتشانينوف بـكثير من اللطف والأدب ، وأجاب بأن زيارته لهم تسره كثيرا ، وليس هناك ما يمنعه من القيام بهذه الزيارة ، اذ ليس له مشاغل تحجبه عنها ، وانه يعتز بهذه الدعوة التى وجهتها اليه أولمبيادا سيميونوفنا . ثم ما لبث أن بدأ حديثا مرحا جدا ، استطاع اثناءه أن يكيل لها المديح مرتين أو ثلاثا . فاحمرت ليبوتشكا لذة ، فما ان عاد بافل بافلوفتش حتى انبأته ، فرحة ، بأن الكسى ايفانوفتش قد تفضل فقبل أن يقضي معهم شهراً في القرية ، وبأنه وعد أن يجيء بعد أسبوع ، فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تائهة دون أن يقول شيئا . فهزت اولمبيادا سيميونوفنا كتفيها الجميلتين ، ورفعت نظرها الى السماء . وهموا أخيرا أن يفترقوا ، فعــــادت تفيض في التعبير عن شكرها ، واستعملت مرة أخرى قولهــــا « الملاك الحارس الأمين » ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و « ميتنكا » الخ . وقاد بافل بافلوفتش زوجته والضابط الى عربة القطار .

اشعل فلتشانينوف سيجارا ، وراح يمشي على الرصيف جيئة وذهابا . كان يعلم أن بافل بافلوفتش سيهرع اليه ليقول له بضع كلمات قبل تحرك القطار . وذلك ما حدث فعلا . فقد ظهر بافل بافلوفتش ، وكانت قسمات وجهه وعيناه تعبر عن تساؤل قلق . فأخذ فلتشانينوف يضحك ، وأمسكه من ساعده « امساك الصديق لصديقه » ، وسار به الى مقعد قريب ، فجلس عليه واجلسه الى جانبه . كان ساكتا ، يريد أن يبدأ بافل بافلوفتش الكلام . فتمتم بافل بافلوفتش يقول داخلا في الموضوع رأسا :

ـ اذن ستأتي الينا ؟

ـ كنت أعرف انك ستسألني هذا السؤال . لم يتغير بافل بافلوفتش اي تغير .

قال فلتشانينوف ذلك ، وانفجر ضاحكا . ثم أردف ، وهو يضربه على كتفه مرة اخرى :

ـ ولكن هل استطعت ان تصدق حقا ، خلال لحظة واحدة ، انني سأجيء اليكم ؟ وانني أيضا سأقضي معكم شهرا كاملا ؟ ها ها ...

فنهض بافل بافلوفتش واقفا وقد ظهرت عليه علائم الفرح الشديد . وهتف دون أن يخطر على باله اخفاء فرحه :

ـ اذن لن تجيء ؟

ـ لا لن أجيء ، لن أجيء .

قال فلتشانينوف هذا ، وابتسم ابتسامة الرضا . وكان ، من جهة اخرى ، لا يفهم كل الفهم لماذا يبدو له هذا الأمر كله مضحكا ، ولكنه كان كلما ازداد تفكيرا فيه ، ازداد شعورا بأنه مضحك .

ـ حقا ؟ هل تقول هذا جادا ؟

سأل بافل بافلوفتش هذا السؤال ، وهو ينتفض انتفاضة من يستبد به انتظار محموم . فأجابه فلتشانينوف :

ـ قلت لك انني لن آتي . انك حقا لغريب ! ...

ـ ولكن اذا كان الأمر كذلك فماذا أقول لاولمبيادا سيميونوفنا التي ستنتظرك ، حين ينقضي الاسبوع وما تجيء ؟

ـ قل لها كسرت ساقه أو قل لها اى شيء آخر من هذا القبيل .

فقال بافل بافلوفتش بصوت ضعيف متوجع :

ـ لن تصدقني !

ـ وهل يصيبك من هذا مكروه ؟ انني ألاحظ يا صديقي العزيز أنك ترتعد خوفا أمام امراتك الفاتنة ، هه ؟

قال فلتشانينوف ذلك ضاحكا . فحاول بافل بافلوفتش أن يبتسم ولكنه لم يستطع . أما أن يرفض فلتشانينوف المجيء فذلك شيء عظيم ، وأما أن يتحدث عن السيدة تروسوتسكي بهذه اللهجة التي زالت منها الكلفة فذلك لا يسر . وأظلم وجه بافل بافلوفتش . وفي أثناء ذلك قرع مرة ثانية الجرس الذي يؤذن بتهيؤ القطار للمسير ، ودوى من بعيد صوت صفيرقلق ينادي بافل بافلوفتش. فأخذهذا يضطرب ، ولكنه لم يدرك النداء : كان ينتظر أن يعده فلتشانينوف مرة اخيرة بأن لا يجيء .

ـ ما اسم زوجتك قبل أن تتزوج ؟

هكذا سأله فلتشانينوف كأنه لا يلاحظ قلقه . فأجابه وهو يصيخ بسمعه وينظر الى عربة القطار نظرات قلقة :

ـ هي ابنة رئيس كهنتنا .

ـ ها ... نعم . اظن انك تزوجتها لجمالها ، اليس كذلك ؟

فلما سمع بافل بافلوفتش هذا السؤال كشر مرة اخرى .

ـ ومن هو ميتنكا هذا ؟

ـ لا أحد ... هو شخص يمت الى بقرابة ... قرابة بعيدة . أنه ابن ابنة عمي المتوفاة جولا بتشيخوف . اخرجوه من الخدمة لقصة من القصص ، ثم اعادوه الآن ، ولقد جهزناه تجهيزا تاما ... يا له من شاب شقي !

قال فلتشانينوف لنفسه : « كل شيء اذن على ما يرام ... كل شيء على أتم وجه ! » .

وجاء الصوت الذي ينادي من العربة وقد ازداد حنقا :

ـ بافل بافلوفتش !

واعقبه صوت آخر مخمور :

ـ با ... ل ... با .. فلتش .

فتحرك بافل بافلوفتش من جديد ، ولكن فلتشانينوف أمسكه من زنده ، وأوقفه ، قائلا له :

ـ هل تريد ان اذهب الآن الى زوجتك ، فاقص عليهاكيف حاولت ان تذبحني ؟ ما رايك ؟

فصرخ بافل بافلوفتش مذعورا ، يقول :

ـ كيف ؟ هل يخطر ببالك هذا حقا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ بافل بافلوفتش ، بافل بافلوفتش !

هكذا دوى الصوت المنادى من بعيد مرة أخرى . فتركه فلتشانينوف أخيرا وهو يضحك من أعماق قلبه ، قائلا له :

ـ هيا اذهب .

فتمتم بافل بافلوفتش ، حزينا ، يقول لآخر مرة ، وهو يضم يديه امامه كما فعل فى الماضى :

ـ لن تأتى اذن ؟

فأجابه فلتشانينوف :

ـ اقسم لك على ذلك . هيا اركض ، والا قام القطار .

قال له ذلك ومد اليه يده بحركة عريضة ، مدها ثم ارتعش : ذلك ان بافل بافلوفتش لم يتناول هذه اليد بل سحب يده .

وقرع الجرس الاخير ايذانا بتحرك القطـار . فاذا بتبدل يطرأ فى مثل لمح البصر : ان الرجلين كليهما يتغيران الآن . ان شيئا قد اهتز وتحطم فى فلتشانينوف الذى كان منذ لحظة يضحك ضحكا مرحا كل المرح . فامسك بافل بافلوفتش من كتفه بقوة وقال له هامسا ، وقد اصفرت شفتاه واخذتا تختلجان :

ـ اذا مددت لك انا هـذه اليد (قال ذلك واشـار الى راحة يده اليسرى التى تظهر فيهـا ندبة كبيرة خلفهـا جرح) ففى وسعك أن تتناولها .

فاصفر وجه بافل بافلوفتش ايضا ، واختلجت شفتاه كذلك ، وطافت فى وجهه تشنجات خفيفة . ثم تمتم يقول وقد أخـذت شفتاه وخداه وذقنه ترتعش على حين فجاة ، وتدفقت من عينيه الدموع :

ـ وليزا ؟

فظل فلتشانينوف واقفا امامه متجمدا .

وصفر القطار .

فثاب بافل بافلوفتش الى نفسه ، وحرك يده بحركة حزينة يائسة ، وركض نحو القطار بسرعة . كان القطار قد أخذ يتحرك ، ولكنه استطاع ان يمسك بممسك الباب ، فقفز الى عربته طيرانا .

ظل فلتشانينوف هنالك حتى المساء . ثم ركب القطار التالى السائر على الخط المستقيم . انه لم يتجه يمنة ، لم يذهب الى السيدة التى كانت تقيم وحدها فى الريف . ولكن ما اكثر ما ندم على ذلك فيما بعد .

« انتهت »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشترك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة : **السيد /هاشم على نحاس**
جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الرواية

« الـزوج الأبـدى » هى احدى روائـع الكاتب العالمى الروسى « ديستويفسكى » ، وقد قـام بترجمتها الأديب العربى الكبير المرحوم الدكتور سامى الدروبى الذى قضى سنوات طويلة من حياته الغنية الخصبة فى ترجمة الأعمال الكاملة « لديستويفسكى » و « تولستوى » ، وترك للمكتبة العـربية ثروة نـادرة هى الأعمـال الكاملة لهـذين الأديبين العالميين .. و « ديستويفسكى » بالـذات يعتبر « أبـا » للرواية العـالمية الحديثة ، ورواياته التى كتبها فى القـرن الماضى ما زالت لامعة متالقة فى آداب الدنيا كلها ، ولا توجد لغة عالمية حية الا وتضم مكتبتها أعمال ديستويفسكى الكاملة ، بمـا فيها من متعة وخصوبة فنية عالية ، وما فيها من معرفة لا مثيل لها بأسرار النفس الانسانية ، ولقد كانتْ نعمة من السـمـاء أن يتاح للمكتبة العربية كاتب مثقف موهوب مثل سـامى الدروبى ، يعكف على ترجمـة ديستويفسكى بمقدرة نادرة وفهم عميق .. وهذه احدى روائع ديستويفسكى ، فنـا وفكرا ، نقدمها للقارىء العربى فى ترجمة دقيقة أمينة ضمن روائع الادب العالمى التى تحرص « روايات الهلال » على تقديمهـا اليه .